232
320
1075
82

عبد العزیز آل سعود

سر بینی سے

سیرۃ بطل و مولد مملکۃ

دار الکاتب العربی

Marfat.com

Marfat.com

(1075)

صاحب الجلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود

Marfat.com

Marfat.com

إلى صاحب الجلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود

1075

يا صاحب الجلالة

انك لمن عظيم فخر العالم، ان كانت في الجزيرة العربية، التي نشرت في حناياه الضياء وكان ظلاما، والهدى وكانه يعيش الضلالة، والحق وقد مزقه الباطل، والايمان وكان لا روح تدرك ولا ضمير يحاسب.

ولهذه الجزيرة، التي اعطت فأغنت وابدعت. مالبثت ان جارت عليها الاحداث، وقسا عليها الزمان، ثم شاء الله أن تعيد سيرتها الاولى من الهدى والحق والايمان، على يدي جدك العظيمين، سعود الكبير ومحمد بن عبد الوهاب الامام، ثم أبت شعلة الحق ضياءً، وسرى سيف العدالة مضاءً، على ساعدي الرجل الفذ والدك العظيم، الذي تحكي هذه الصفحات ملحمة حياته، والذي ولدت في شخصه المملكة الكبرى لتتسامى من بعده في ذرى مجدك، وتستضيء بنور عقلك، وتمثل دورها المجيد على يمناك التي فيها مخض اليمن وخالص الخير لدنيا العروبة وعالم الاسلام.

Marfat.com

وبلاد العروبة والاسلام، ياصاحب الجلالة. تستجيب اليوم من دخيل العقائد، وشعوبية المبادئ، من هدر القيم الانسانية، وتشويه المفاهيم الروحية، وقد كان اسخى ايمانك جواب ذالك النداء، وكانت صلابتك موقفك دفع ذلك البلاء، اعلاءً لشرائع الحق، ورفعاً لأعلام الهدى، وانتصاراً للكرامة الانسانية، بالعمل لا بالضجيج، وبالتنفيذ لا بالادعاء، وان كان منك القول فهو جمع الصدى للنهج الحكيم والتصميم البناء، في سيرة لا تعرف لها الا تفجير طاقات الاسلام، وتوثيق عرى العروبة، فكان سبيلك في حمل الامانة، سبيل القادة المؤمنين والرائدين الصادقين الصابرين، وغدت بك الامال مشرقة بعد يأس واتجهت اليك قلوب المؤمنين في ارجاء الارض.

فاقبل، ياصاحب الجلالة، هذه الصفحات التي كان لي فخر تقديمها بجلتك عربية، وفاءً للبطل الرائد، وولاءً لمن تابع النهج وحمل المشعل وهدى الى الطريق

في ٢٥ محرم ١٣٨٥
الموافق ٢٥ أيار ١٩٦٥

عبد الفتاح ياسين

Marfat.com

عبد العزيز آل سعود
سيرة بطل ومولد مملكة

Marfat.com

58840

Marfat.com

مقدمة

« يا طويل العمر !

منذ عهد الخليفة عمر حتى بداية عهدكم السعودي ، لم يسعد العرب بمن يجمع شملهم ، ويوحد كلمتهم ، ويعزز شؤونهم فيجعلها تحت السيادة التي فيهـــا الخير الأكبر للجميع ، اي السيادة العربية الواحدة .

« كان في بني امية معاوية ، وفي بني العبـاس المأمون ، وفي الايوبيين صلاح الدين . ثلاثة من عظماء العرب ، بل من عظماء الرجال في التاريخ العام ، ولكنهم وان وصلوا الى ذرى المجد ورفعوا اعلام العرب في اقاصي البلدان ، لم يتمكنوا من بسط سيادتهم على شبه الجزيرة كلها ، ولا كان يهمهم العنصر الاكبر فيها ، اي البدو ، الا كحطب للحروب .

« ما استطاع الامويون ان يوفقوا بين القيسية واليمانية في الشام ، ولا استطاع العباسيون ان يبسطوا نفوذهم حتى على عشائر الاحساء ، وما فكر صلاح الدين على ما يظهر في تحسين احوال البدو ونزع العداوات المتأصلة بينهم .

ولت الالف والثلاثمائة سنة وهؤلاء العرب لا يزالون كما كانوا ، وما غير الزمان شيئاً في احوالهم المدنية ، او بالحري البدوية ، ولا عمل فيهم عامل من عوامـل التطور الاجتماعي .

« الف وثلاثمائة سنة ، حتى كتب لهم بعمر ثان يُبعث اليهم بعبـــد العزيز بن سعود ، ليجمع شملهم ، ويوحد مقاصدهم ، ويعزز جانبهم ، ويؤسس ملكاً عربياً هو منهم ، وهو فيهم ، وهو لهم .

Marfat.com

« يا طويل العمر !

«ان ما قمتم به من تحضير البدو وتأسيس الهجَر لمن امجد مآثركم القومية ومن خير اعمالكم الاصلاحية ! »

بهذه الكلمات النابضة حتى لكأنها خلجات القلب ، قدم فيلسوف الفريكة امين الريحاني كتابه : « نجد وملحقاته » الى الملك عبد العزيز ، مشيداً باعجوبته المثلى وآيته الكبرى في جمع شمل الجزيرة وتوحيد مقاصدهـــا واحلال الامن والاستقرار في ربوعها ، وقد تثلمت دون ذلك سيوف بني امية ، واخفق الدهاء العباسي ، وقصرت همة الايوبيين، وانكفأت جيوش بني عثمان ... فاذا برجـل واحد ، هو عبد العزيز بن سعود ، يقوم لها بثلة من الرجال هم اقل من القلة ... فيقتحم التاريخ بدولة فتية اسلامية عربية هي : المملكة العربيـة السعودية ... فكانت اول كيان مستقل فعال يظهر في عالم العروبة والاسلام ! ...

●

وكيف لا يكون الملك عبد العزيز ملء عين الزمن وشاغل خاطر الدهر ، وهو اول ملك عربي ، شاء الله ان يكون على فخار نجاره وكريم ارومته ، كثير هموم الفتوة، مشرد أول عهد الشباب،لا يملك غير قلب كبير مفعم بالايمان،وغير ارادة كأنها هي ومشيئة الله على ميعاد ، يعيش طويل الايام في الفيافي ، ويقضي مديد الليالي في المهامه التي يضل فيها العقل وتزوغ معها الروح ويحرج بهاالصدر، فتصقله التجارب ، وتعلمه الاحداث ، ثم لا تكون تلك الارادة الفولاذية الا السيف يستله بيمينه ويضرب به ، فيسدد القدر ضرباته ويوجه الايمانخطواته.. ذلك لأن السيف في يد البطل الرائد لم يكن سيف مغامر ينشد الحكم ويطمح الى السلطان ، وانما كان سيف رجل مؤمن يجاهد عن عقيدة سامية وينزع الى غاية رفيعة ... سيفاً عربياً اسلامياً اصيلاً لا يظلم ولا يبغي ... ولا يهتز في كف

Marfat.com

صاحبه الا ذوداً عن راية التوحيد ، واعلاءً لكلمة الله ، شعاره احقاق الحق وازهاق الباطل ، وغايته ادالة دولة البغي ، وتقويض اركان الظلم ، وهمه تنقية العقيدة السمحاء بازالة كل بدعة ، وابطال كل شبهة ، ودحض كل فرية ، حتى تعود للاسلام نقاوته الاولى ، وصفاؤه الذي لا شائبة فيه ... ذلك كان شأن آل سعود في تاريخهم الحافل ... فما عرفت دعوة التوحيد ، منذ عهود الاسلام الاولى ، مثل آل سعود ، مناضلين في سبيلها ، مجاهدين من اجلها ، يقاتلون ويُقتلون ايماناً بها ، لا يهادنون فيها ولا يهاودون ، ولا يجنون ولا يحابون .

●

ومن مآثر الملك عبد العزيز انه اول حاكم عربي يرمي ببصره الى مـــا وراء حدود بلاده، باسطاً يده الى نصرة كل قضية عربية ومؤازرة كل نضال اسلامي . ويشهد تاريخ العرب الحديث على ان الحركات الوطنية التي عرفتها البلاد العربية في مشرقها ومغربها مدينة للملك عبد العزيز بما قدمه لها من عون معنوي ومادي كان له اكبر الأثر في نجاح تلك الحركات ، فكان المجـــاهدون العرب في المشرق والمغرب ينهدون اليه عند كل ملمة ، ويستشيرونه في كل مشكلة ، ويستنجدونه في كل خطب ، فيجدون فيه الاب والأخ والصديق ، كما يجدون فيه المعلم الكبير في ممارسة الكفاح ومعالجة الاحداث ، ويرجعون من لدنه ، وهم اكثر ايمانـــاً واشد ثباتاً واعظم تبصراً ، وارسخ قدماً في النضال،واصدق صبراً على الاهوال .

وهكذا تحولت « الرياض » في عهد الملك عبد العزيز من بلدة ضائعة في غمار الصحراء ، الى عاصمة للعرب اجمعين ، فاصبحت قلب العروبـــة النابض وروحها الحي ، كما غدت الجو الذي يجتمع في ظله الشمل المؤمن ، وتترعرع في حناياه البيئة الطيبة التي تُبعث فيها الفتوة العربيـــة ومكارم الاخلاق ... ذلك كله في قطعة من الصحراء ردت البيداء قيما عليا ومثـــلاً فضلى ، واعادت سيرة

Marfat.com

الفاروق عمر حية اصيلة وعربية كريمة بعـــد الف وثلاثمائة ونيف من السنين ، مشياً على رقاب العصور ، وتخطيـــاً للازمنة والدهور ، في شخص البطل الفذ الذي لم يحمل السيف في يده مرة ، الا وحمل القرآن في اليد الاخرى ، وما عالج شؤون العصر بروح الوعي والتطور ، الا وهو يتمثل آيات الرسالة الخالدة ومناهج الاسلام السامية .

•

اذا كانت البطولة مثلاً يهدي به الله الناس فلا يظلمون ولا يُظلمون ، فقـــد كانت حياة الابطال وما زالت تلهم العبقريات ، وتوحي بشريف الكلمة ، وتهز الضمير الحي ، وتعلم بالسيرة الحافلة والقدوة الحسنة ، واذا كان الغربيون قد دأبوا على نشر تراجم اعلامهم وابطال تاريخهم ، ليتخذ الناشئة منهـــا قدوة ومثلاً ، فانه لأحرى بنا نحن العرب في جميع ديارنا ، وليس في العربية السعودية فحسب ، ان نعكف على دراسة حياة الملك عبد العزيز وهو البطل الذي لا تجود بمثله الجزيرة العربية ، وهي منبت الرجال ومصنع الابطال،الامرة واحدة خلال عدد من العصور ، وان ننشر وقائع حياته ومواقف بطولته لانها من خير مـــا يعلم ويرشد ويهدي الى الحق والخير ...

الا وإن سيرة الملك عبد العزيز غنية بالعبر ، مليئة بالعظات ... الا وإن من ابلغ عبرها وعظاتها ان من يتسلح بالايمـــان ، وبالارادة ،وبالصدق ، قولاً وعملاً ، يستطيع ان يصنع المعجزات ... ومن احرى منا ، نحن ابناء هذا الجيل في واقعنا الحافل بالأحداث والأخطار ، باتخاذ سيرة الملك عبد العزيز ، في ايمانه الراسخ ، وارادته الحديدية ، ودأبه المتواصل الذي لا يمل ، وصدقه في المطابقة بين اقواله واعماله ... القدوة المثلى والشعلة التي تنير لنا الطريق ...

Marfat.com

وفي هذا الكتاب، الذي الفه عن فهد الجزيرة علم من اعلام الفكر في الغرب ، ملامح معبرة من صورة الملك عبد العزيز وخطوط بارزة من سيرته ، ومواقف مشهودة من بطولته ، ولكنها ليست كل الملامح والخطوط والمواقف ... لأن حياة الملك عبد العزيز اكبر من ان يحيط بها كتاب واحد ، واروع من ان ترسمها ريشة واحدة ، وابلغ من ان يعبر عنها قلم واحد مهما تفرج له من جوانب البيان ..

رحم الله الملك عبد العزيز ...

ان من بنى للاسلام دولة .. وجعلها مصدر خير ويمن لبلاد العروبة والاسلام ..

وإن من صان بيت الله وطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود ..

وإن من أنجب للعرب والمسلمين كفيصل ..

فان له من الله الرحمة ، وله من ربه الرضوان .

عبد الفتاح ياسين

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الاول

العرب بين الحركة والجمود

(٥٠٠٠ قبل الميلاد - ١٨٨٠ ميلادية)

Marfat.com

Marfat.com

١

عندما نستعرض شبه الجزيرة العربية في خيالنا ، فانه ليصعب علينا ان نتصورها غير كتلة صحراوية من الحجارة والرمـال اشبه ما تكون بجمرة تفنى وئيدة، تحت شمس محرقة،وهي، خلافاً لكثير من أقطار العالم، بلاد حرمت فيها الأرض من دورها الاولي فاستأثر به النور والسماء ، فتبدو وكأنها عالم جبل من جوهر غير مادي،ذو آفاق اقرب الى الخيالات المتراقصة المنبعثة من اجيج النار منها الى المناظر الطبيعية المألوفة .

ومع ذلك ، فانها لم تكن دائماً كذلك ، لأن المؤرخين يؤكدون لنا ان الجزيرة العربية كانت في العهود السحيقة بلاداً خصبة خضراء ترتوي بأنهار كثيرة وأقليما زاهيا تطرد فيه المراعي والغابات ، يوم كانت اوروبا لا تزال دفينة يلفها كفن العصر الجليدي الأبيض .

كيف كانت الحياة في هذه الجزيرة العربية ، ايام نضارتها ووارف اشجارها وخرير ينابيعها وسط الغابات ؟

اننا لا نعلم شيئاً ولم يصلنا اي دليل عنها . ولكن مما لا شك فيه ان حياتها الحيوانية كانت شبيهة بتلك التي نراها في الهند وافريقيـا ، اذ تشكل الجزيرة العربيـة صلة الوصل بينهما ، ولهذا يفترض انها كانت موطنـاً « للماموت » والابقار الوحشية والجواميس والغزلان والنسور والفهود .

ولكن ذلك كله قد انقرض الآن .

Marfat.com

فعندما انحسر الجليد نحو الشمال ، خرجت اوروبا من سباتها وتفتحت على الحياة ، فيما اخذت الشمس تلتهم غابات الجزيرة العربية وتحولها الى صحراء . فتساقطت الاشجار رماداً وندُرت الأمطار وجفت الانهار بامتداد الحريق شيئاً فشيئاً وجاءت الرياح ، التي لم يعد يعترضها عائق ، رياح الجنوب الرهيبة ، تغطي مراعيها بطبقة متموجة متنقلة من الرمال .

وبقيت الامور على حالها عدة آلاف من السنين ، وقامت على اطراف شبه الجزيرة العربية حضارات لمعت كالشهب الخاطفة وتألقت في اوج سموهـــا ، وسطعت بنور باهر ثم ما لبثت ان اندثرت .

وتلاحق التألق والاندثار في سرعة جعلت الامجاد تضمحل حيال الاحساس بالضعف وقرب الانهيار .

ممالك عظيمة نشأت هكذا وانقرضت : فالى الشرق ، على ضفاف دجـــلة والفرات ، توالت امجـاد أور وبابل ونينوى والمدائن ، وحول هذه الحواضر المترفـــة تعاقبت امبراطوريات السُومريين والاكاديين والاشوريين والفرس ، وزالت الواحدة تلو الاخرى ، مخلفة في اعقابها سلسلة من المدن الميتة ، تعكف الشمس على تذويب معالم امجادهـــا . والى الغرب في وادي النيل نهضت مصر الفراعنة ولفت قمة عظمتها حول مدينتي طيبة وممفيس . ثم اضمحلت بدورهـا وما عاد يسمع في ارجائها غير نعيق البواشق تحوم فوق خرائب المدافن الملكية. والى الشمال على شواطىء المتوسط برزت وازدهرت دولة الفينيقيين وامبراطوريتا الاغريق والرومان .

أمـــا الجزيرة العربية فقد بقيت في معزل عن هذه التيارات ، منطوية على ذاتها ، يلفها الجمود والصمت ، في قطيعة مع الزمن والتطور والتاريخ . ولم يكن في استطاعة العالم المتحضر آنذاك ان يخترق ستار اللهب الذي كان يحجبها عن الانظار . ولانها كانت مجهولة ، فقد كان يُظـّن انها بلاد سعيدة . والقليل الذي

Marfat.com

كان معروفاً عنها سطحي ومتناقض. وبين الفينة والفينة كان يسمع في صور او في بيبلوس حديث تاجر يحمل اليها من الهند المجوهرات والعـاج والتوابل يعبر عن اعجابه بالممالك التي اجتازها في رحلته ، ويصف في حماسة المدن المتوارية خلف رمال الصحراء ، فكان بعض الكتبة والعلماء يتلقف هذه الاساطير ويمهرهـا ، دون ان يمحصها ، ، بخاتم شهرته . وهكذا نرى الجغرافي بطليموس يحصي في « العربية السعيدة » وحدهـا مئة وسبعين مدينة محصنة ، بينهـا ست حواضر وخمس مدن ملكية .

وفي العام الرابع والعشرين قبل الميـلاد ، صمّم الامبراطور اوغسطوس على تحري ما تنطوي عليه هذه الاساطير من حقائق ، فعهد الى والي مصر آيليوس غالوس باجتياح شبه الجزيرة للاستيلاء على الحصون التي كان الرواة يشيدون بثرائها . فعبأ الوالي كتائبه وامر الجنود ان يتدرعوا بدروعهم النحاسية الثقيلة ، وتوغل على رأسهم في قلب بلاد العرب . فمـا لقي سوى ارض قاحلة كئيبة ، تسكنها قبائل متوحشة . فقدهلك معظم الجيش ظمأ اثناء الحملة ، وصرع القيظ والارهاق الفلول الباقية . وتركت الاشلاء مكدسة بالمئات فريسة للجوارح . ومّر بها عرب البادية بعد بضعة اسابيـع فألفوها شبه مدفونة في الرمال ، هياكل عظمية ما تزال ايديها قابضة على السيوف .

عدلت روما بعد ذلك ، بنـاء على نصيحة آيليوس عن محاولة اخضاع شبه الجزيرة العربية ولتثبت بالتالي بلاد العرب ممتنعة المنال ، في عزلة عن العالم ، لانها اقليم جاف قاحل غير صالح للحياة ، وبلاد عاسفة قاسية ، يقطنها شعب لا يقل عنها قسوة وعسفاً .

هناك ، حيث يوجد قليل من الماء : ماء بئر مستديرة في وسط واحـة او على الشطآن ، استطاعت بعض القبائل ان تبني لها قرى صغيرة من اللبن والقش ، فيما كان سواها يعاني شظف العيش يرعى قطعاناً هزيـلة وراء كلأ اكثر هزالا

Marfat.com

فتراهم شعثاً جياعاً بعيدين عن اية حضارة ، انما ثروتهم الوحيدة حيوية نابضة في عروقهم وسيعة المدى شأن كل ما تبثه الصحراء من انفعالات في قلب الانسان .

٢

ان الصحراء ليست هامدة وخاوية الا بالنسبة الى الذين يجهلون اسرارها . فخلال هذا الاطار الجامد المتحجر ، حيث يبدو ان شيئاً ما لم يتحرك منذ بدء الخليقة ، كان سيل من البشر يمضي بطيئاً ، انما دون انقطاع ، في هجرة تبدأ من اليمن ، في الزاوية الجنوبية ـ الغربية من شبه الجزيرة العربية ، ليتيه في الشمال الشرقي ، في المناطق الاكثر خصوبة في سورية وما بين النهرين .

كانت نسبة المواليد منخفضة والوفيات مرتفعة في المجتمعات المدنية المستوطنة حوض البحر الابيض المتوسط ، مما سهل على مدنها استيعاب الهجرة الريفية المحلية . ولم تكن ثمة حاجة بالقرويين المهاجرين هناك للبحث عن اوطان بعيدة اخرى لتأمين وسائل حياتهم ومعيشتهم .

ولكن الوضع كان مختلفاً جداً في الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية ، في اليمن ، حيث التربة اقل جفافاً والأمطار اكثر غزارة ، مما اتاح للقوم ان يمارسوا الزراعة في عهد مبكر ، فتزايد لذلك عدد السكان سريعاً . ولما لم يكن بالامكان زيادة مساحة الاراضي المزروعة ، ولم تكن هنالك مدن او حرف تمتص المزيد من السكان ، فقد نجم عن ذلك تضخم ، لم يعد بوسع البلاد ان تتخلص منه الا بترحيل الفائض من البشر الى الخارج .

ولم يكن في وسع المهاجرين عبور البحر الأحمر لتعمير افريقيا . فالسودان الذي يواجه اليمن ، صحراء اشد جفافاً من الجزيرة العربية ، كما لم يكن في

Marfat.com

وسعهم سلوك طريق ساحل البحر الاحمر الذي تحتله شعوب غريبة مصممة على ان تقاوم بضراوة كل محاولة لعبور اراضيها .

كانوا اذن مرغمين على التوغل في الرمال ، في زحفهم نحو الشمال – الشرقي . وليس امامهم من مخرج غير الصحراء .

فائض من البشر متزايد في اليمن ، فرضت عليه الهجرة تحت ضغط كثافة عدد السكان ، فراح يدفع في طريقه القبائل الصغيرة الاضعف المقيمة عند اطراف الاراضي اليمنية المزروعة ويحملها على الهجرة بدورها والانحدار الى الوديان المؤدية الى اواسط شبه الجزيرة العربية ، ويرغمها على ان تتخلى ، على الدوام عن الينابيع الغزيرة ، والواحات الخصبة ،الى آبار مياه شحيحة وواحات فقيرة . فلا تجد هذه الجماعات بداً من الانصراف الى رعاية الماشية والجمال ، عندما تجد نفسها مبعدة الى مناطق تستحيل فيها الحياة الزراعية .

ولم يكتب مع ذلك ، لهذه القبائل التي تحولت الى جماعات من الرعاة ، ان تستقر حيث اراد لها القدر في واحاتها البائسة . بل اضطرت الى ولوج الصحراء تحت ضغط الهجرة البشرية المتزايد من اليمن الذي كان يدفع بها دائماً الى الامام . « ان بقايا هذه القبائل التائهة – كما يحدثنا لورانس – ما زالت موجودة حتى الآن ، متمثلة في بعض العشائر المعزولة ، والقبائل التي يمكن تتبع آثار هجرتها منذ الزمن الذي بدأ فيه اليمن يكتظ بالسكان . فالاودية بين مكة والطائف طافحة بذكريات خمسين قبيلة رحلت عنها ، وخلفت آثاراً باقية حتى الآن : في نجد ، وجبل شمر ، حتى تخوم سورية وبلاد ما بين النهرين . من هنا يجدر التنقيب عن نقطة انطلاق الهجرات العربية ، عن مصنع البدو الرحل ، عن المنبع البشري الهائم في الصحراء » [1] .

---

١ – لورنس في « اعمدة الحكمة السبعة » .

Marfat.com

لم ينقطع الدفق البشري ، لأن تزايد عدد السكان في اليمن لم يكن عرضاً عابراً . وظلت الصحراء تستقبل على الدوام جماعات من اللاجئين ، حتى ان اواسط شبه الجزيرة العربية – مع ما في ذلك من غرابة – قد عانت ، هي الاخرى ، من ازمات تكاثف السكان ، ونجمت عنها اضطرابات واشتباكات بين القبائل الساعية الى ولوج الصحراء لتضمن حقها في البقاء .

الى اين كان في وسع هذه القبائل ان ترحل ؟ فالجنوب منطقة مغلقة ، ومغالبة التيار أمر مستحيل ، واختراق الحجاز لم يكن مأموناً لأن المسالك الوعرة التي تشكل الواجهة الداخلية لهذه المنطقة « آهلة بقوم يفيدون الى اقصى حد من مواقعهم الدفاعية الحصينة »[1] .

بقيت واحات نجد الوسطى حيث اتجهت القبائل التائهة . لم يكن في وسعها احتلال هذه الواحات لافتقارها الى المحاربين الاشداء ولأن الصحراء استنفدت قواها ، فالفت نفسها مدفوعة تلقائياً نحو الشمال ، بين منحدرات الحجاز ، ومنخفضات الاحساء .

واستمر الضغط ، وواصل الزحف البشري سيره نحو الشمال، جارفاً تلك القبائل على طول خط الواحات الصاعد من وادي السرحان الى الجوف فتدمر ، حتى أطراف سورية وبلاد ما بين النهرين ، الى ان وجدت هذه القبائل نفسها مضطرة ، بحكم الظروف وتحت ضغط البطون الخاوية ، الى تربية المواشي ، والى زراعة بعض الشعير لأطعام الماشية، فانفصمت بذلك عن حياة البداوة، وتحول البدو الرحل الى مزارعين مقيمين اتحدت مصالحهم مع مصالح المزارعين الاولين واصبحوا يعانون مثلهم من ضغط الهجرة البشرية الوافدة من الصحراء ، ويبحثون معهم عن الوسائل الكفيلة بحماية المكاسب التي غنموها والاراضي التي

---

١ – لورنس : « اعمدة الحكمة السبعة ».

Marfat.com

تملكوها . وهكذا امتزج البدو الرحل رويداً رويـداً بالبيئة الجديدة، وراحت تتكسر حول دمشق امواج الهجرة المتدفقة من جوار عدن .

ان الضغط البشري الذي شرد العرب عن ديارهم واراضيهم وقذف بهم الى الصحراء ، عاد فأخرجهم من هذه الصحراء ليحولهم الى مزارعين مقيمين . انهم جميعاً ، دون استثناء ، مروا من هناك . وما من اسرة عربية في الشمال الا وقد عبر اسلافها اواسط شبه الجزيرة العربية في حقبة ما من حقب التاريخ ، فاتسمت من هنا بطابع من الترحل ، يشتد بروزه ، تبعـــاً لطول المدة التي قضتها في الصحراء .

٣

وبقدر ما نتوغل في تاريخ شبه الجزيرة العربية ، فأننـا مقتفون آثار ذلك السيل البشري المتدفق دون انقطاع من الجنوب الى الشمال . فهو العامـــل الاساسي في الحياة العربية كلهـا ، يحدد ويوضح كل واحدة من ازماتها التاريخية الكبرى . انه هو الذي صقل الحياة في منطقة من العالم كان الوجود يبدو فيها لاول وهـــلة مستحيلاً ، وصان وانمى حيوية سكانها ، وفرض طابعه على قوى عنصرية ، اطلقتها ظروف غير مؤاتية عبر الفراغ ، فعملت الصحراء وئيدة على صقلها وتحويلهـا الى طاقة متألقة ، ثم صنعت من مادتها الخام العناصر الانسانية الاكثر نضجاً في العالم العربي : المحارب والشاعر والناسك .

لم يتعرض الجنس البشري في اية بقعة من العالم ، لمثل ما تعرض له في الجزيرة العربية من ظلم الطبيعة الشديد وعنتها المرهق ، وانفعالاتها العنيفة . لذلك كانت الصحراء بالنسبة الى الانسان العربي المكان الذي يتحرر فيه من مشاكله الخانقة ، وحيث كل ما يطالعه هنـا في هذه الصحراء يبعث فيه الفخر والاعتزاز بالانتماء الى مملكة البشر . هنـــا تنعدم المزاحمة والمنافسة بين الانسان وسواه من

Marfat.com

المخلوقات . فلا حيوان يغـافل المرء وينقض عليه ، ولا شجرة يمكن ان تخفي وراءها خطراً ما ، والسكينة والوحدة تلطفان الأعصاب المتوترة . أي نفـــع للملكية هنا وهل من يتلهف اليها ، عدا ملكية الدابة التي يتنقل عليها الانسان، وعدا بعض الحاجيات الضرورية البسيطة . الانسان هنـا وحده مع اخوانه ، فوق الأرض التي تكونوا عليها ، وجها لوجه امام اعظم روائع الخالق : الشمس والقمر والنجوم . ان جمـــال الفجر الذي لا يفي به وصف ، وسحر الغسق ، وبريق النجوم ، كلها هتافات تشيد كل يوم بقدرة الخالق .

يبدو حب الصحراء أمراً خارجـــاً عن المنطق ، ولكن غريزة الانسان الفطرية لا تقوى على مغالبته . وما استطاع انسان عرف الصحراء فترة ، نسيان ذكراها فيما بعد [1] .

ان الصحراء لا تكتفي باجتذاب الانسان ، بل هي تصوغه مجدداً وتحوله . فالصحراء اعظم من ان تساوم . انها لتستولي على الانسان في كلّيته ، ولا تفكّ قبضتهـا عنه الا وتكون قد قلبته رأساً على عقب . حتى ان الغريب الذي يمر بالصحراء مروراً عابراً لا بد له من ان يخرج منها انساناً يختلف عمّا كان ، فلا ينسى ابداً ، أية كانت تقلبّات الدهر عليه في ما بعد ، الزمن الذي عاشه فيها ، بل يستبد به الحنين اليها حتى آخر يوم من حياته [2] .

فكم بالاحرى اذن ، ان يرسخ طابع الصحراء على القبائل الهائمة التي قدّر لها ان تحيا فيها طيلة قرون ، فاذا بهذه القبائل ، بعد خروجها من اليمن ، سرعان ما تنسى ذكرى وطنها الأول ويضمحل من ذاكرتها كل شيء ما عدا الصحراء ، فلا تعرف لها وطناً سواها . ثم تبدأ مرحـــلة التحول والتكيف شيئاً فشيئاً في

---

١ – جيرالد دوغوري : « العنقاء العربية» .

٢ – لورنس : « اعمدة الحكمة السبعة » .

Marfat.com

النفوس والاجساد ، فينقلب هؤلاء المزارعون الخاملون الى محـاربين اشداء . فموارد العيش في الصحراء ضئيلة ، والقبائل عديدة ، والتزاحم على الحياة ملحّ لا يعرف الشفقة . ويصبح المستقبل في هـذا الآتون ، حيث لا يمكن الحصول على شيء الا بالعنف أو الحيـلة ، ملك من هو اكثر قوة واشد بأساً . ان طبيعة الأمور تؤول الى تنظيم حياة البداوة وفقاً لسلم قيم ، قمتهـا « المروءة » ، وهي مزيج من النبل والرجولة في الانسان ، فيضحي المجلّي فيها رأس القبيلة ، لأنه اكثر من فيها قدرة على تخليدهـا . فقوة صلبه تعوّضها ما يحصده الموت الذي يفتك بها ذريعاً ، وبأس ساعده يشق امام رفاقه السبيل الى الواحات . فالقبيلة التي لا « مروءة » فيها لا يُقدَّر لها عيش ، فهي اما ان تنقرض جوعاً أو نسلاً أو ان تسترق لسواها من القبائل الاصلب عوداً ، وهي حالة اشد سوءاً من الانقراض.

وكان للسلاح دوره الهام ، في ذلك العالم البدائي الشرس ، موطن الجوع والموت ، فتوطد نوع من الصلة الرمزية بين السلاح واليد التي تحركه ، سواء أكان المحارب هو الذي ينقـل خصائصه الى سلاحه ، ام كان السلاح هو الذي يبعث القوة في نفس المحارب . وكان السيف يرمز الى الصبر والجلد بصـلابة فولاذه وقدرته على التحمل ، والى المهارة بانصقاله ، والى الطهارة ببريق فولاذه الصلب العاري : وحدة قائمة بين المادة والروح ، بين السيف واليد التي تستخدمه ، حتى اصبح الفصل بينهما نوعـاً من الانتحار ، وحتى اصبح الجبان الذي يفقد سيفه ضعيفاً غير مهيب ، فاقداً بين قومه كل اعتبـار . وقد يُلفظ هذا المحارب الخائب من مجتمعه ، فتأنف اية قبيلة من تبنيه ، وليس هناك ما يحيق بالبدوي افدح من حرمانه من الانتساب الى احدى القبائل ، فيمسي بذلك شريداً خارجـاً على العرف محروماً من الحماية والرعاية .

وهكذا كانت تجري ، جيلاً بعد جيل ، عملية انتقاء صارمة للعناصر الفضلى ، يضّحى فيها بالضعفاء لصالح الأقوياء ، وترفع الى مقام القيادة والزعامة الرجال الأشد حيوية وشجاعة وابداعاً .

Marfat.com

٤

وكانت القبائل التي حتمت عليها ضرورات العيش ان تتحارب وتتصارع، تتحسس رغم كل شيء لروابط القربى فيما بينها .. قربى اللغـــة الواحدة التي تتخاطب بها والتي هي مصدر اعتزاز كبير لها .

ولكن هذه اللغة نفسها ويالأسف قد تشعبت في اتجاهـات متباينة ، تباين السبل التي سلكها كل من القبائل . عشيرتان من بطن واحد باعدت بينهما حياة البداوة زمناً طويلاً ، تلتقيان حول بئر او مرعى، فتجد كل منهما نفسها عاجزة عن التفاهم مع الاخرى ، حتى ان محاربي الحجاز والاحساء بدأوا لايفهمون ما يقوله محاربو حائل . فكان ذلك مبعث أسى للعرب الفخورين بلغتهم والحريصين تبعاً لذلك ، على ان تكون مفهومة وواضحة لدى جميع اهل الجزيرة العربية ، والمدركين ان اختلاف اللهجة واللغة عقبة تحول دون اتساع رقعة مجدهم .

ولكن الصحراء التي صاغت الرجل المحارب ، كونت بالمثل الانسان الشاعر وبوأته مكانة سامية ، بين قبائل متعطشة الى سير البطولة والاساطير ، فأصبح الشاعر حكماً في الخلاف بين العشائر على استعمال كلمة أو لفظها أو تصريفهـــا ومرجعاً في تصويب اللغة .

فاستقامت بذلك شيئاً فشيئاً قواعد لغة موحدة بـين العرب الذين هم اشد الناس تأثراً برقة الكلمة والعبارة بين جميع شعوب العالم . فما من لغة في العـالم ذات سحر يسيطر على المتخاطبين بها كسحر اللغة العربية على أبنائها. وما زالت للشعر حتى الآن منزلة خاصة في الجزيرة العربية وفي دمشق والقاهرة وبغداد ، وللاوزان وقعها الأخاذ في النفوس ، رغم ان الكثيرين ممن يتـــلى عليهم ذلك الشعر قد لا يفهمون كل معانيه اللغوية الفصيحة .

5884/c

Marfat.com

ومن هنا تجدر الاشارة الى انمظاهر الوحدة واعراضها كامنة في اللغة العربية قبل أي شيء آخر . وما كان سوق عكاظ حيث تتهادن القبائل ، ويلتئم شملها من كل حدب وصوب للاستماع الى قصائد أفضل الشعراء ، والترنم بها ، وانتقاء اجودها ، إلا مظهراً من مظاهر تحسس العرب بالشعر واللغة . وكانت الهدنة تنتهي بانتهاء سوق عكاظ فتعود القبائل الى خصوماتها ومنازعاتها وحروبها . ولكنها تعود ايضاً حاملة تراثاً مشتركاً من اللغة والأدب، ولا تتردد في تناسي أحقادها وتوحيد صفوفها دفاعاً عن ذلك التراث .

نزلت الدعوة الى دين الله الواحد الأحد الفرد الصمد،يحملها النبي محمد بن عبد الله ، فأنتفى بذلك جهل التعبد ، وجاهلية عبادة السيف والأصنام ، واندثرت الوثنية على ضربات سيف الرسول وصحبه الأولين . وقاد النبي محمد بعد ذلك أمة موحدة من خيرة المؤمنين المحاربين الى أقاصي الدنيا ناشرة رسالة الاسلام ، في حملات متلاحقة كالأعصار ، أو أشد اندفاعاً ، حتى ادركت جحافلها جبال « حملايا » ودقت ، في مقاطعة « بورغون » ، أبواب فرنسا .

لم يعرف التاريخ فتوحات تحققت بالسرعة التي تحقق فيها الفتح العربي، هادراً كالعاصفة ، مقتحماً كل ما كان يعترض سبيله ، فترامت الامبراطورية خلال فترة لا تزيد على مئة وعشرين عاماً ، الى مسافات تبعد ١٢ الف كيلومتر عن مركز انطلاقها في الشرق : امبراطورية لم يحقق مثلها « داريوس » ولا الاسكندر الكبير . وأصبحت الدعوة الى الاسلام قبلة العالم ومحط انظاره [١] .

ولكن الدورة الدموية في جسم الامبراطورية العربية بدأت تختل في الوقت الذي كان فيه علماء الامبراطورية العربية يكتشفون لأول مرة مجرى الدورة الدموية في جسم الانسان .

---

١ -- هنا يتبسط المؤلف في سرد تاريخ الاسلام وانتشار الدين الحنيف ومن ثم الفتوحات وقيام الامبراطورية العربية .

Marfat.com

ولم تعد الجزيرة العربية ، قلب الامبراطورية ، تدفع الدمـــاء الى شرايين الامبراطورية ، وفقدت القبائل التي تطايرت الى شتى انحاء الدنيا كل صلة بمركز انطلاقها وغرقت في ترف بغداد والقاهرة ودمشق والأندلس ، فأضعفت حياة البذخ حيويتها وقوة ايمانها الذي فجرته الصحراء رسالة وامبراطورية وحضارة باذخة استقطبت ملايين الشعوب ، ثم فقدت ، فيما بعد ، رابطتها بالوطن الأم .

وفي الوقت الذي كان فيه طلاب العلم يفدون من مختلف الأقطار الاوربيـة لتلقي المعرفة في الجامعات العربية ، كانت الجزيرة العربية ، أم تلك الحضارة ، معزولة عن الامبراطورية التي ولدتها . وتحول مركز ثقـــل الاسلام ، بأتساع الحملات العسكرية ، فنقلت العاصمة الى دمشق فبغداد ثم الى القاهرة ، ولم يعـد الخلفاء المتعاقبون يعبأون بما يجري في اليمن او نجد . فعادت الجزيرة العربيـــة منذ القرن العاشر للميلاد ، الى الانطواء ، وبـــدا واضحاً ان ابتعاد العرب عن صحرائهم قـــد بدد قواهم ، وان لا سبيل لاستعادة هذه القوة الا بالعودة الى الصحراء .

بذل العرب ازكى دمائهم في توسعهم الهائل من قمم حمـــلايا في الهند حتى سهول « بواتييه » في فرنسا ، واستسلمت الجزيرة العربية الى همودها الذي عرفته قبل ظهور النبي محمد ، والذي لم يكن يشبه وضـع العصور الوسطى ، ولا عهود ما قبل التاريخ . فالصحراء غير المكتظة بالسكان ساكنة صامته ، والقبـائل لم تعد تتحارب لكثرة ما نزف من دمائها ولأن موارد الجزيرة العربيـة أصبحت كافية لسكانها المبعثرين .

لم تضحي الصحراء ساكنة وحسب ، بل اشبه بجثة هامدة ، حتى لكأن نفحة من الموت مرت فوق الرمـــال ناشرة الوحشة والعزلة في كل مكان . ان قلب الجزيرة العربية ما عاد يخفق الا في صعوبة .

ودار الزمن دوراته ، وعاد المستوى البشري الى الارتفاع بصورة بطيئـة

Marfat.com

تكاد لا تلحظ، وتزايدت نسبة عدد السكان، وتفاقم اختلال التوازن بين القبائل من جديد ، وشحت الموارد ، واستأنفت حياة البداوة سيرتها الاولى ، واكتظ اليمن بالبشر فراح يلفظ الفائض منهم نحو الشمال ، وعـــاد المد البشري يجرف المجتمعات التائهة ويدفعها عبر أتون نجد والقصيم .

واستعادت الصحراء دورها التقليدي في سحق القبـائل بعضها بعضاً ، وفي ارغامها على استرداد حيويتها ونضالهـــا ، فنجمت عن ذلك ، كما في السابق ، اشتباكات دامية حول آبار المياه ، ومنازعات على الواحات واشجار النخيل . وأخذ الأشداء يحتلون مكانتهم المرموقة بعد القضاء على العناصر الخائرة الضعيفة ، وعادت الجزيرة العربية الى مهمتها التي خطها لهـــا القدر : بلاد الفرسان ، والشعراء ، والنساك ، وتنشئتهم .

واتاح خسوف مجد الجزيرة العربية ، في خلال ذلك ، للغرب ان يثأر من العرب لنفسه . فظهرت ، في العام ١٠٩٧ للميـــلاد ، في « طورس » بالاناضول طلائع الحملة الصليبية بقيادة « كودفروى » وسواهمـــا من نبلاء الفرنجة ، وأنحدرت على طول الساحل فاحتلت حلب ، ثم سورية كلها وفلسطين وشرقي الاردن . واقامت لها امارات وممالك في انطاكيـــة وطرابلس والقدس ، فيما كانت أساطيل جنوى والبندقية تستولي على جزيرتي رودس وقبرص .

وطرقت مسامع الغزاة الجدد الاقاويل المثيرة عن الثروات الخيالية الدفينة في قلب الجزيرة العربية ، فقرر احدهم « رونو دو شاتيون » حاكم شرقي الأردن ان يزحف للاستيلاء على تلك الكنوز ، ولا سيما بعد ان اكد له تجار قادمون من الجنوب ان المدينة المنورة تحوي ثروات لا تقدر بثمن وان ضريح النبي الكريم يطفح بالذهب والجواهر النادرة ، فمشى في صيف العام ١١٨٢ للميلاد على رأس قوة مؤلفة من الف وخمسمائة فارس وتمكن بسرعة مفاجئة من احتلال ميناء «ايلات» على خليج العقبة فأعدّه ليكون نقطة انطلاقه الى غزو الجزيرةالعربية،

Marfat.com

ثم عبر الصليبيون اللسان البحري الممتد بين الحجاز وشبه جزيرة سيناء وثبتوا اقدامهم على الساحل الذي انطلقت منه قبل عشرة قرون الحملة الرومانية بقيادة « ايليوس غالوس » . ومضى الصليبيون في زحف خاطف نحو المدينة المنورة مجتازين مضيق خيبر حتى لم يعد يفصلهم عن المدينة غير مسيرة يوم واحد ، وفي غمرة النشوة والزهو وقد اقترب النصر فوجيء الصليبيون بغارات متقطعة يشنها عليهم الفرسان العرب ، الذين كانوا يظهرون بغتة فينقضون على المغيرين من مختلف الجهات ، ثم يتوارون وسط عاصفة من الغبار .

ولم يتمكن الصليبيون ، الذين شلتهم اسلحتهم ومعداتهم الثقيلة ، من الصمود امام الهجمات العربية الخاطفة ، فقتل منهم او اسر ثلاثماية رجل ، وتشتت الباقون جوعاً وظمأ . واما قائدهم « رونو » الذي كان غائبا عن ميدان المعركة فقد نجا لفترة موقتة ، ثم سقط اسيراً بعد ذلك بأربع سنوات في معركة حطين فأمر صلاح الدين بقطع رأسه عقاباً له على مغامرته .

واما الفرسان الصليبيون الذين فروا من المعركة ، فقد وجدت جثثهم ، بعد حين ، متناثرة على طول الطريق الممتدة من خيبر الى المدينة المنورة .

ولم يحاول الصليبيون ابداً ، بعد هذه التجربة الفاشلة ، ان يتوغلوا في شبه الجزيرة العربية ، واحجموا عن اية مغامرة في تلك المناطق المتأججة اللاهبة ، الى ان دالت ممالكهم في الشرق بعد ذلك بسنوات في العام ١٢٥٠

وتخلل الصراع بين العرب والاوربيين صراع مع غزاة اخرين قدموا من اواسط القارة الاسيوية وتكسرت امواجهم عند الحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية . ففي العام ١٠٥٥ غزا السلجوقيون بغداد واسيا الصغرى وحطموا

Marfat.com

بقايا الدولة العباسية قبل ان يُسحقوا بدورهم في العام ١١٥٤.ثم جاءجنكيزخان على رأس فرسانه المغول فاجتاح خراسان وتوارى بعد ذلك خلف ستار من النيران (١٢٢٠) وظهر من بعده تيمورلنك فاقتحم الاناضول على رأس عصابات التتر وانحدر جنوباً فدمّر حلب ودمشق ، ثم انحسر مده فجأة وانكفأ نحو الشرق .

وجاء اخيراً دور العثمانيين ، وهم احسن تنظيما من اسلافهم ، فاستقروا على طول حوض شرقي البحر الابيض بعد استيلائهم على البلقان ، ونادى سلاطينهم بأنفسهم خلفاء على المسلمين وارغموا معظم الاقطار الاسلامية على الاعتراف لهم بتلك السيادة .

ولكن الجزيرة العربية بقيت في معزل عن هذه الاحداث، ولم يجرؤ الاتراك على تخطي حافة الصحراء رغم انهم نصبوا انفسهم سادة البلاد العربية جمعاء واحتلوا الاقاليم الواقعة في اطراف الجزيرة العربية واقاموا حكاما وحاميات في دمشق والقدس وبغداد والبصرة .

الى ان كان العام ١٥٥٠ وفيه ضاق السلطان سليمان ذرعا بتمرد البدو وصمم على ان يضع لهذا التمرد حدا بعد ان تكاثرت شكاوى قادته العسكريين في تقاريرهم من روح المشاكسة لدى القبائل . فاستدعى السلطان والي دمشق الى استانبول وامره بتجهيز حملة لاحتلال نجد وحائل وفرض الطاعة على هذه القبائل .

تخوف والي دمشق من هذه الحملة ، وادرك ان فشلها سيكلفه حياته ، فطلب الى السلطان ان يضع تحت تصرفه عدداً من افضل الفرق العسكرية ،وبالغ في طلباته على امل ان يرفضها السلطان ويصرف النظر عن الحملة، ولكن السلطان وافق على كل شيء حتى انه وضع بامرة واليه عدة فرق من حرسه الخاص ، فعبأ الوالي جنوده في دمشق وجهزهم بمعدات المعركة ، وبدأ فرسان السلطان زحفهم في طوابير

Marfat.com

متراصة لم تلبث ان توارت في الافق البعيد متجهة نحو الصحراء .

ولم يتعرض استقلال الجزيرة العربية من قبل لأشد من هذا الخطر ، فجنود السلطان اكثرخطراً من فرسان « رونودوشاتيون » او محاربي «ايليوس غالوس» ، فهم ليسوا منظمين ومدربين فحسب بل انهم قد الفوا القتال في اشد المناخات قسوة ، وكان تجهيزهم متفقا مع ضرورات حرب الصحراء .

ولكن هذه الميزات كافة تضاءلت امام نقص رئيسي. فهم يجهلون كل الجهل البلاد التي سيقاتلون فيها ، ولا يعرفون شيئاً عن المواقع واتجاه الرياح. فاضطروا الى الاستعانة بادلاء عرب اضلوهم ، واستدرجوهم الى منطقة جافة عقيم ، لااثر فيها لبئر او لقطرة ماء .

طاش صواب الجنود الأتراك من شدة الظمأ ، فراحوا يسعون بين الكثبان وراء أي شيء يتفيأون ظله ، أو اية نقطة ماء تبل ريقهم ، الى ان صرعت الحمى قسماً منهم ، وهام الباقون على وجوههم تحت سماء ملتهبة يحكي شحوبها شحوب معدن ينصهر في جوف النار . وأصيب بعض الجنود بعوارض جنون فسددوا اسلحتهم الى صدور رؤسائهم ثم انتحروا، ولقي الباقون حتفهم بعد عذاب مرير دون ان يشاهدوا ظلاً أو أثراً لعدو .

لم ينج احد ... انها القصة نفسها تتكرر منذ بدء الخليقة : جماعات غريبة تغوص في الصحراء وتختفي ، فلا تخلف وراءها أثراً ، كأنها نهر تائه تمتصه الرمال .

وأما والي دمشق ، الذي قاد الحملة ، فقد فضل الموت على ان ينقل لمولاه تفاصيل الكارثة ، وعثر عليه جثة متقلصة بجوار احد الكثبان وفي قبضته لوحة سوداء كتب عليها : « كان الاحرى الا يطلب مني قهر الشمس » .

صار الأتراك اكثر حذراً بعد هذه الحملة المفجعة ، فعدلوا عن محاولة اخضاع شبه الجزيرة واقعياً ، واكتفوا بأن يمارسوا عليها نوعاً من السيادة الرمزية .

Marfat.com

وبقيت الجزيرة العربية اذن سيدة نفسها ، واستمرت القبائل في حياتها المألوفة .

٦

ان من حق زعماء حائل والاحساء ونجد والحجـــاز ، ان يعتبروا أنفسهم سادة العرب والطبقة المختارة منهم، لأنهم وحدهم لم يرضخوا لنير اجنبي على مدى تاريخهم الطويل ؛ وبقي استقلالهم مصدر اعتزاز كبير لهم .

وهو اعتزاز على مستوى التضحيات التي بذلوهـــا ، وعلى مستوى الاستياء الذي كانوا ينظرون من خلاله الى الأوضاع في سورية ومصر حيث خضع العرب للسيطرة العثمانية .

فالمؤمن الحق – غير المنافق ولا المشرك – هو اذن في جوف الصحراء ... في نجد الرائع الساكن ، قلب العروبة ، ومعبر المهاجرين ، وباعث الحيـــاة في اوصالهم . كان اليمن يصنع المادة البشرية الخام . وأما نجد فكان يصهرهـــا ويحولها من حديد خام الى فولاذ نقي . اليس نجد منبت عظماء العرب ، ومنبع اشجع الفرسان فيهم ، وموطن أفصح من قال وتكلم .

للاخرين من العرب ان ينعموا «بحضارتهم » ولهوهم ومجالس انسهم وطربهم ، وأما اهل نجد فلا يستهويهم شيء من ذلك كله . فهم ورثة مجد تتضاءل حيـــاله المباهج الدنيوية وحراس صوفية اخلاقية وروحية ، لا يشغلهم عن عبـــادة الله شاغـــل .

وكانت القبائل وهي تتمزق وتتذابح ، تشعر مع ذلك ، أو لذلك ،بانبعاث موجة جديدة من الحماسة في أعماقها . وكانت قواها المكبوتة تتحول ، كما كان الأمر دائماً ، الى نزعة مزدوجة للوحدة والعظمة . وكان أبناء تلك القبائل ، من

Marfat.com

خلال العذاب الذي يقاسونه ، ينزعون الى التجرد والانطلاق من عـالم المادة ، ويبحثون عن الجنة في أعماق جحيمهم الخاص .

ومرة اخرى ... فعلت القرون فعلها الوئيد ، واصبحت الجزيرة العربيـــة خزاناً للطاقات . كان أشدها انكباتاً يتحين الفرصة السانحة ليتدفق وينسكب . كان العصر ناضجاً ومهيئاً لملحمة جديدة من ملاحم الاسلام ، والقبائل تحيـــا بانتظار الرجل الذي سيدعم ايمانها ويعيد لها وحدتها .

وجاء الرجل المنتظر : محمد بن عبد الوهاب .

٧

ولد في بلدة العينية من اعمال نجد في العام ١٦٩٦ منحدرا من بني تميم الذين تغنى الشعراء بمآثرهم في سوق عكاظ وكانوا من اوائل القبائل التي انضوت تحت لواء الاسلام .

شغف محمد بن عبد الوهاب ، وهو بعد يافع ، بالآداب والفنون ، وحفظ القرآن في العاشرة ، وقام بعدة رحلات الى دمشق وبغداد والبصرة وإيران اتاحت له الاطلاع على مختلف المذاهب الدينية التي كانت تتنازع السيادة في العالم الاسلامي ، وانسحب بعد ذلك الى الصحراء متنسكا متعبداً . وراح يفكر وهو في عزلته البعيدة بمستقبل الاسلام ، مكتئباً لما آلت اليه حاله . لقد تسربت الوثنيـــات والبدع الخطيرة الى جوهر الدين على يد الخلفاء العثمانيين وفقهاء الشرع ، فخنقت الايمان الصحيح وسط اكداس من التعقيدات والتأويلات الفارغة ، وحل البذخ والتباهي محل التقشف في كل مكان .. كما حلت عبادة الاولياء محل عبـــادة الله ، وخولفت نصوص القرآن ، ولم يعد ثمة من يراعي شريعة الرسول . كما لم تعد كلمة الله مسموعة في اي مكان .

Marfat.com

ولعل الوضع كان ادعى الى اليأس على الصعيد السياسي . فالعرب في معظم ديارهم خارج الجزيرة العربية خاضعون للسيطرة العثمانية . واما عرب الصحراء الوسطى الذين نجوا من السيطرة الاجنبية فقد استغلوا استقلالهم ليقتتلوا ، بدل ان يعملوا على تحرير اخوانهم .

وادرك محمد بن عبد الوهاب ، ان المهمة الملحة تقضي اولاً بتوحيد جميع القبائل الرحل وتعبئتها من جديد وراء مطلب اسمى : هو تعزيز شريعة الله التي حملها رسوله النبي محمد ، والعودة بدين الله الى صفائه الأصيل . ذلك لأن الأمور وصلت الى حد من التدني لم يعد يدرك العرب فيه ، المعنى الصحيح لشريعتهم .

* * *

كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب على بساطتها بمثابة ثورة تقضي على مخلفات الف عام من التاريخ ، وتهدم الآف الاجتهادات الخاطئة والتفسرات الضالة والبدع الدخيلة . فلا كلمة في مذهبه غير كلمة الله كما وردت صراحة – لا تأويلا – في قرآنه الكريم أو على لسان رسوله محمد بالذات .

وكان طبيعياً ان تصطدم دعوة محمد بن عبد الوهاب ضد الصنمية والوثنية وضد الوساطة بين الانسان وخالقه ، بمقاومة عنيفة من جانب ائمة مكة ، فهي تهدد مكانتهم وتحط من مستوى حياتهم ، لذلك قاوموا المصلح الجديد بعنف وطاردوه وطردوه من مكة تحت وابل من الحجارة . فأدرك ان دعوته لن يكتب لها الانتشار والبقاء ما لم تفرض بقوة السيف . فلجأ الى « الدرعية » عاصمة نجد وطلب حماية احد رؤساء القبائل النجدية محمد بن سعود في العام ١٧٤٩ .

وأدوك محمد بن عبد الوهاب سريعاً ان محمداً بن سعود يتمتع بصفات الرجل

Marfat.com

دارب الهند ، كما أُخذ ابن سعود بطلاقة لسان الأمـــام النجدي وقوة حجته وايمانه . فتعاهدا على توحيد قواهمـــا لتحقيق ارادة الله ، واستعادة وحدة الشعب العربي المفقودة ، بعـــد ان تحققت بينهما ، لهذا الهدف ، وحدة السيف والعقيدة . ودعم محمد بن عبد الوهاب هذا الاتفـــاق بتزويج ابنته الى محمد ابن سعود وترك اليه مهمة ادارة المعركة سياسياً وعسكرياً .

كان الهدف الأول ضم قبائل أواسط شبه الجزيرة العربية الى الدعوة ومن ثم السيطرة على الاجزاء النجدية . ثم تـــأتي الخطوة التاليـة لتشمل الدعوة شبه الجزيرة العربية كلها .

وسرعان ما انضم فرسان نجد متحمسين الى الدعوة المُصلحة وانضووا تحت لواء محمد بن سعود . وعلم حكام دمشق والبصرة الأتراك ذات يوم بأن قبائل نجد المنقسمة على نفسها قد اجتمعت تحت قيادة واحدة ، وبأن اماماً يسهر بنفسه على تطبيق قواعد مذهبه الثوري الجديـــد بقوة السلاح على كل من يعترض سبيـــله .

سادت الدعوة الجديدة القسم الأكبر من نجـد . وسحق الفرسان المؤمنون مقاومة شيوخ الاحساء . ثم انطلقوا الى اقاصي الحجاز في حملات يبشرون البدو باليقظة العربية .

وقلق السلطان العثماني محمود الأول للنجاح السريع الذي احرزتـــه الدعوة الوهابية فأمر ولاته في البصرة وبغداد وجدة وباشوات مصر وسورية بتعبئة كل القوى لأبادة « الكفرة » والحيلولة بينهم وبين الاستيلاء على الاماكن المقدسة ـ مكة المكرمة والمدينة المنورة ـ اللتين يعتبر امتلاكهما من قبل « الوهابيين » ضربة قاضية لمقام السلطنة .

ولكن ذلك كله لم يجدِ ، فالموجة العربية الثانية ماضية في طريقها لاجتيـاح شبه الجزيرة العربية رغم تدابير الباب العالي . وحقق محمد بن سعود الانتصارتلو

Marfat.com

الانتصار . وها هم فرسان « عنيزة » و « وبريدة » يعلنون انضمامهم للدعوة وينضوون تحت لوائها .

وعندما توفي محمد بن سعود في العام ١٧٦٥ اورث ابنه عبد العزيز من بعده سلطة موطدة مكنته من اتمام فتح نجد واعلان نفسه ملكا عليه (١٧٦٥ — ١٨٠٣) وتم بذلك تحقيق القسم الاول من الدعوة .

ولما توفي الامام محمد بن عبد الوهاب في العام ١٧٩٢ ،وتولى الامير سعود الملك خلفاً لعبد العزيز (١٨٠٣) كانت العقيدة الوهابيه راسخة الدعائم في الاقاليم الوسطى ، فجاء الامير الجديد ، حفيد محمد بن سعود من الاب ومحمد بن عبد الوهاب من الام،يكمل المرحلة الثانية . فاعلن نفسه اميراً على نجد ، وإمامـــاً للدعوة ، مما اتاح له مزيداً من الاندفاع فاصبح يُعرف بعد قليل من توليه السلطة بسعود الكبير .

جمع سعود الكبير قواته في « الدرعية » وانقض كالعاصفة على الحجاز ودخل المدينة والطائف ومكة وجدة بعد سلسلة من المعارك المظفرة .

وكان السلطان العثماني على حق،فان احتلال آل سعود للمدينتين المقدستين اعلى من شأنهم في نظر العرب . وبادر سعود الكبير بنفسه الى هدم قبور الاولياء في مكة وازالة الزين والبدع وكل ما يتنافى مع جوهر الاسلام . واعاد للكعبة بساطتها الاولى (١٨٠٤) ثم توغل في « عسير » الذي استسلم دون مقاومة، ومن ثم في اليمن حيث سقطت صنعاء بعد مقاومة عنيفة . وجاء هـذا النصر الاخير يلهب مشاعر المحاربين ، فما من قوة تستطيع بعد الان الوقوف في طريقهم. فسعود الكبير قد انهى بالفعل احتلال الجزيرة العربية ، واصبحت مملكته تضم نجداً والحجاز ، والعسير ، واليمن ، وحضرموت ، والاحساء والبحرين والبصرة . واما في الشمال فقد ترامت سلطته حتى حدود حوران وكانت قواته المرابطة في وادي السرحان تهدد دمشق وبغداد .

Marfat.com

٨

وكانت اوروبا في ذلك الحين ترتعد خوفاً من نابليون ، والصراع بين الفرنسيين والانكليز قد امتد الى البحر الابيض المتوسط فالشرق الادنى .

وكان نابليون اثناء حملته الى مصر (١٧٩٨ – ١٧٩٩) قد اصطدم بمقاومة مزدوجة من الاتراك والبريطانيين . وجاءت عودته المستعجلة الى فرنسا، واغتيال الجنرال « كليبر » الذي خلفه وراءه ، ومعاهدة باريس (٢٥ حزيران ١٨٠٢) التي تخلى بموجبها للباب العالي عن مصر ، تضع حدا موقتا للتوسع الفرنسي في الشرق .

ولكن نابليون لم يكن قد نسي حلمه الاكبر الذي راوده في ظلال الاهرام : غزو الهند وتوجيه ضربة قاضية للنفوذ البريطاني، فأوفد الكولونيل «سيبستياني» الى سورية للاطلاع على مدى قوة العثمانيين والبريطانيين فيهـــا ، والجنرال « ديكاين » الى الهند للتفاوض مع بعض امرائها المحليين (١٨٠٢ – ١٨٠٣) وقال في اجتماع له مع الامراء الالمانيين : « لم يعد هناك ما نفعله في اوروبا ففي الشرق مجال الاعمال العظمى ... وهناك الامجاد والثروات الكبرى » .

ولما فشل نابليون في جر السلطان سليم الثالث الى حلف ضد بريطانيـــا ، اقترح على قيصر الروس الكسندر مشروعاً لاقتسام تركيا « يفتح أمام الدولتين ابواب الشرق على مصراعيها » (١٨٠٧) .

وكان لا بد للامبراطور الفرنسي ، في غمرة مشاريعه هذه من الاهتمام بالجزيرة العربية ، فمملكة سعود اصبحت اهم من ان تهمل ، لذلك اوفد نابليون الى « الدرعية » رسولاً دبلوماسياً يدعى « لاسكاريس » في نهاية العـــام (١٨١١) تمكن من عقد عدة اجتماعات سرية مع الامام السعودي .

Marfat.com

اصغى سعود بأهتمام زائد الى عروض رسول نابليون الذي كان يطلب تسهيل مرور القوات الفرنسية عبر البلاد العربية الى الهند بعد القضاء على الدولة العثمانية ، وهي خطة تتناسب الى حد كبير مع اهداف سعود في تحرير البلاد العربية من الحكم العثماني الذي حاربه اسلافه زمناً طويلاً والذي يعتبر تحقيقه بعثاً لحلم الوحدة العربية الأكبر ، ولملحمة ثانية من ملاحم الاسلام شبيهة بملاحم ابي بكر وعمر بن الخطاب .

ولكن الانكليز لم يكونوا غافلين عما يجري فقد بلغت مسامع عملائهم في السويس وجدة ومسقط وعدن ، تفاصيل المباحثات الدائرة في عاصمة نجد ، فبادرت حكومة لندن – التي كانت تتخوف من تحالف عربي – فرنسي في المنطقة – الى ايفاد مبعوثيها لمقابلة سعود ومحاولة اقناعه بالابتعاد عن الفرنسيين لقاء وعد بحمل السلطان العثماني على الاعتراف بالسلطة السعودية .

ووازن سعود طويلاً بين العرضين المتناقضين ، فوجد في النهاية ان العرض الفرنسي أقرب الى تحقيق أماني الشعوب العربية (١٨١١) .

ولما تم توقيع الاتفاق ، اصدر سعود اوامره بالاستعداد للمعركة وبدأ الهجوم في نهاية العام ١٨١٢ وسط موجة من الحماسة . وسرعان ما انقض الفرسان الوهابيون على بلاد ما بين النهرين فأستولوا على مدينة كربلاء ثم هاجموا حلب المحصنة تحصيناً قوياً فأرغموها على الاستسلام ، في حين كانت قوات اخرى ترتقي وادي السرحان وتدرك ضواحي دمشق . وكانت حماسة المهاجمين تزداد توقداً كلما وجدوا أنفسهم في الطريق الى القسطنطينية ، والى نشر الويتهم على سواحل البحر الأبيض المتوسط .

كان مقدراً لهذه الحملة الرائعة ان تبلغ قمة النجاح ، لو انها شنت قبل ذلك بسنوات ، أما في العام ١٨١٢ ؛ فقد فات الأوان . وجاءت نتائج المعركة الفرنسية المفجعة في روسيا توجه ضربة قاضية لنفوذ نابليون. فحريق موسكو والعواصف

Marfat.com

الثلجية التي حطمت آخر آمال الامبراطور كانت نقطة تحول في تاريخ العـــالم انعكست اثارها حتى على اعماق شبه الجزيرة العربية .

٩

ساعد وجود الفرنسيين في القاهرة بين عام ١٧٩٨ وعام ١٨٠١ على تسهيل مهمة سعود ، فقد شل القوات التركية عن الحركة حتى بعد جلاء القوات الفرنسية عن مصر ، لأن الأتراك ظلوا متخوفين من حملة جديدة يشنها قادة الامبراطور .

فلما استبعد الخطر من هذه الناحية وعجز الفرنسيون بعد هزيمتهم في روسيا عن اي تدخـــل في الشرق ، اصبح في وسع الاتراك تكريس الجزء الأكبر من قواتهم للقضاء على الثورة العربية ، فأصدر السلطان أوامره الى محمد علي واليه على مصر بوضع حد لسعود وأنصاره .

عهد محمد علي الى طوسون باشا بقيادة أول حملة ، ففشلت هذه الحملة وأرغمها سعود على الالتجاء الى مدينة « ينبع » والاحتماء فيها. ثم جهز محمد علي حملة ثانية تولى قيادتها بنفسه ولكن حظها لم يكن افضل من سابقتها فقد هزمـــه سعود في « تربة » واخرجه من « قنفدة » وحاصر قواته في الطائف . وكان محمد علي على وشك الانسحاب والتخلي عن المعركة بعد هزائمه المتلاحقة ، عندمـــا قتل سعود قضاء وقدراً أمام اسوار الطائف (١٨١٤) .

وكان لوفاة سعود ، في تلك الفترة الحرجـــة ، وقع الكارثة على الجزيرة العربية .

فأبناء ملك نجد الراحل الاثنا عشر ، لم يكن احد منهم على استعداد للحلول محله ، فآلت السلطة الى عمه عبد الله الذي كان حكم الجزيرة العربية في تلك المرحلة العصيبة عبئاً ثقيلاً عليه ، فأستأنف محمد علي الهجوم ولم يطل به الوقت حتى

Marfat.com

حقق بعض النجاح ، وتمكن بعد سلسلة من المعارك الضارية من الاستيلاء على الطائف والانتصار على السعوديين في « كولاخ » قرب قنفدة (١٠ كانون الثاني ١٨١٥) ثم امر بقطع رؤوس جميع الاسرى فأوقع بذلك الرعب في النفوس والقى عبد الله سلاحه ووقع اتفاقية اليمة مع طوسون باشا .

وتذرع محمد علي في العام التالي ، بأن عبد الله لا يطبق بنود الاتفاقية فجهز حملة ثالثة ضد السعوديين عهد بقيادتها الى ابنه ابراهيم باشا ، الذي تمكن من اخضاع نجد خلال ثمانية عشر شهراً فأحتل على التوالي مدن « عنيزة »و«بريدة » و « شقراء » ... ثم عسكر في الثاني والعشرين من آذار ١٨١٨ عند اسوار « الدرعية » .

وصمد عبد الله امام الحصار الذي انهك قواه طوال سبعة أشهر ، ثم اضطر للاستسلام ، فأمر السلطان محمود الثاني بنقله الى القسطنطينية ، حيث طاف به الجنود الأتراك مكبلاً بالحديد ، مدة ثلاثة ايام ، في شوارع العاصمة التركية ،ثم امر بقطع رأسه أمام مسجد اياصوفيا ، وعرض جثته على الجمهور سحابة اسبوع .

وفي اواخر ايلول دمر جنود ابراهيم باشا مدينة « الدرعية » عاصمة نجد وخلفوها خرابا .

ولم يقف الامر عند هذا الحد .

فبعد سنوات اراد فيصل النجل الاصغر للامير عبد الله غسل الاهانة التي لحقت بأسرته وبدأ بتجميع بعض القبائل حوله ، فلم يدع له محمد علي اية فرصة للعمل ، ووجه الى الجزيرة العربية اربع فرق من جيشه ليطفيء شرارة الثورة الجديدة بسيل من الدماء ، في الوقت الذي كان فيه المصريون يشرفون على موسم الحج ، وكان البريطانيون يستقرون في عدن .

هاجمت الفرقة الاولى بقيادة خورشيد باشا ، المناطق النجدية حتى ادركت

Marfat.com

فيصلا في سهل « الدُلمَ » فهزمتـه ، وواصلت سيرها الى الخليج العربي مخترقة بذلك شبه الجزيرة العربية من البحر الاحمر الى الخليج . واندفعت الفرقة الثانية بقيادة خوتشوك باشا الى اليمن ، فاستولت على صنعاء ، وارغمت الامام على التنازل لمصلحة السلطان . اما الفرقتان الثالثة والرابعة اللتان كان يقودهمـا احمد باشا فقد اخضعتا ، بحدالسيف ،القبائل الناقمة في العسير والحجاز (١٨٣٦ – ١٨٣٨) .

ولم يبق ثمة داع للبقاء في هذه البلاد فأنسحب منها الاتراك بعد ان اثخنوها جراحاً وخلفوها ممزقة ، فمدنها تحولت الى أنقاض، وقراها الى رماد ، وواحاتها اتلفت الى عدة اجيال ... لا شيء سوى الفناء والخراب .

١٠

وهكذا قمعت تلك الوثبة التي كانت مؤهلة لتجديد ازهى عهود الاسلام ، وكُبتت في الصحراء التى كانت قد خرجت منها وهي أشد ما تكون زهواً وعنفواناً. فالموجة الاسلامية الاولى بقيادة النبي محمد وابي بكروعمر بن الخطاب حققت كل الظفر ،اما الموجة الثانية بقيادة محمد بن عبد الوهاب وسعود الكبير ، فقد آلت الى فشل ذريع .

فالمملكة (الوهابية) قد سحقت ، وعاصمتها «الدرعيه» تحوّلت الى انقاض، وتهدّمت اسوارها وانهارت حصونها ، وظلت شهادة على ضراوة الاتراك في الانتقام منها .

عادت الجزيرة العربية الى جمودها الاول : شعراء تائهون . امجاد مندثرة . فروسية بائدة . لقد انتهى كل شيء الى العدم ، وأصبح حلماً من الاحلام .

ولم يعكر صفو السكون الشاحب الكبير الا بعض الغزوات الكئيبـة

Marfat.com

لفرسان القبائل ، في نضالها ضد الفناء حول منابع المياه . فما من يد قوية تحكم وتوجه . ومن حين لآخر كانت طلقة نار ، او صرخة مكتومة ، أو هرولة جواد أدهم ، وحدها الشاهد على ان الجزيرة العربية لم تمت .

ولم يبق من شيء هناك سوى الفراغ ... وخلود الصحراء ، ولم يبق من شيء سوى شروق الشمس وغروبها .

ولم يبق من شيء بعد سوى الرياح ، الرياح الرملية الرهيبة تطمس المعالم وتكفن اثار الماضي ، وتحيل الى مستوى الذكريات ، كفاحا غير مجدٍ ، حاول بوساطته قوم ذوو طموح تلطيف حرارة تلهفهم الى العظمة والمجد .

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الثاني

فتح نجد

(١٨٨٠ - ١٩٠٥)

Marfat.com

Marfat.com

كان ذلك هو الوضع في الجزيرة العربية عندما ولد مع أذان الفجر في الرياض ، في ربيع الأول من العام الهجري ١٢٩٨ الموافق لشهر شباط ١٨٨١ ، طفل اطلق عليه ذووه اسم عبد العزيز .

كانت والدته سارة السديري ابنة احمد شيخ « الدواسر » احدى قبائل الجنوب المشهود لها ببأس محاربيها الأشداء . وقد تميز عبد العزيز منذ طفولته ببنية قوية ، كما تميز بذلك ايضاً اشقاؤه الثلاث الذين ولدوا من بعده : محمد ، وعبد الله ، وسعد .

أما والد عبد العزيز فهو عبد الرحمن ، أبن فيصل الذي دحرته قوات خورشيد باشا في سهل « الدُلم » . وقد لقب بالامام عبد الرحمن بصفته حفيد سعود الأكبر المتحدر مباشرة من صلب الأمير محمد بن سعود وزوجته ابنة الامام محمد بن عبد الوهاب .

وقد أدت مظالم الأتراك الى تشدد وتصلب الائمة والعلماء من أتباع دعوة محمد بن عبد الوهاب في عقيدتهم والى تحصنهم بكبرياء مشوبة بالحذر ، وبصلابة مذهبية متعصبة ، فلا فخفخة ولا بهرجة . بيوتهم شبه عارية ، ومساجدهم دون زخرف أو زينة . كانوا يعرضون عن كل مباهج الحياة من خمر وطعام دسم وتبغ وثياب حريرية ، فلا طرب ولا هزل ولا متعة في الحياة تصرفهم عن

Marfat.com

هدفهم الأساسي : تركيز افكارهم كلها نحو الله ، ورد الناس جميعاً الى عبادته وطاعته .

ان الطفل عبد العزيز الذي ولد في العام الهجري ١٢٩٨ ينتمي الى سلالة عريقة ، وتسري في عروقه دماء من أشرف الدماء العربية، ويرقى بنسبه الى عدد من الملوك والى امام الدعوة الأول ، كما يرقى عبر ٨٤ جيلاً من الفرسان المغاوير الى قبيلة بني تميم العريقة التي تلاحمت امجادها مع بزوغ فجر الاسلام .

حسب ونسب اصيلان ، منحهما القدر للمولود الجديد وبخل عليه بكل ما عداهما . فالأسرة فقيرة معدمة تحت وطأة الهزيمة ، وسلطتها موضع جدل . ثم انه أبصر النور في أعماق قصر متداع في مدينة ما يزال نصف اسوارها مهدماً مخرباً .

كانت مدينة الرياض قد حلت محل « الدرعية » عاصمة نجد القديمة التي محاها الأتراك قبل ستين سنة . ولكن : هل تنطبق كلمة عاصمة على هذه القرية البائسة التي ما تزال جدرانها المتصدعة شاهدة على مدى غضب ابراهيم باشا وحقده عليها ؟ صحيح ان أسوارها قد أقيمت من جديد ولكن ذلك كان أشبه بالترميم الذي لا يستند الى أي نظام . أبراج شيدت في فوضى ودعائم خشبية رصت جنباً الى جنب .

والقصر ؟ أفهل يسمى ذلك البناء قصراً ، تلك المجموعة من الانشاءات غير المتناسقة التي تربط فيما بينها مجموعة من المسالك والأروقة الضيقة . وكانت المساكن الجديدة تضاف الى المبنى الكبير اعتباطاً حتى أصبح القصر يحتل قلب المدينة كله .

بقي عبد العزيز في عهدة والدته حتى بلغ الفطام ، ثم تولى والده امر العناية به وتربيته تربية صارمة ، فبعث به الى مدرسة الرياض حيث تلقى مبادىء القراءة على مقاعدها الخشبية وبدأ يحفظ القرآن .

Marfat.com

ولكن الغلام لم يكن متحمساً كثيراً للدراسة وكان يقضي معظم أوقاته في التأمل والتفكير ، أو في التعارك مع زملائه في الصف، وكان اهتمامه من الدراسة منصباً على الفقه والدين فلا يشغله عن ذلك شاغل . وكان عبد العزيز منذ السابعة من عمره يؤدي الصلوات الخمس ويرافق والده خمس مرات يومياً الى المسجد ويصوم شهر رمضان ويحفظ قسما من القرآن .

وكان الامام عبد الرحمن رجلاً ممعناً في الزهد متعبداً رقيق الحاشية ، ومع ذلك فان رغبة مكبوته كانت تعتمل في نفسه : توطيد قوة الاسرة ونشر الدعوة في الربوع العربية كلها. واخذ على هذا الأساس يهيء عبد العزيز للمهمة التي انتدبه لها القدر ويقول له : « انه لشرف كبير خصك به الله العلي القدير ولكن عليك ان تدرك عمق الواجبات التي تترتب عليك ... فهناك عقبات كثيرة ستحول دونك ودون توحيد البلاد العربية ... يجب ان تعد نفسك لحياة تقشف ونضال ... وتركز افكارك كلها على تحقيق ذلك الهدف ... وعندما تجدنفسك تائهاً في دروب الظلمات فتذرع بالصبر الى ان يمن الله عليك بالفرج » .

كذلك أولى الامام عبد الرحمن تدريب ابنائه على قواعد الشجاعة والفروسية عناية خاصة لشعوره بأنهم سيواجهون في المستقبل تبعات وواجبات خطيرة . ففي الثامنة من عمره كان عبد العزيز قد تدرب على استعمال السيف ، واطلاق النار ، والوثوب على ظهر جواد يعدو دون سرج أو لجام .

وعهد به والده الى رؤساء بعض القوافل يجوب معهم الصحراء لكي يألف خشونة الحياة . وكان يرغمه على الاستيقاظ من نومه قبل ساعتين من الفجر حتى في شهر كانون الأول حيث يصفر النسيم البارد بين النجود . وكان يجبره على السير حافي القدمين صيفاً على الصخور الملتهبة بشمس الظهيرة ويدفعه الى ترويض قواه البدنية بتحدي رفاقه والتشابك معهم . كما كان يعوده على تنمية جلده وقوة احتماله بتقنين غذائه اليومي ويقول له : « على البدوي الصحيح ان يتعود على

Marfat.com

الاكتفاء بحفنة من التمر وجرعة من الماء وثلاث ساعات من النوم . ان هـــذه القواعد هي التي مكنت اسلافنا من تأسيس امبراطورية .

وشب عبد العزيز بسرعة ، مديد القـــامة ، لا يهدأ ولا يستكين ، هوايته المفضلة المصارعة والجري ، قوياً كالأسد خفيفاً حذراً كالفهد . كان عنيفاً مخيفاً ، شديد الغضب اذا استثير ، ولكن غضبه سرعان ما يزول ، ويستعيد السيطرة على نفسه كما يستعيد هدوءه وبشاشته .

وكان مع ذلك لا يعرف شيئاً عن الحياة ولا تتخطى انظاره أسوار المدينة . وكان ما يجري في أزقة الرياض القاتمة الملتوية كافياً للاستئثار بكل اهتمامه .

ذلك لأن شبح الموت كان يحوم في كل مكان من الرياض ، يترصد النـــاس لدى كل منعطف ويكمن في الظلال ، ويتسلل حتى أروقـــة القصر الصامتة . الخطر في كل حدب وصوب ، خفي ولكنه قائم. كان الأمان كلمة مفقودة، وكان كل انسان يعيش تحت رحمة وشاية أو دسيسة ، كأن المدينة لم يكفها مـــا حل بها على يد الأتراك من خراب ، فجاءت الحرب الاهلية تجثم فوق صدرها وتزيد في فدح المأساة .

لم يكن الأمام عبد الرحمن الأبن البكر في اسرته ، بل كان له شقيقان اكبر سناً : محمد وعبد الله يتنازعان السلطة ، ممـــا أدي الى انقسام السكان الى فئتين متعاديتين تؤيد كل منهما احد الاخوين ضد الآخر ، وتخوض من أجـــل ذلك صراعاً مريراً لا هوادة فيه ولا رحمة ، حتى اصبحت عاصمة نجد مسرحاً لاعمال العنف والاضطرابات والانقلابات الدامية .

وحرص الامام عبد الرحمن على البقاء بعيدا عن هذه المنازعات فعاش منعزلاً مع اسرته في جناح خاص بالقصر منصرفاً الى مهامه الدينية ، وظلت ،مع ذلك، حياته اشبه بالكابوس . فكل من الاخوين يتخوف منه ، ويتهمه بالتآمر ضده ،

Marfat.com

ويتحين الفرصة للانقضاض عليه. كان محاطاً بالجواسيس ينقلون الى كل من اخويه كل شاردة وواردة من تصرفاته او اقواله .

وارغم هذا الجو المفجع كل فرد على حياة الحذر والترقب ، فلا يستقر فكر ولا تهدأ أعصاب . فان اية غفلة يمكن ان تؤدي الى اسوأ الاحتمالات . ولنا ان نتصور اية مدرسة لتنمية الطاقات وتوقد الذكاء ومواجهة الاخطار ، كانت هذه الحياة بالنسبة الى صبي قوي البنية شديد المراس في سن عبد العزيز .

وجاءت الاخطار من الخارج تعزز هذه الاخطار من الداخل ، بمـــا لا يقل عنها اثارة ورعبا .

ففي الشمال الشرقي من الرياض تقوم مدينة « حائل » ، وهي مركز اتصال وتجمع قبائل « شمر » التي تمكن محمد بن الرشيد ، الرجل الطموح الحقود ، من جمعها تحت سلطته ، ومن استغلال العداء القديم العهد بين الشمريين والنجديين ، والافادة من الشقاق المسيطر على الرياض ليستولي على المدينة ويطرد السعوديين ، ويضم نجدا الى حائل ، ويحطم كبرياء السعوديين .

وزاد في خطر ابن الرشيد انه كان يتمتع بتأييد كامل من الاتراك الذين كانوا يعتمدون عليه في سحق السعوديين ، ويقدمون له ، لهذه الغـــاية ، المعونة المالية والسلاح .

بدأ ابن الرشيد حملته في ربيع ١٨٩٠ فلم يلقَ مقاومة جدية من القبائل النجدية المنقسمة على نفسها المنهوكة القوى . وتمكن بمساعدة أبن عمه عبيد قائد الجناح الايسر من جيشه من الاستيلاء على الرياض بعد معركة دامية قتل خلالها شقيقا عبد الرحمن : عبد الله بيد أبن الرشيد ومحمد بيد عبيد . وعين المنتصر احد اصدقائه المدعو « سليما » حـــاكما على المدينة وامره باستعمال اقصى الشدة لدى اول بادرة ثورة او تمرد .

وفي ساعة من ساعات الغفلة ندم عليها كثيراً فيما بعد ابقى ابن الرشيد على

Marfat.com

حياة الامام عبد الرحمن وجماعته وسمح له بالبقاء في الجناج الذي كان يحتله من القصر . كان يخاله سالماً مستسلماً .

١٢

أسفر انتصار ابن الرشيد عن نتيجة لم تكن في الحسبان . فقد اصبح الامام عبد الرحمن ، بعد القضاء على شقيقه ، زعيم الاسرة السعودية . وكان الارث الذي آل اليه ، مع ذلك ، زهيداً . فهو يحيا غريباً في قصر آبائه ، ولا يقيم في الرياض الا بفضل تسامح الغاصب وتساهله . كان في السابق محـــاطاً بجواسيس اخويه ، فأصبح اليوم خاضعاً لرقابة عدوه .

لم يقو الامام عبد الرحمن على تحمل ذلك الوضع المهين طويلا ، فقرر خلع نير ابن الرشيد بتحريض الشعب على ثورة سرعان ما قمعها الحاكم سليم ، وامر بشنق اربعين ثائراً على رؤوس المآذن عبرة وتحذيراً .

ولم تثبط همة عبد الرحمن فأستأنف الدعوة الى الثورة حتى ترامت أنباؤها الى مسامع ابن الرشيد ، فأصدر الى سليم امراً بوضع حـــد نهائي « لشغب » السعوديين وبفرض عقاب على المدينة يذهب مضرب المثل .

وكانت تلك هي الفرصة التي يتحينها سليم ، فشريعة الحرب في الصحراء لا تعرف الرحمة وليس للمغلوب ان يطمع في تساهـــل الغالب . لقد استثنى ابن الرشيد ، الامام عبد الرحمن ، من القتل . فدلت التجربة ، مرة اخرى ، على خطأ كبير .

وضع سليم خطته لابادة الاسرة السعودية ، وحدد نهاية شهر رمضان موعداً لتنفيذها ، عندما يحل عيد الفطر ويذهب لتهنئة الامـــام عبد الرحمن بالعيد . وكانت الخطة تقضي بأن يطلب سليم الى مضيفه ان يعرّفه على جميع افراد

Marfat.com

الاسرة ، فما ان يجتمع هؤلاء في قـــاعة الاستقبال حتى يحاصرهم حراس سالم السبهان ويذبحوهم عن بكرة أبيهم . تلك كانت الوسيلة الوحيدة للخلاص من السعوديين .

ولكن الخطة التي بيتها سالم تسربت في الوقت المناسب الى الامام عبد الرحمن فاستدعى الى القصر صبيحة يوم العيد عددا من انصاره المخلصين وزودهم بالسلاح وامرهم ان يكونوا على استعداد للتدخل لدى اول اشارة .

ووصل سالم يحوطه حرّاسه حوالي الظهر ،فاستقبله الامير عبد الرحمن بكل حفاوة ، وشكره على مبادرته بالمعايدة والزيارة . وادخله قاعة الاستقبال حيث جمع عدداً من ابناء الأسرة لكي لا يثير الشكوك في نفس الحـــاكم . وكان بين الموجودين الفتى عبد العزيز البالغ الحادية عشرة من عمره انذاك والى جواره عبد زنجي عملاق .

وتبادل عبد الرحمن وسالم عبارات المجاملة والاطمئنان عن الصحة بينما كان كلاهما ، وهو يحتسي القهوة ، يراقب عدوه بحذر ويتهيأ للانقضاض على عنقه . وقال سالم فجأة ، بعد احاديث شتى :

– سيدي .. انني لا ارى هنا سوى قسم من أفراد اسرتكم ، فهل لـكم باستدعاء الاخرين حتى اكون سعيداً بالسلام عليكم جميعاً .

وفوراً أستل الامام عبد الرحمن خنجره ، اشارة لانصاره المترقبين ،فاقتحموا القاعة شاهري السيوف ، واطبقوا على سالم فكبلوا يديه ورجليه والقوه في بئر بعد ان قتلوا جميع حراسه . كانت مذبحة رهيبة شهد عبد العزيز فصولهـا من فوق كتف الزنجي الذي حماه بجسمه ودفع عنه الاذى ، ولقد تلطخ عبد العزيز مع ذلك بالدماء وظلت صورة المعركة محفورة في ذاكرته .

« في ذلك اليوم تعلمت – كما قال عبد العزيز فيما بعد – ان على المرء ان يبادر الى توجيه الضربة الأولى عندما يشعر بأنه مهدد بالخطر . »

Marfat.com

واذ انتشرت انباء المذبحة في المدينة ، هرع الأهلون الى اسلحتهم فطردوا حامية سالم ، وحصنوا ابواب الرياض واستعدوا لمقاومة ابن الرشيد وانضم الى الثورة سكان القرى المجاورة .

وانتفض ابن الرشيد غضباً لمصرع سالم ، فعبأ جميع قواته وغادر « حائل » على عجل متجهاً الى الرياض وقد عقد العزم على ابادة عبد الرحمن واسرته وذريته كلها . فلن يهدأ له بال ما بقي سعودي واحد على قيد الحياة .

وجمع الامام عبد الرحمن ، من جهته ، أنصاره ووزع عليهم ما خلفته حامية ابن الرشيد من عتاد وخرج لملاقاة المغير . فالتحم الفريقان طيلة أسابيع في معركة دامية ، في السهل المنبسط الى الجنوب الشرقي من « عنيزة » ، حتى تمت السيطرة في النهاية لابن الرشيد المتفوق عدة وعدداً . فأضطر عبد الرحمن الى التراجع والأنكفاء خلف أسوار الرياض .

فرض ابن الرشيد الحصار على المدينة وعمد الشمريون الى قطع اشجار النخيل وتخريب أقنية الري ، وتسميم الآبار واتلاف المزروعات المحيطة بالمدينة . وطال الحصار حتى شحت مياه الشرب في الخزانات ، وتناقصت الاغذية والمؤن ، فجاء أهل المدينة يلتمسون من الامام ان يستسلم ، فرفض الاستسلام الذي يعني تعريض جميع اسرته للموت .

وأخيراً ... هدد سكان الرياض إمامهم بالتمرد، وتخلى عنه انصاره المتخوفون من انتقام ابن الرشيد الواحد تلو الآخر ، ولم تثبت على الولاء له سوى بقية قليلة من قواته ، ففضل النجاة بنفسه وبأفراد اسرته على الوقوع حياً في يدي عدوه فهيأ لهذه الغاية عدداً من الجمال وحوالي عشرين شخصاً من الأنصار الأوفياء ثم حزم أمتعته وودع اصدقاءه . وغادرت القافلة الرياض وفي المقدمة جمل يقل الفتى عبد العزيز وشقيقه محمداً ، متسترة بالظلام متسللة الى ما وراء خطوط العدو .

Marfat.com

ولما دخل ابن الرشيد عاصمة نجد هرول مسرعاً الى القصر على رأس عدد من جنوده وراح يقفز درجات السلالم قفزاً ليشفي غليـــله من عدوه فألفى القصر خاوياً . لقد نجا السعوديون وفاته التمتع بلذة الأنتقام .

اتجه عبد الرحمن جنوباً وحل ضيفاً على زعيم قبائل العجمان ، الذي انزله في حماه آمناً ، مراعاة لتقاليد الضيافة العربية . ولكنه اختصر بعد ذلك اقامته في ربوعهم غير المأمونة ، وشطر قافلته الى شطرين ، بعث بأحدهمـا ، وهو يضم زوجته وبعض النسوة والمرافقين ، الى البحرين ، بينما جد هو في المسير مصطحباً عبد العزيز باتجاه الجنوب . وحسناً فعل . فزعيم « العجمان » كان يتهيأ لقتـــله وقطع رأسه ليبعث به هدية الى ابن الرشيد ، طمعاً في حظوة لدى المنتصر وفي هباته . ولكن رحيل عبـد الرحمن المفاجيء احبط الخطة واثار حفيظة العجمان فأقسموا على قتله في أول سانحة .

توقف الأمام السعودي بعد سير متواصل استمر عدة ايام في واحة «الحريق» حيث لقي مفاجأة في انتظاره ، فقد وافاه رجل مجهول وطلب التحدث اليه على انفراد . وكان الرجل مبعوثاً يحمل عرضاً مغرياً من لدن الأتراك . فأبن الرشيد بدأ يتغطرس في تعامـــله مع الأتراك بشكل اثار قلق المسؤولين في الاستانة . واخذ زعماء شمر يتحدثون عن نزع الحماية التركية بعدمـا انتشوا بخمرة الظفر وساورتهم نزعة الاستقلال .

وعرض العثمانيون على الامام عبـد الرحمن تطبيقاً لسياسة التوازن التي كانوا يتبعونها في البـــلاد العربية ، تمكينه من استعادة الرياض بشرط ان يوافق على اقامة حامية تركية في المدينة وان يعترف رسمياً بتبعيته للسلطان .

Marfat.com

كان عبـــد الرحمن معدماً مشرداً ، يفتقر حتى الى منزل يأوي اليه أفراد اسرته ، ومع ذلك ، فان مجرد افتراض الركوع امام الذين دمروا بلاده، وقضوا على والده ، وقطعوا رأس جده أمام مسجد ايا صوفيا ، بدا له مذلاً معيباً ، فلم يستطع كبح جمـــاح غضبه ، وانهال بالسوط ضرباً على وجه الرسول التركي وقال له :

– سوف اقتلك اذا اعدت الكرة ، اذهب وقل لاسيادك : ان شرف عبـد الرحمن ليس سلعة تباع وتشترى .

وأخذت الاستانة علمـاً بفشل رسولها في مهمته وبالطريقة التي عومل بها ، فأباح السلطان دم عبد الرحمن وحلل قتله بتهمة الاساءة الى امن الامبراطوريـة الداخلي . وأدرج اسمه رجلاً خارجاً على القانون في القائمة السوداء .

قرار شكلي في ذاته لعجز الحكومة العثمانيـــة عن تنفيذه ، الا انه احاط السعوديين بمزيد من الاخطار ، مما جعل حياتهم اكثر اضطراباً واشد قلقاً . فقد صار بوسع اي انسان ان يقتل الامام عبد الرحمن لثأر شخصي فلا ينـــاله اي عقاب ، باعتباره منفذاً للأمر الشاهاني . لقد ألب والد عبد العزيز على نفسه في وقت واحد ، وفي ظروف حرجة ، غضب ابن الرشيد وحقد العجمان ، وعداء حكومة الاستانة .

وكان ذلك كثيراً ، على رجل وحيد اعزل ، بلا نصير .

اخطار من كل جانب ، والموت مترصد لدى كل خطوة، والجواسيس والاعداء في كل مكان . وما من حمى امين يلجأ اليه عبد الرحمن وولده عبد العزيز . فواصلا المسير ، مع حاميتهما الصغيرة ، جنوباً حتى ادركا واحة « جبرين » حيث خلفا وراءهما اخر اثر من اثار المدنية متوغلين في الصحراء الكبرى الملتهبة القاحـلة التي يطلق عليها البدو اسم : « الربع الخالي » والتي لا تغامر أية قافلة بولوجها .

Marfat.com

انها ليست الصحراء بالمعنى المفهوم بـل هي مزيج فوضوي لا ضابط له ولا انسجام من حجارة وصخور نجمت عن التقلبات الجيولوجية في عصور ما قبـل التاريخ . مملكة للجهاد لا دغل فيها ولا عشبة تحجب وجه الأرض المجعد المليء بالحفر والاخاديد . وأما المياه فنادرة ، وان وجدت فهي غير صالحـة للشرب طافحة بالمواد المعدنية . لا شيء يلقاه المسافر الا الظمـأ وضربة الشمس والخبل ... فالموت .

ولئن كانت هذه المنطقة واحدة من أشد المناطق قسوة في الكرة الأرضية ، فهي مع ذلك مسرح لأقوام هم الأكثر بداءة في شبه الجزيرة العربية : « المرة » .

لقد أُرغمت قبائل « المرة » على النزوح عن اليمن خلال العهود القديمة ، شأنها شأن القبائل الاخرى ، ولكنها لم تبق في مجرى التيار البشري الصاعد شمالاً الى سورية ، بل أُخرجت منه واقصيت نحو الجنوب . وكانت من الضعف الى حد تعجز فيه عن فرض وجودها حول موارد المياه ، فلجأت ، مضطرة ، الى هذه المتاهات الخاوية التي لا ينازعها عليها منازع .

لجأ عبد الرحمن وابنه عبـد العزيز الى الربع الخالي ، فأمنـا شر مطاردة الاعداء ، لأن ما من عدو عاقل أو غير عاقل يجازف باقتحـام ذلك الجحيم . وكانت حيـاة مرهقـة صلبة حولت الفتى عبـد العزيز الى بدوي مكتمل . فالرياض منحته القوة والرشاقة والايمان . واما تطوافه في الصحراء فقد اكسبه قدرة السيطرة على نفسه ورغباته وروضته على الجلد الشديد ، وعلى ان يكتفي من دنياه بحفنة تمر ، وجرعات من اللبن ، وبخيمة من جلد المـاعز يستظلها . واصبح الفتى القوي البنية المفتول العضل يافعاً ناشئاً مصقولاً بأعنف التجارب والمحن .

Marfat.com

كان افراد « المرة » نماذج بائسة لبني البشر . فهم مديدو القامة ، ناحلو الجسم يكسو رؤوسهم شعر أشعث يعلو وجوهاً شاحبة ، لا يتوفر لهم من الغذاء غير ما يحول دونه الموت جوعاً : قليل من التمر ، جرذون مشوي أو فأر ، بيضة نعامة ، وفي احيان نادرة ، غزال شارد . واذا استبد بهم الجوع شنوا غزوات يقطعون خلالها اربعماية كيلومتر لنهب ماشية القبائل الاسعد حظاً ، القاطنة عند اطراف المنطقة التاعسة .

وكانت هذه الحياة بالنسبة الى عبد العزيز عذاباً مريراً . لقد ردد والده على مسامعه منذ طفولته انه مدعو لأن يكون يوماً ملكاً على شبه الجزيرة العربية كلها . فيكفي الآن ان يلقي نظرة حوله ليرى انه ليس شيئاً يذكر : اكثر من مشرد منفي دون مأوى ولا اسرة ولا اصدقاء أو سلاح ، مرغم على التواري خشية الخصوم والاعداء .

ومع ان عبد العزيز شارك « المرة » في بعض غزواتهم فقد كان يشعر نحوهم بمقت عميق ، اذ لا تقل اخلاقهم ، سوءاً وانحلالا عن مظهرهم وقذارتهم . وكان الفتى السعودي الذي نشأ على الفضيلة والشهامة والتمسك بأهداب الدين ، يثور ويغضب لما يراه من سلوك « المرة » واستهتارهم بقواعد الدين وتعاليمه ، لا يحترمون اية شريعة ولا يرعون الزمام ولا العهد . بل انهم لا يرقون الى اي مستوى من مستويات الشرف والمروءة . لقد كانوا حثالة الجزيرة العربية .

فكم من مرة تنحى عبد العزيز عن صحبتهم ، وانسحب الى قفر موحش من الصحراء للتعبد والتأمل . اليست العزلة هي التي امدت افضل ابناء الاسلام جيلا بعد جيل بأسمى الوحي والالهام ؟ كان يغوص في اغوار نفسه لينجو من عذابه ، ويغمض عينيه عن الجحيم الدنيوي الذي يتلظي بنيرانه ... نيران تلتهم كل شيء بالسنة عمياء من اللهيب. لقد اكدوا له مراراً انه خلق لتحقيق امر عظيم ، فأي أمر عظيم هذا ان يحيا حياة المنبوذين وسط اناس لهم ، بالكاد ، سحنة البشر .

Marfat.com

فهل ضل سبيل الهدى حتى يكون في هذا المصير ويقضى عليه بالشقاء الابدي ؟ وهل كان من الذين أصمَّ الله أذانهم عن سماع كلامه ليستحق ما هو فيه ؟

ويسجد عبد العزيز ويمضي في الصلاة خاشعاً دون كلل ، وحيداً .. وحيداً الا من ايمانه بالله. ويسأل الله بادرة تنبىء بأنه ليس محكوماً بان يشقى الى الابد ، فتشعره الصلاة براحة واطمئنان وتوقد في نفسه جذوة الحماسة، ويسمع من اعماق يأسه هاتفاً يحذره من القنوط من رحمة الله .

وخيل اليه في احدى الامسيات ، وهو يؤدي صلاة المغرب والشمس تتوارى ملونةً الرمال والحجارة بلون ارجواني، بانه يرى في الافق ، سعوداً الاكبر ومحمداً ابن عبد الوهاب ، وفي الافق الأبعد ، قادة الفتح العربي وخلفاء النبي الاولين .

ما اعظم ان يكون المرء واحداً من هؤلاء ، خادماً لدين الله ، قائداً للشعوب ومؤسساً للممالك . يقبض بيد من حديد على ناصية القبائل الغفيرة المتناحرة ويقودها لبناء صرح الوحدة العربية .

كان عبد العزيز يشعر بالهام وقوة لتحقيق تلك الفكرة، اذا منحه الله القدرة ومكنه من بلوغ مبلغ الرجال . فانه سينتصر بأرادة الله وعونه ، سواء بالسلاح او بالعقيدة . ولسوف يجمع بين يديه السلطتين الدينية والسياسية ليتمكن من تحقيق الوحدة العربية ، مقتفيا كل خطوات الرسول العظيم .

ولكن لحظات الحماسة هذه لم تكن لتدوم طويلا ... احلام فتى مراهق اضناه الصيام والحرمان ، اقرب الى هذيان المحموم . وسرعان ما تتبدد الاحلام ويعود الفتى الى واقعه المرير .

وعصفت رياح الخريف الرملية العاتية تكنس الصحراء وتلفها بكفن من الغبار الكثيف . فالحشائش الاخيرة حول الابار تذوي . وجذور الحلفاء

Marfat.com

المسحوقة لم تعد تصلح للطعام ، والطرائد قد اختفت ، والمؤن تتضاءل . وما هي الا اسابيع حتى تبلغ الرحلة نهايتها ، ولا يبقى امام الجوع والظمأ والحمى الا ان تفعل فعلها السريع الرهيب .

اوشك عبد الرحمن ان يستسلم. فبنو البشر لم يحطموا ارادته ولكن الصحراء اقوى وسيكتب لها النصر . فهل قدر اذن للسعوديين ان ينقضي مصيرهم ها هنا ويضمحل كجدول تائه يغور في الرمال ؟ وهل يأتي الربيع عليهم هياكل عظمية بيضتها اشعة الشمس فلا يعرف انسان اية آمـــال كانت تجيش في نفوس اصحابها ؟

جمع عبد الرحمن في خيمته ابنه والحراس الثلاثة الذين بقوا بصحبته وقال لهم وهو يستجمع اخر قواه :

– بات من واجبي ان أحدثكم صريحاً ، فقد شاءت ارادة الله ، فيما يبدو ، ان اموت هنا ، ولا مرد ولا اعتراض على مشيئته والشكر والحمد له على كل حال . وليس لنا الا ان نتلو الفاتحة حتى يقضي الله امراً كان مفعولاً .

– لا .. – قال عبد العزيز – لن نموت هنا .

– وما الذي جعلك واثقاً من ذلك ؟

– لانني ساصبح ملكاً على الجزيرة العربية عندما اكبر .

دهش عبد الرحمن لعبارة ولده ونظر اليه ملياً ففوجيء برؤية بريق في عيني الفتى ، لم يكن قد شاهده ابداً من قبل .

١٥

لاحت لعبد الرحمن عند الافق في اليوم التالي، بعد ليلة لم تنقطع فيها الصلاة ،

Marfat.com

جماعه من الفرسان اوفدهم امير الكويت حاملين دعوة الى الامام السعودي وافراد اسرته للاقامة آمنين في بلاده . وعرض عليه تأمين حاجاتهم كلها وتوفير مسكن ومستوى حياتي يتناسبان ومكانتهم .

لقد نجـا السعوديون في اللحظة الاخيرة . ولكن ... ما هي الدوافع الكامنة وراء ذلك العرض السخي غير المنتظر ؟ ...

عندما كان الامام عبد الرحمن مشردا في الربع الخالي ، اغتر ابن الرشيد بانه اصبح سيد أواسط شبه الجزيرة العربية بدون منازع ، فحنث بيمين ولائه للاتراك حتى اخذ سادة الاستانة يشعرون بفدح الخطأ الذي ارتكبوه عندما افسحوا لابن الرشيد، مجال القضاء قضاء مبرما على منافسه السعودي ،فأصبح بعد ذلك طموحاً مناوئاً . لهذا قرر الاتراك تبديل سياستهم ومساعدة الامـام عبد الرحمن على استعادة ممتلكاته ليقف في وجه ابن الرشيد .

ولكن المسولين في الاستانة وقـــد خبروا كبرياء عبد الرحمن واعتزازه في محاولة سالفة ،تحاشوا الاتصال المباشر به هذه المرة وعمدوا الى المداورة والاستعانة بطرف ثالث من وراء ستار .

فالشيخ محمد امير الكويت صديق لهم . وهو اذ يعرض مساعدة عربي لعربي دون قيد ولا شرط ، فلن تكون لدى الامام عبد الرحمن اية اسباب تدعوه لرفضها .

وعلى هذا ، تفاهم الاتراك مع امير الكويت على استضافة الامـــام في بلاده وتكريمه وتأمين نفقاته . وغني عن القول ان الحاكم الكويتي كان يأمل في ان يجني هو الاخر ، بعض الفوائد من وراء دعوته .

وإذ لم يعرف الامام وهو في صحرائه ، شيئاً عن ذلك الاتفاق ، قبل الدعوة سريعاً وانتقل مع اسرته للاقامة في الكويت في العام ١٨٩٥

Marfat.com

والكويت ... ليست الرياض بأزقتها الملتوية ولا الفراغ الرهيب في الربع الخالي . بل هي الميناء التجاري الهام قريباً من مصب نهر الفرات .

والكويتيون شعب مضياف ، تعج شوارع مدينتهم وارصفتها بنشاط يجتذب الناس من مختلف الاقطار والجنسيات ، ويتلاقى فيها التجار الوافدون من طهران وبومباي ، والسوريون من حلب ودمشق ، والارمن والاتراك والاوربيون . وكانت القوافل تنطلق من الكويت في مختلف الاتجاهات : الى ايران واواسط الجزيرة العربية ومصر وسورية ، فازدهرت فيها التجارة ، كما ازدهرت الجاسوسية. وكان لمعظم الدول الكبرى ممثلوها في الكويت : قناصل، وعملاء سريون متنكرون في اثواب تجار او مبشرين او علماء اثار .

بدأت حياة عبد العزيز في عالمه الجديد ، شبيهة بحياة اقرانه من الفتيان العرب، فهو يتجول على رصيف الميناء ملتقطا احاديث البحارة والتجار القادمين من عدن او غوا وسيلان ، مستمعاً الى حكايات المسافرين عما يجري في دمشق وبغداد والاستانة، فيشعر بأنه يعيش في وسط الكون. ولكن ذلك لم يصرفه عن هدفه : فتح الجزيرة العربية . ألم ينقذه الله لهذه الغاية ، من الموت في الصحراء .

وأشد ما كان يثير عبد العزيز ، أحاديث أصدقائه الكويتيين من ابناء الطبقة الثرية الذين كانوا يتباهون بتعداد ما تحويه متاجر اباءهم من ثروات وبالأموال التي سيرثونها . فكان عبد العزيز يتباهى بأنه حفيد سعود الأكبر وان اسمه سيحجب يوماً اسم جده العظيم ، مؤكداً انه سيعيد تحقيق الوحدة العربية ويقسم على ذلك الايمان ، فيبتسم سامعوه سخرية ثم ينفجرون ضاحكين كلما اسرف في التأكيد .

لذلك قرر ابن عبد الرحمن ان يلقنهم درساً لا يُنسى ، وان يثبت للهازئين ما هو جدير بتحقيقه ، فقد صادف في السوق قبل ايام رعاة قادمين في قافلة من نجد ، فأستطلعهم احوال البلاد ، فأسروا اليه بأن أهل الرياض متألمون من

Marfat.com

ظلم ابن الرشيد وبأنهم لا ينتظرون سوى عودة السعوديين ليقفوا الى جانبهم .

سارع عبد العزيز الى استعارة جمل من والدأحدأصدقائه، وانطلق وحيداً في الصحراء ليؤسس مملكته . ولكن الأمور لم تجر، مع الأسف ، كما كان يتوقع . فأما ان مخبريه كانوا متفائلين اكثر من اللازم وأمـــا انهم خدعوه مستغلين تلهفه لتصديق كل ما يقولون ، فان اية قبيـلة لم تتحرك أو تتحسس لاستقباله ، وعرج جمله الهرم الجرب بعد ثلاثة أيام ثم انكسرت رجله فأستلقى على الرمال ورفض ان يخطو اية خطوة .

بكى عبد العزيز حنقاً وغيظـاً ، وقطع مرحلة من طريق العودة سيراً على قدميه . الى ان صادف قافلة اصطحبته بعد ما ناه يوماً كاملاً في الصحراء . وقفل راجعاً الى الكويت على ظهر حمار محمل بالامتعة . فيا لها من رحلة بالنسبة لغلام مؤهل لفتح الجزيرة العربية .

وسمع أهل الكويت جميعاً ، بتفاصيل المغامرة الفاشلة . ونقلت فيما بعد الى الاستانة فتلقاها المسؤولون هناك بالسخرية ، وجاءت ضربة موجعـــة لهيبة السعوديين . فاذا كان هذا هو كل ما في وسعهم ان يفعلوه ، فيـا لضيعة اموال يدفعها أمير الكويت من حسابهم للانفاق على الامام عبد الرحمن واسرته .

عاد عبد العزيز يتسكع في شوارع الكويت وارصفتها التي فقدت جاذبيتها بالنسبة اليه . ولم يعد ينتشي بمشاهدة المراكب تجوب الميناء ولا بروايات البحارة وحكايات المغامرات .

أصبح جو الكويت مثقلاً خانقـــاً ، يثير فيه الحنين الى الصحراء . فهبوب العواصف على الخليج يغرق المدينة بالرطوبة الكثيفة ويبعث الروائح النتنة من المجاري والاحواض . لقد مل عبد العزيز حياة البطالة وكبت ما تجيش به نفسه من حيوية وحماسة للكفاح ، واستبد به الالم لعجزه عن استخدام هذه الامكانات ، حتى راوده شعور الغائص في مأزق سحيق القرار .

Marfat.com

وزاد الأمور سوءاً في تلك الفترة ، تعقد أوضاع الأمام عبد الرحمن المالية ، اذ انصرفت الحكومة التركيـــة عن الاهتمام بالمنازعات الدائرة في أواسط شبه الجزيرة العربية لانشغالها بقضايا أكثر اهمية . فاليونان تثير مشكلة جزيرة كريت ، والدول الكبرى تكشر عن أنيابها ، والخزانة العثمانية تشكو الخواء . فمن ذا يفكر بعد هذا ، في الاستانة ، بالصراع بين آل الرشيد والسعوديـين . وتوقفت المساعدات المالية التركية المخصصة لعبد الرحمن فما عادت تصل حاكم الكويت ، فاحجم هو الآخر عن الاهتمام بحاجات الاسرة السعودية .

ما العمل ؟ فالمستقبل يبدو مظلمـاً ، وهل كتب على السعوديين الذين نجوا من الهلاك في الرمال ان يغوصوا في أوحال ميناء صغير على الخليج العربي ؟

وكان عبد العزيز يتساءل : هل سأضطر للعمل في المرفأ لاعـــالة الاسرة ؟ عندمـــا حدثت المفاجأة الثانية ، وكانت أشد اثارة من ظهور فرسان امير الكويت في صحراء الربع الخالي ..

١٦

كان لمحمد امير الكويت شقيق يدعى مبارك عاش واياه على خـلاف وسوء تفاهم وكان مقامراً مبذراً بدد ميراثه ثم تشاجر مع اخيه وسافر الى بومبـاي ، حيث اقام عدة سنين يشغل نفسه « بمشاريـع » يبدو انها كانت ناجحة لان مبارك كان ينفق عن سعة ويبدد كثيراً من الأموال على موائد القمار .

من أين كان يأتيه المال ؟ ... ذلك سره ؟ ولكن ثمة امر مؤكد هو ان المال كان متوفراً بين يديه على الدوام .

رجع مبـــارك الى الكويت في العام ١٨٩٧ فرفض شقيقه استقباله في قصر الامارة ، واخضعه لمختلف انواع المراقبة ، كما عرضه لمختلف دواعي الاستفزاز .

Marfat.com

فتحمل مبارك هذه المعاملة القاسية برحابة صدر اثارت اعجاب الجميع .

وكان مبـارك يسعى الى قتل الوقت بالنزهة على الامـــام عبد الرحمن ، فيستعرضان مشكلات اواسط شبه الجزيرة العربية ، رغم ان الامام السعودي لم يكن يطمئن الى مبارك ولا يستسيغ ما ترامى اليه من أقاويـل حيال ماضيه ومغامراته المالية وتعلقه بالخمرة . ثم ان عبد الرحمن كان يتخوف من ان تجلب له هذه الزيارات استياء محمد حاكم الكويت .

وأما شعور الشاب عبد العزيز فكان مغايراً . فمبارك محدث بارع ، حـــلو النكتة غني بالتجـارب التي اكتسبها خلال رحلاته ، وهو راوية للتـاريخ لا يجارى ، فلا يمل عبد العزيز المتعطش الى المعرفة ، من الاصغاء الى احاديثه طوال ساعات

وابتهج مبارك بالعثور على مستمع شديد الانصات ، ولم يطل به الوقت حتى اكتشف ما يتحلى بـه ابن عبد الرحمن من مزايا تجمع عمـق التفكير الى قوة الارادة وسداد الرأي والحماسة ، مما اثار اعجاب مبارك ، وجعله يتوقع له مستقبلاً كبيراً . أما عبـــد العزيز الذي بلغ الثامنـة عشرة من عمره انـذاك ، فمع انقطاعه عن الدراسة منذ خروجه من الرياض ، كانت الحياة القاسية التي عاشها منذ طفولته قد انضجت رأيه ووسعت ادراكه ، وجاء مبارك يعوض على الشاب ما فاته بتدريسه التاريخ والجغرافيا والحساب ، كما علمه قليلاً من الانـكليزية واتخذه فيما بعد اميناً على اسراره .

فمبارك يخفي تحت مظهر الرجل الخامل ، نشاطاً كبيراً اطلع عبد العزيز منذ البداية على بعضه ، ثم تكشف له البعض الآخر . واخـذ الفتى يحضر اجتماعات مبارك الخاصة ، حيث عرف اموراً كثيرة يجهلهـا ، والتقى رجـالاً من مختلف الاقطار والأديان : تجـاراً ومساهمين في شركات ، وعملاء بورصة ، وصيـارفة وموظفين ورجال سياسة ومغامرين وعملاء للدول الكبرى من بريطانيين والمان

Marfat.com

وفرنسيين وروس ، فدهش لمدى اتساع واهمية علاقات مبارك الذي كان يبدو ان له اصدقاء في عواصم العالم كلها .

ولم يكن مبارك يصبر عبثاً على سوء معاملة اخيه ، بـل كان يتحين الفرصة المناسبة ... الى ان حان موعد الثأر في اواخر العام ١٧٩٩ .

ذات يوم تسلل مبارك الى قصر الامارة تحت جنح الظلام برفقـة اثنين من العبيد ، بعد ان رشا الحراس ، فذبح اخاه في فراشه ، ونصب نفسه اميراً على الكويت . واستقبل الكويتيون هذه الضربة المفاجئة باللامبالاة . لقد ارهقهم محمد بالضرائب ، فراودهم الامل بأن يكون مبارك اكثر تساهلاً من سلفه .

ولما استتب الامر للامير الجديد ، بادر الى تسوية اوضاع الاسرة السعودية . وجاء بعبد العزيز الى القصر ليستوفي دراسته .

كان الفتى السعودي خلال الاجتماعات والمحادثات التي يعقدها مبارك ، ينتحي زاوية من القاعة ، متدثراً بعباءته لاهياً بسبحته في الظاهر عمـــا يدور حوله . ولكنه في الواقع ، كان شديد اليقظة يسجل في ذاكرته كل شاردة وواردة ، متعمقاً يوماً فيوما ، في تفهم الشؤون المحلية المعقدة ، والقضايا العالمية الاكثر تشابكاً وتعقيداً .

وجاءت ردّة الفعل في الاتراك وشيكاً . فقد كان الامير محمد ممثلاً لهم في الكويت ، فقتله مبارك ، وتولى الامارة دون مشورتهم او رضاهم . وان جرماً كهذا لا يمكن ان يظل في منجى من العقاب .

ووجد الاتراك انفسهم بحاجة الى وسيط يتولى بالنيابة عنهم انزال العقاب

Marfat.com

إذ لم تكن لديهم قوات مهيأة للقتال في الكويت، لذلك عادوا تحت ضغط الظروف الى استرضاء ابن الرشيد موضحين له ان الذي يمتلك نجدا والرياض لا بد له من امتلاك الكويت كمنفذ الى البحر ، ووعدوه بالتنازل له عن هذا الميناء اذا طرد مباركا واعترف من جديد بسيادتهم .

وكان ابن الرشيد مستعداً للموافقة ، ما دام الامر يتعلق بتوسيع ممتلكاته ، فلما حظي بمساعدة الاتراك، عبأ قواته ومشى الى الكويت لطرد « المغتصب » .

جند مبارك عشرة آلاف متطوع لمواجهة الحملة ، فتوفر لديه جيش يضم محاربين من قبائل شتى : « المنتفق ، والعجمان ، والضفير » وسواها . ومقاتلين قدموا فرادى من الرياض على امل تحطيم سيطرة الرشيديين .

وعهد الامير مبارك الى الامام عبد الرحمن بقيادة القسم الهام من قواته . بينما وضع عبد العزيز على رأس فصيلة مستقلة مهمتها القيام بمناورات الهاء للعدو ، على ان يتجه جنوباً نحو الرياض فيثير القبائل النجدية وينشر الاضطراب خلف صفوف ابن الرشيد ويستقر السعوديون في ديارهم . كان امير الكويت عامراً بالتفاؤل مطمئنا الى النصر كل الاطمئنان .

تحمس عبد العزيز لفكرة تولي القيادة لاول مرة حتى يثبت كفاءته ويمحو ذكرى غزوته السابقة الاليمة . فحقق المهمة الموكولة اليه بنجاح . واخذت القبائل بحميته واندفاعه ، فانتفضت جميعها ، وقدمت له المتطوعين . فلما ادرك الطرف الجنوبي للرياض ، كان على رأس قوة لا يستهان بها من المحاربين .

وفجأة ... وردت الانباء المفجعة من الشمال حيث تدور المعركة الرئيسية . فقد التحم مبارك بقوات ابن الرشيد قرب قرية « الصريف » فلما اشتدت وطأة القتال لاذ محاربو « المنتفق » بالفرار ، ونكص « العجمان » على اعقابهم . وهزم مبارك . ولم تنج بقية جيشه من الابادة الا بفضل عاصفة هبت على المنطقة . كان الاندحار كاملاً والتراجع سريعاً نحو الكويت .

Marfat.com

وتفككت قوات عبد العزيز بدورها عندما بلغتها انباء الكارثة . وخشيت القبائل المتمردة ، من انتقام ابن الرشيد ، فسارعت بالعودة الى قراها . ولم يبق حول عبد العزيز سوى قبضة من المخلصين فعجل بالانسحاب الى الكويت حيث الفى والده ومباركاً منصرفين الى تنظيم الدفاع عن المدينة .

وتقدم ابن الرشيد على مراحل مضرما النار في القرى والواحات . وشنق في « بريدة » التي انضمت الى السعوديين مئة وثمانين من اشراف المدينة . وفرض جزية باهظة على سكانها ، ثم اتجه نحو الكويت ساحقاً في طريقه آخر قوات مبارك في الجهرا على مسافة عدة كيلومترات من الساحل . وتهيأ للوثوب على الميناء .

كان الامير مبارك امام كارثة ساحقة ، في مدينة مكشوفة ، بلا جيش ولا سلاح ولا انصار . واصبح سقوط الكويت في ايدي الاعداء امراً لا نزاع فيه ولا جَدل . كما اضحى السعوديون مرة اخرى بين شدقي الخطر . كانوا يتوقون ان يدخلوا الرياض دخول الفاتحين، ولكنهم لعبوا الورقة الخاسرة فانهارت احلامهم ولم يبق أمام الإمام عبد الرحمن من مخرج سوى مواصلة الفرار حتى لايقع غنيمة باردة في يد ابن الرشيد .

هيأ عبد الرحمن وابنه الجمال استعداداً للرحيل ، ولغربة طويلة عبر الرمال. وكان كل شيء يبدو ضائعاً عندمالاحت في عرض البحر بارجة بريطانية ، القت مرساتها على مسافة قريبة من الميناء وسلطت مدافعها نحو المدينة ثم انزل قائد البارجة زورقاً الى البر ليعلن رسمياً ان مباركاً « صديق » لصاحب الجلالة ملك بريطانيا ، وان حكومة لندن اخذت على عاتقها حمايته ولا توافق على اخراجه من مدينته . ثم اوفد الضابط البحري رسله الى ابن الرشيد منذراً اياه بوجوب سحب قواته . وفي الوقت نفسه ابلغت الحكومة البريطانية السلطان العثماني ان قرارها قطعي لا يحتمل المناقشة او الجدل .

Marfat.com

ولم يسع الحكومة التركية الا الرضوخ للانذار ،فنصحت ابن الرشيد بالتعقل، فجلا عن المنطقة وهو يضطرم غيظاً ،وتنفس اهل الكويت الصعداء ونجا مبارك وكذلك السعوديون .

١٨

لم يدرك عبد العزيز مغزى تلك الاحداث في حينها الى ان اوضح له مبارك كل شيء . لقد اصبحت الكويت في الاونة الاخيرة احد المراكز الحساسة في الشرق الاوسط . وعلى هذه المساحة الصغيرة من الرمال التي تصارع عليها الاشوريون والبابليون والرومان والفرس والاتراك والعرب عبر القرون تتنافس وتتزاحم اليوم الدول الكبرى الحديثة وتوشك على الاصطدام : المانيا وبريطانيا وروسيا .

ففي نيسان ١٨٩٩ وقعت الحكومتان الالمانية والعثمانية اتفاقاً على مد خط حديدي طويل من برلين – ماراً باستانبول – الى بغداد ، وكان مقرراً له ان ينتهي في الكويت . وهو مشروع يثير قلق الانكليز من اجل محافظتهم على استعمار الهند ، ولان تلك الطريق البرية ما كانت تريد بريطانيا ان تكون بيد دولة منافسة .

ان بريطانيا تشرف على كل الطرق « البحرية » المؤديه الى الهند : طريق الرجاء الصالح حول القارة الافريقية ، والطريق الثانية التي تمر بقناة السويس وعدن عبر البحرين الابيض المتوسط والاحمر ، وعبر المحيط الهندي . وكان يفلت من يدها امتلاك الطريق البرية المارة في اراضي المملكة العثمانية ، تلك الطريق التي كانت مقررة ان تجعلها تحت رقابتها عاجلا او آجلاً .

ووضعت روسيا في الوقت نفسه مشروعاً لمد خط حديدي اخر يبدأ من

Marfat.com

مدينة باكو ، فاصفهان ، ثم يعبر إيران حتى يصل الى الخليج العربي ، ولم تكن لحكومة القيصر الطامعة في المنطقة اي رغبة في رؤية الالمان او الانكليز يتمركزون على الخليج .

فالمخطط الألماني كان يتّجه من الشمال صوب الغرب، والمخطط الروسي من الشمال صوب الجنوب . واما المخطط البريطاني فلا ينطلق من انكلترة بل من الهند ، من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، عبر المحيط الهندي وخليج عمان . وهكذا فالمخططات كلها ، على تباينهـــا ، كانت تلتقي عند نقطة واحدة هي الكويت .

ومن هنا كان مصدر الاهمية التي حظيت بهـا فجأة تلك البقعة مـن العالم . وكانت بريطانيـا تراقب باهتمام ما يدور على الساحل الغربي من الخليج العربي وتتفاهم ، بمختلف الوسائل ، مع الامراء الصغار الذين يحكمون المنطقة ، تحسباً للازمة المتوقعة التي نشبت في العام ١٩٠١

كان محمد امير الكويت يحكم المدينة لحساب الاتراك حلفاء الالمـــان . وكان الابقاء عليه يعني ترك الباب مفتوحاً امام المطامح الجرمانية، لذلك عزم الانكليز على التخلص منه واستبداله بأخيه مبارك المتقاعد سراً للعمل لحساب المصالح البريطانية منذ كان في الهند وتعرف فيها على عملاء الاستخبارات الهندية ، فعينت له مرتباً ضخماً ثمناً « للخدمات » التي سيكون في وسعه تأديتها فيما بعـــد .

وقد رتب العملاء بانفسهم ، بكل دراية وعناية ، عملية اغتيال الامير محمد وشجعوا مباركاً الذي حل محله على مقاومة ابن الرشيد ووعدوه بالمساعدة المادية والعسكرية المطلقة، فاندفع الى المغامرة مليئاً بالتفاؤل رغم ضآلة استعداده الحربي ، واثقاً من النصر ومطمئناً الى ان الانكليز لن يدعوه فريسة لابن الرشيد فتضيع عليهم الفائدة المتوخاة من ازالة الامير السابق محمد .

Marfat.com

ولكن الأمور لم تجر ، بالضبط ، كما توقعها مبارك . فقد ظن الانكليز انه سيصمد امـــام ابن الرشيد بفضل الاموال التي اغدقوها عليه والمتطوعين الذين جندهم من مختلف القبائل المجاورة . ولم يكن في ودهم ابدا ان يتدخلوا بصورة مباشرة ، ولا ان يكشفوا الاهمية التي يعلقونهـا على منطقة الخليج العربي . لذلك فوجئوا ، بل انزعجوا ، لهزيمة مبارك ، وترددوا كثيراً في كشف اوراقهم امـام القنصليات والبعثات الاوربية الاخرى . فلما لم يجدوا مناصاً من التدخل قرروا القيام بتظاهرتهم البحرية لمنع ابن الرشيد من الاستيلاء على المدينة .

وكانت تظاهرة هامة اوصدت باب الكويت ، بعنف ، في وجه ابن الرشيد والاتراك والالمان، وأرغمت هؤلاء على وقف العمل في الخط الحديدي، وحرمتهم من اي منفذ على البحر . واكتفى الانكليز بهذا القدر من التدخل تجنباً لاثارة ازمة عامة فانسحبوا من الخليج متظاهرين بعدم الاهتمام بمبارك الذي ادى عجزه العسكري الى فتور البريطانيين .

واثار هذا التحول في الموقف دهشة عبد العزيز وحمله على كثير من التفكير : فيمكن اذن، ان يخسر الانسان جيشه، وان يسقط في ساحة المعركة مثخنا بالجراح ثم ينجو مع ذلك بأقل ما يمكن من الخسائر .

وتلك قدرة السياسة فهي ترغم الغالب على الانكفاء امام المغلوب ! ! فأي دور واسع تلعبه الدبلوماسية في تسيير شؤون العالم !

الا انه تبين ايضاً مدى ما يدور حيال البلاد العربية من مطـامع . فالدول الكبرى تتربص بالامبراطورية العثمانية ، مترقبة ساعة انهيارها لتتقاسم فيما بينها الاشلاء . لقد سمع هذه العبارة مراراً اثناء محادثات مبارك دون ان يعلق عليها اهمية خاصة . اما الآن فهو يفهم بوضوح ماذا تعني . « فأشلاء » الامبراطورية ليست شيئاً اخر سوى البلاد العربية ، وأي وهم يعيش فيه العرب اذ يحسبون ان محض طرد الاتراك سيحقق لهم الاستقلال !

Marfat.com

ادرك عبـــد العزيز ان الامور ليست بهذه البساطة . ان الدول الاوروبية تضرب النطاق حول « الرجل المريض » لتستولي على تركته، وتفرض سيطرتهـا بديلة لسيطرته .

وفهم عبد العزيز ان عليه ان يعمـل وسط ظروف دقيقة في سبيل الوصول الى الهدف الذي يسعى اليه : توحيد البلاد العربية وتحقيق استقلالهـــا . ان الاصطدام بهذه القوى الضخمة يجلب الدمار والهلاك . فالحكمة تقضي بالترقب والتريث ،والافادة من منازعاتها دون الاستسلام الى وعودها او قبول «حمايتها». فقد دلل الانكليز على انهم لا يقيمون وزنا لغير مصالحهم ، من خلال الاهمـــال الذي عاملوا به مباركاً ، بعد ان استخدموه لقطع الطريق على الاتراك .

وتعلم عبد العزيز ان القتال وحده لا يضمن النصر ، فـــلا بد من اللجوء الى الحيلة والمناورة وترصد الظروف المؤاتية ، كما اثبتت له الوقائع ان الوحـدة لن تتحقق الا بأرادة العرب وان لا بد لهم من رجل قوي يقودهم في طريق الوحدة أو يفرضها عليهم فرضاً .

١٩

ناهز عبد العزيز الحـــادية والعشرين ، « وكان ، كما يقول ارمسترونغ ، صنديداً مهيباً ، وعملاقاً فتياً ، يبلغ من الطول مترين وأربعـــة سنتيمرات ، وتعلو هامته على جميـع البدو في الصحراء . تنظر الى منكبيه القويين وحركاته الطلقة وخطواته الواسعة ، فتوحي اليك بالرجولة والنبل . تنم عيناه عن حدة مزاجه . وليس فيه صفة واحدة من صفات الضعة أو النقص . »

لقد نجا مبارك ولكن ابن الرشيد لم يهزم ، بل بقي يحتل نجداً بما في ذلك مدينة الرياض العاصمة ... وكان مجرد التفكير بذلك هو مصدر قلق لعبد العزيز الذي لا يعيش الا على امل استئناف المعركة ، بينما يحاول والده اقنـاعه بصرف النظر عنها الى الوقت المناسب .

Marfat.com

وكان الوالد يردد :

– الزمن لم ينضج لهذا بعد ، علينا ان نتذرع بالصبر ثم نهيء معاً حملة جديدة فيما بعد .

ولكن عبد العزيز لم يعد يطيق الانتظار . فها هو منذ سنوات سبع يروح ويجيء في شوارع الكويت ويهدر وقته في الاصغاء الى النجديين اللاجئين يحاول كل منهم ان يزيح التبعة عن نفسه ويلقيها على الاخرين . حتى « محاضرات » مبارك بدأت تضجره وتفقد طلاوتها واهميتها . ان الحياة التي يحياها ليست جديرة بسعودي . فعبد العزيز لم يخلق ليكون تاجراً او موظفاً ، بل هو رجل حرب وقتال ، وفي حاجة الى الحركة اياً كان الثمن ، لان الجمود الذي قادته اليه ظروف حياته يحطم اعصابه . فآفاق الكويت المحدودة تضيق بسعة طموحه ولا بد له من آفاق ارحب ، وياحبذا لو يتاح له ان ينطلق في الصحراء على متن مهر اصيل ، فالصحراء مليئة بالمناسبات السانحة لرجل من طرازه . كان واثقاً من النصر ، بمعونة الله ، ثقته بسعد نجمه واقتناعه بأن اهل نجد اذا تولى قيادتهم فسيهبون للسير وراءه وطرد ابن الرشيد من الرياض . غير انه لن يحقق شيئاً من هذا ما دام في عوز الى الرجال والسلاح والجمال والمال .

حاول عبد العزيز المرة تلو المرة حضّ مبارك على استئناف المعركة ضد ابن الرشيد فلم يلق اي تجاوب لان المغامرة الاخيرة الفاشلة جعلت مباركا اشد حذراً واقل رغبة في التورط بعملية جديدة قد تفقده نهائياً ثقة الانكليز .

ولكن ... هل يقنط عبد العزيز ؟ انه يواصل مساعيه بالحاح وعناد. ويطلب من مبارك ان يمكنه من تجربة حظه منفرداً ، حتى انتهى مبارك الى القبول تخلصاً من الحاحه فمنحه ثلاثين جملاً وثلاثين بندقية مع ذخيرتها ومئتي ريالاً ذهباً ، ورجا اليه الا يعود ثانية الى ازعاجه .

ولم يكن عبد العزيز يطمع في اكثر من ذلك ، فهو لاول مرة ، سيد نفسه

Marfat.com

يمتلك قوة وان كانت صغيرة ، ولكنها لا تأتمر بأمر احد سواه . فقرر ان يثبت لامير الكويت كيف انه يحسن استخدامها .

وبدون ان ينتظر رأي احد من اهله، بدأ عبد العزيز بوضع خطة لعملياته : سوف يستولي على قصر الرياض اولاً ، ثم يسيطر على المدينة . ويفرض بعد ذلك سلطانه على قبائل نجد ومنها يمضي في سبيل اهدافه الواسعة وبها يثبت اقدامه ويلفت اليه الانظار .

لقد ضاق ذرعاً بهذه الحياة القلقة، وكفاه ان يكون العوبة في يد الاحداث . وان يتطاير في مهب الريح كورقه ذاوية . وسيقبض ، بغض النظر عن الافضل والاسوأ ، على ناصية مصيره بكلتا يديه ويوجهه في الوجهة التي يختارها .

في خريف ١٩٠١ غادر عبد العزيز الكويت على رأس قبضة من الفدائيين وتوغل في الصحراء ، بينما تخلف شقيقاه تركي وخالد لحماية الاسرة .

وكانت بداية مغامرة كبرى .

٢٠

جهز عبد العزيز جيشه الصغير باقل ما يمكن من الضروريات حتى يوّفر لرجاله اعظم ما يمكن من الطاقة على الحركة والتنقل : غطاء مطوي تحت السرج، بندقية وذخيرة وكمية من التمر واللبن تكفي لثلاثة ايام .

شق طريقه وسط الكثبان وبدأ بشن سلسلة من الغارات الخاطفة على القوافل دون تحديد او تعيين ، فيغنم ما يغنم ويختفي سريعاً على رأس رجاله ، ليظهر في اليوم التالي في مكان يبعد ٥٠ او ٦٠ ميلا عن موقع الغارة الماضية مستفيداً من سرعة حركته وتنقله ليأمن شر المطاردة والملاحقة وليضرب ضربته حيث لا يتوقع احد ان يكون .

Marfat.com

ولما كان عبد العزيز قد اعتاد الاكتفاء بساعات قليلة من النوم ، فلم يجد صعوبة في امتطاء جواده طوال النهار ، وتولي الحراسة في الليل بينما يكون رفاقه نياماً . انه في ذروة انسجامه مع نفسه .

وغزا في احد الايام مضارب « العجمان » الذين ارادوا قتل والده خلال فرارهم من الرياض ، فغنم صندوقاً مليئاً بالذهب ، فتطاير الخبر في شتى الانحاء وتناقل البدو الروايات عن ثراء عبد العزيز وجوده، وعن سخائه حيال المحاربين الى جانبه ، فتهافت البدو من كل حدب وصوب ينضمون الى الجيش الصغير .

لم يكن عبد العزيز بالطبع ، قرصاناً ، ولا غازياً ، ولا كان هدفه الاثراء وجمع المال ، بل كان يرمي الى اثارة الحماسة والشعور في اهل نجد ، والى اثبات وجوده بين ظهرانيهم قبل ان يدعوهم للانضمام اليه .

غير ان القبائل النجدية لم تتحرك الآن ... فقد لبّت نداءه من قبل ،خلال هجوم مبارك الفاشل. وتعرضّت لانتقام فظيع،وليس في نية زعماء هذه القبائل ان يُشنقوا اليوم كما شنق من سبقهم على رؤوس المآذن .

وحلت بعد ذلك . اسابيع الفشل والبؤس ، وفقدت غزوات عبد العزيز عنصر المفاجأة الذي كانت تعتمد عليه ، فقد نشر ابن الرشيد حامياته في كل مكان ، وتطوع الكثيرون للتبليغ عن تحركات عبد العزيز في الوقت المناسب ، وتيقظت القبائل فلم تعد تؤخذ على حين غرة،وتبخرت الاموال ،وسقطت الجمال المرهقة فريسة المرض ، ونفدت الذخيرة ، وفر البدو المرتزقة بعد تقلص الغنائم،وارسل ابن الرشيد قوة صغيرة حسنة التجهيز لمطاردة عبد العزيزفلم تلق كبير عناء في اخراجه من نجد ، فأنكفا نحو الاحساء ليصطدم بقوة تركية خرجت لملاقاته فأرغمته على الانسحاب من المنطقة . ودفعه اليأس الى طلب

Marfat.com

الحماية من « العجمان » فامتنعوا ، لانهم لم ينسوا بعد انهم كانوا ضحية احدى غزواته ، فأنحدر عبد العزيز جنوباً بعد ان سدّت في وجهه كل السبل ، ولم يعد امامه سوى مخرج واحد رهيب : العودة الى الربع الخالي .

ان مجرد التفكير بالعودة الى تلك الصحراء الكبرى القاحلة التي اشرف فيها على الهلاك ، كان كافياً ليبعث القشعريرة في جسده ، غير انه لم يكن ثمة مجال للاختيار ، فاما الربع الخالي ، واما العودة الى الكويت مهزوماً مقهوراً ، فقرر والألم يعصر فؤاده ان يقود جماعته الى الربع الخالي ...

فلما وصل الى واحة « جبرين » على حدود الصحراء الكبرى ، وجد في انتظاره رسالة من والده يقول له فيها :

« يا بني ! اننا قلقون على مصيرك ... عد الى الكويت ،هذه نصيحتنا اليك ، فان الوقت لم يحن بعد للعمل . »

اخذ عبد العزيز علماً بهذه الرسالة. فجمع من بقي معه من الرجال ، وعرض عليهم الموقف ولم يخف عنهم انهم في وضع يائس وخاطبهم قائلاً :

ـ لايسعني ان اضمن لكم اية غنيمة ولا اي نصر ، بل لا استطيع ان اعدكم الا بسلسلة طويله من الجوع والحرمان . اما انا فقد قررت مواصلة المعركة وما من قوة في العالم يمكن ان تثنيني عن عزمي ،حتى ولو بقيت اقاتل وحيداً ، وحتى لو اقتصر انتصاري على الموت في ساحة القتال ... وانني سأفيد ، بمعونة الله ، من الظروف والفرص التي تهيؤها لي الصحراء . ولما كنت لا اريد ان ارغم احداً على اتباع خطواتي ، فأني اترك لكم حرية البقاء معي او العودة الى اهلكم .

وابدى معظم الرجال رغبتهم في النكوص والانسحاب . لقد تزعزعت ثقتهم وجزعوا امام الصورة القاتمة التي رسمها لهم .ولم يثبت الى جانب عبدالعزيز سوى اخيه محمد وابن عمه جلوي والثلاثين رجلاً الذي خرجوا معه من الكويت

Marfat.com

وعشرة رفاق اخرين قدموا من الرياض : خمسون رجلاً في مجموعهم بما في ذلك العبيد .

وانتضى عبد العزيز سيفه وقال لرفاقه : اقسموا على حد هذا السيف انكم ستظلون مخلصين لي مهما حدث .

ومر الرجال امام عبد العزيز واحداً بعد الآخر يرددون القسم .

وقال عبد العزيز :

– ها نحن الان جميعاً اخوان بالله يرتبط كل منا بالآخر ، برباط لا تنفصم عراه .

ثم توجه الى رسول والده الامام عبد الرحمن وخاطبه بقوله :

– عد من حيث اتيت واخبر والدي بما رأيت ... قل له انني لن اطيق بعد اليوم روءية بلادي خاضعة لنير ابن الرشيد ولا اسرتنا مشردة مطاردة يغمرها العار . سأغامر بكل ما املك من رصيد في وجه الموت ، ولن اعود الا منتصراً فالموت اقل مرارة من الهوان .

جمع عبد العزيز رجاله فأسرجوا الجمال وسارت القافلة على مهل صوب الجنوب الى ان توارت عن الانظار .

٢١

اسقط عبد العزيز من حسابه اية محاولة لمهاجمة الرياض هجوماً مكشوفاً بالنظر لضآلة عدد رجاله وقوة الحاميـــة الرشيدية التي تحتل في المدينة مختلف المواقع الحصينة . كان امله الوحيد يرتكز على عامل المفاجأة . ولهذا بات عليه ان يختفي ويتوارى الى ان يظنه ابن الرشيد ميتاً فيرخي قبضته ويسحب حامياته ودورياته من الصحراء ويطمئن الى انه اصبح آمنا .

Marfat.com

خمسون يوماً قضاها عبد العزيز وصحبه في اعماق الربع الخالي ، والاختبـاء في الصحراء عملية شاقة فكل شيء يفضح وجود الانسان : جذوة فيهـا بقية لهيب او ظل او اثر قدم .

ورجال عبد العزيز عاشوا حتى الان في غمرة القتال، منتشين برائحة البارود، يأكلون ما يغنمونه من ماشية العدو . اما اليوم فقد خفضت جرايتهم اليوميـة الى ضآلة تكاد ، او هي ، لاترد غائلة الجوع . يحرم عليهم الصيد حتي لا تفضح الطلقة وجودهم، ولايأكلون الطريدة الانيئـة حتى لا يكشف الدخان مكانهم، ويحظر عليهم الدنو من الآبار النادرة الا زحفاً على البطون وبعد هبوط الظـلام . وكانوا مرغمين على اختزان الماء في قربهم الجلدية طيلة ايام فينتن ويصبح أجاجا . وجابهتهم مشكلات اطعام الحيوانات في هذه الارض القاحلة . وكان عليهم ان يجترحوا في كل يوم معجزة لينقذوا الجمال من الموت جوعاً .

وبدأ رجال عبد العزيز يضيقون ذرعاً بهذه الحياة ، ويزدادون يأساً كلمـا امتدت اقامتهم في الربع الخالي .

« انها كانت اسوأحقبة في حياتي – كما صرح عبد العزيز فيما بعد – فقدالتحق بي اولئك الرجال ليقاتلوا . وكانت الحرب بالنسبة اليهم صناعة ولهوا ، فـلم يدركوا الحكمة في ان افرض عليهم العزلة والنفي ، ورأوا في انسحابنـا الى الصحراء عملاً عقيما ، فهم يريدون القتال او الرجوع الى نسائهم ، فحيـاة بغير نساء ولا قتال ، ليست في نظرهم جديرة بأن يحياهـا الانسان . ومـع ذلك فقد اضطررت الى منعهم من السفر لرؤية ذويهم ولو لمدة اربع وعشرين ساعة . فقد كنت اعلم انهم لن يكتموا السر وان اية كلمة ستفضح وجودنا وتكون لهـا عاقبتها الوخيمة . لقد علمتني المتاعب التي واجهتها في تلك الفترة ان حمل الرجال على الحرمان ونكران الذات اشد صعوبة من دفعهم الى ركوب الاخطار ! »

ويوماً بعد يوم ، كان على عبد العزيز ان يؤنب بعض الرجـال او يشدد من

Marfat.com

عزائمهم وان يذكرهم بقسمهم في « جبرين » :

– الم تقسموا على الولاء والثبات الى جانبي مهما حدث ؟ الم تتعهـدوا بالسير ورائي ولو الى الموت ؟

فيجيبون :

– نعم ... يا عبد العزيز . اننا دائماً على العهد ولكن هذا الذي نلقاه لأشد هولاً من الموت ...

وكان عبد العزيز يجعل من نفسه مثلاً في الصبر ويردد لهم الآيات والاحاديث التي تقوي معنوياتهم ، متحملاً من الارهاق النفسي مـــا هو فوق طاقة البشر ، بالاضافة الى الارهاق الجسدي ، اذ كان يؤدي الواجبـــات التي يؤدونها ويأكل مثلما يأكلون ثم يتولى الحراسة ليلا ساعات اطول مما يتولون .

وجاء شهر رمضان يضاعف الشدة ويزيد في العذاب،ولكن الرجال تحمـلوا ذلك بجلد وصبر ، وبايمان شحذ قوة ارادتهم وزاد في تصميمهم على تحدي القوى البشرية ، وبدأوا يشعرون بالفخر من قدرتهم على تحمل مـــا لا يطاق حتى اجتازوا تلك العتبة الغامضة من الشعور الانساني حيث يتساوى بعدها الممكن والمستحيل . ونحُلت اجسادهم واتسعت احداقهم بفعـل الجوع والحمى ولكنهم كفوا عن التبرم وانقطعت الشكوى .

وقال عبد العزيز فيما بعد :

– لو تقدمت – انذاك – نحو الجحيم وامرت رجالي بأن يلقوا بأنفسهم فيه ورائي ، لفعلوا ذلك مغتبطين وهم يطلقون صيحات الابتهاج .

Marfat.com

٢٢

في العشرين من رمضان ، بعد صلاة المغرب ، ابلغ عبد العزيز رجاله ان ايام المحنة قد انتهت واصدر اوامره بالاستعداد للمسير . فحزمت الجماعة امتعتها وسلكت طريق الشمال ، وعندما وصلت عند بئر « ابو جفان » توقفت قليلا حيث احتفلت بعيد الفطر ثم ادركت في الليلة التالية سلسلة الهضاب الواقعة على بعد حوالي عشرة كيلو مترات جنوبي الرياض .

وعندها ترك عبد العزيز الجمال في ذلك الموقع قرب بئر « ديل العشب » بعهدة عشرين من الرجال وقال لهم :

ـ لا تلحقوا بي الا متى دعوتكم ، وان لم تصلكم مني اشارة ما خلال اربع وعشرين ساعة ، فعودوا الى الكويت وقولوا لعبد الرحمن ان ابنك عبد العزيز قد مات .

وتقدم عبد العزيز بصحبة الرجال الاربعين الاخرين سيرا على الاقدام خلال واحات النخيل المترامية جنوب العاصمة النجدية الى مسافة عدة كيلومترات ولم تكن لديه اية خطة معينة ، وليس له حليف يعول عليه ، بل انه ترك الحكم للظروف يتصرف بوحيها وعلى ضوء تطورها . لقد اسلم امره الى الله ليهديه سواء السبيل .

توقف عبد العزيز ورجاله مرة اخرى في « الشمسية » حيث تنتهي واحات النخيل وتبدأ بساتين الرياض ، فقطعوا شجرة نخيل فقصوا فروعها واحتفظوا بالجذع . ودعا عبد العزيز ابن عمه جلوي وستة رجال لمرافقته ، وترك بقية الجماعة الصغيرة قرب خزان للمياه بأمرة اخيه محمد بعد ان اوضح لهم مهمتهم :

البقاء على اتصال بالمؤخرة وانتظار تعليماته « واذا لم يصلكم رسول من قبلي

Marfat.com

حتى ظهر الغد ، فانطلقوا بعيداً والتحقوا بالاخرين . لأن ذلك يعني اننا متنا جميعاً ولا حول ولا قوة الا بالله » .

وحمل عبد العزيز وابن جلوي والرجال الستة جذع النخلة على اكتافهم وتوغلوا في البساتين متسترين بالظلام ، وكانوا يتوقفون بين الفينة والفينة وراء دغل او في منحدر ، ليطمئنوا الى ان احدا لم يشعر بوجودهم . وهكذا وصلوا حتى قاعدة الاسوارقريباً من المدافن الواقعة على طريق مكة فهبطوا في حفرة وانصتوا : سمعوا كلباً ينبح من بعيد، ثم وقع خطوات الحراس يروحون ويغدون في اعالي الاسوار . انها ساعة تبديل الحراسة . واصغوا الى حارسين يتبادلان الحديث ، ويغيبان بعد ذلك في الظلام . ثم خيم الصمت على مختلف الارجاء وتم كل شي على ما يرام .

اسندوا جذع النخلة الى حافة السور ، واتخذوا منه سلماً تسلقوه واحداً بعد الآخر . ثم قفزوا فوق الحاجز الى الزقاق وراء السور .

انه منتصف كانون الثاني (يناير) والليل باردوالهواءقارص. لذلك لجأ اهل الرياض الى بيوتهم واحكموا اقفال النوافذ والابواب . وخبأ عبد العزيز ورجاله اسلحتهم تحت عباءتهم تفادياً لاية ضجة ، وتسللوا بمحاذاة الجدار حتى ادركوا اخر الزقاق المقفر وانتهوا الى بيت راع يدعى « جويسر » الذي يواجه بيت الحاكم .

طرق عبد العزيز باب المنزل طرقاً ناعماً فردت عليه امرأة من الداخل تسأل من الطارق ؟

فقال عبد العزيز بصوت منخفض :

– رجل من طرف الامير عجلان الى « جويسر » ابغي شراء بقرتين .

فصاحت المرأة :

Marfat.com

ـ امض في طريقك ... ان ابواب الشرفاء لاتطرق في مثل هذه الساعة من الليل .

ورد عبد العزيز :

ـ افتحي الباب فوراً يا امرأة والا شكوت « جويسرا » الى الحاكم فيعاقبه اشد العقاب .

ثم انتحى مع رفاقه جانب الحـــائط ، ومرت فترة صمت وسكون انشق بعدها الباب واطل منه بواب يحمل بيديه مصباحاً ، فأمسك اثنان من الرجـال بعنقه لمنعه من الصياح ودخل عبد العزيز ورجـــاله الستة المنزل واغلقوا الباب خلفهم بهدوء .

كان حامل المصباح خادماً قديماً لدى الامام عبد الرحمن واسرته ، فهمس ابن جلوي في اذنه ، وهو يشير الى اطول شخص بين الموجودين :

ـ انه عبه العزيز !

فقال الرجل منفعلاً :

ـ انه سيدنا ،وجثا على ركبتيه وهو يردد : كم اصبح كبيراً .

فأردف ابن جلوي :

ـ سيصبح اكبر من ذلك اذا قدمت له المساعدة .

ـ وماذا تبغون ؟

ـ معلومات عن الحاكم .

فقدم لهم الرجل مغتبطاً كل ما يريدون وقال :

ـ ينام الحاكم عجلان عادة في حصن«المصمك»زيادة في الحرص والاطمئنان . ويغادر الحصن بعد شروق الشمس بقليل فيتفقد الجياد التي تجلب له الى الساحة

Marfat.com

الكبيرة . ثم يمضي في نزهة على جواده او يتوجه الى منزله سيراً على الاقـدام . وهو في كلا الحالين يظل محاطاً بجمع من الحراس .

ولم يكن هنالك سوى بيتين يفصلان بين منزل « جويسر » ومنزل الحـاكم الذي لا تقوم عليه اية حراسة ما دام لا يبيت فيه .

صعد عبد العزيز ورفاقه الى سطح البناء ومضوا يزحفون على صدورهم حتى اجتازوا سطح المنزل الثاني ووصلوا الى البيت الملاصق لمنزل الحـاكم ، حيث وجدوا رجلا وامرأة نائمين فكموهما بسرعة وقيدوهما الى السرير .

اصبح بيت الحاكم في متناول ايديهم ولكنه كان يعلو السطح الذي بلغوه بطابق واحد ، فجعلوا من اكتافهم سلماً صعدوا عليه الواحد تلو الاخر ، فلمـا ادركوا سطح بيت الحاكم استلقوا ارضاً وظلوا فترة من الوقت حابسي الأنفاس لا يسمعون إلاضربات قلوبهم . ان احداً لم يشعر بوجودهم ، وكل شيء من حولهم هاديء ساكن . فخلعوا احذيتهم ووجوا المنزل حفاة وهبطوا الى الطابق الارضي فوجدوا فريقاً من الخدم فسجنوهم في قبو واحكموا اقفال الباب . وامر عبـد العزيز احد رجاله بحراسة السجناء ثم صعد مع رجاله الخمسة الى الطابق الثـاني واستدل على غرفة نوم الحاكم ، فأبقى رجـاله على الدرج وحشا بندقيته بهدوء ودخل الغرفة مع ابن جلوي فوجد شخصين نائمين في السرير : زوجة الحـاكم عجلان واختها .

انتصبت زوجة الحاكم في هلع ، فاطبق عبد العزيز بيده على فمها ، في حين كم ابن جلوي المرأة الثانية . وكانت زوجة الحـاكم امرأة من الرياض تدعى « مطلبة » وهي ابنة رجل عمل في خدمة الامام عبد الرحمن ايضاً ويعرفها عبد العزيز حق المعرفة ، فقال لها :

– لا تتحركي يا « مطلبة » والا قتلتك ، الا تخجلين من الزواج بواحـد من هؤلاء الرشيديين .

Marfat.com

فقالت المرأة :

– لقد تزوجته بعد رحيلكم ولم يكن في وسعي ان ارفض . ولكن مـاذا جئت تفعل هنا ؟

فأجابها عبد العزيز بهدوء :

– جئت ابغي زوجك الحاكم .

قالت :

– عجلان في الحصن ومعه ٢٤ رجلا على الأقل .

فسألها عبد العزيز متمالك الاعصاب :

– متى يرجع الى البيت ؟

– بعد ساعة من الفجر .

– عليك اذن بالتزام الهدوء وهذا كل ما نبغيه منك .

ثم سجنها عبد العزيز مع اختها في الطابق الارضي حيث احتجز الخدم .

كان قد انصرم الليل الا اقله ولم يبق على شروق الشمس سوى اربع ساعات فقام عبد العزيز بجولة تفقد خلالها المكان . البناء يتألف من عدة غرف ، ومـن قاعة امامية فسيحة تطل على الساحة العامة من مقصورة في زاويتها الامـامية ، مقصورة مخصصة للنساء ذات نوافذ خشبية مقفـــلة ، ولكن بها فتحات صغيرة تمكن من رؤية ما يجري في الخارج .

وتطلع عبد العزيز من خصاص المقصورة فوجد الساحة غـارقة في السكون والظلام ورأى شبح قصر « المصمك » الضخم عند الطرف الآخر من الساحة .

ووضع عبد العزيز خطته للهجوم ،فقرر الانقضاض على الحاكم لدى خروجه

Marfat.com

من القلعة واستغلال الاضطراب الذي سوف تحدثه المفاجـــأة لاقتحام الحصن والاستيلاء عليه . وبعث برجلين لاستدعاء شقيقه محمـــد ورفاقه الذين كانوا ينتظرون اشارة منه عند واحة النخيل ، فلما وصل المدد الصغير وضع عبـــد العزيز رجلين للحراسة والمراقبة من وراء الشبابيك وطلب اليهما تحـــذيره لدى اول بادرة .

وامضى الرجال بقية الليل في الاصغاء الى آيات من القرآن يرتلهـــا احدهم بصوت منخفض قاموا بعدها الى تأدية صلاة الصبح ، فلما دنا الصباح اتاهم الخادم الامين بالقهوة والطعام فأكلوا بشهية ، ثم توجهوا نحو القبلة فأدوا صلاة الفجر ، وتفحصوا بعد ذلك اسلحتهم وترقبوا ما يخبئه لهم النهار من مفاجآت .

٢٣

كانت خيوط الشمس الاولى تشق استار الظلام ، عندما اعطى احد الرجلين اشارة التحذير ،فتطلع عبد العزيز من خـلال النافذه فرأى في الساحة عدداً من العبيد يسوقون جياد الحاكم . ان حاميـة القلعة بدأت تستيقظ وكانت اوامر عبد العزيز لرجاله واضحة :

اربعة يترصدون خلف الشبابيك لاطلاق النـــار على رجال عجلان الذين يحرسون مدخل الحصن ، عندما يعدو عبد العزيز مجتازاً الساحة . ومـــا على الباقين الا ان يتبعوه بأسرع ما يمكن .

وفتح اخيراً احد مصراعي باب القلعة الكبير وظهر الحاكم عجلان على رأس السلم محاطاً بحراسه ، ثم نزل متمهلاً نحو الساحة لتفقد الجيـــاد ، وحلت اللحظة الحاسمة .

هتف عبد العزيز برجاله وهبط درجـــات السلم قفزاً من الطابق الاول الى

Marfat.com

الطابق الارضي ، وانطلق من الباب الخارجي نحو الساحة وراح يعـــدو بكل قواه حتى ادرك « عجـــلانا » فانقض عليه بسرعة البرق الخاطف . وفي خلال ذلك كانت طلقات الرجال الاربعة المتحصنين في منزل الحاكم قد بدأت تنهمر على الحراس .

بادر عجلان الى امتشاق سيفه وحاول ضرب عبـــد العزيز فتلقى الضربة بعنق بندقيتة ثم طوق الحاكم بيديه ورفعه عن الارض،ولكن « عجـلانا » تمكن من ان يشبك بقدمه ساقي عبد العزيز ، فأفقده توازنه وسقط الرجـلان ارضاً متشابكين يتمرغان في التراب . ولم يدرك الحراس في بادىء الامر ، ماذا حدث بالضبط ، فتبعثروا يتراكضون ينشدون الامان داخل الحصن، وصرع ابن جلوي احدهم فيما كان يهم بتسديد سيفه الى ظهر عبد العزيز ،واخذ عجلان يقاوم وقـد فقد السيطرة على نفسه تحت وطأة غريمه،فلما اتيح له التملص من بين يديه اندفع نحو الباب وهو يصيح :« الى السلاح » فالتقط عبد العزيز بندقيته ورماه بطلق اصابه في ذراعه وارغمه على القـــاء سيفه ووثب عليه مرة اخرى وامسك بساقيه في اللحظة التي اوشك فيها ان يبلغ باب الحصن .

واندفع رجال عبد العزيز خلال ذلك كتلة واحـــدة نحو الحصن واختلط الحابل بالنابل على درجات السلم : مجموعة متشابكة من الرجال يتذابحون بضربات السيوف او طعنات الخنـــاجر ، فيما كان بعض جنود الحامية يقذفون المهاجمين بالحجارة من اعلى السور وبعضهم الاخر يطلق النيران الغزيرة من المرامي.

تمكن عجلان من تحرير احد ساقيه ، فلبط عبد العزيز لبطة قوية اصابته في اسفل بطنه ، فترنح من الالم وتخلى عن غريمه الذي جذبه بعض الجنود وادخلوه الى الحصن فاختفى . وحاول عدد من الحراس اغلاق البـــاب خلفه ولكن ابن جلوي وثلاثة من الرجال اندفعوا نحوهم فامسكوا بمصراع الباب وحالوا دون اغلاقه ودخلوا الى القلعة ، ثم تبعهم عبد العزيز بعد استرداد وعيه ، فعـثر على

Marfat.com

الحاكم عجلان يعدو هاربا في باحة الحصن مخلفاً وراءه خيطاً من الدمـاء . فهرع عبد العزيز وابن جلوي في اعقـابه ، فادركاه وهو يصعد درج المسجد للاحتماء فيه ، وبادره ابن جلوي بضربة قاصمة من سيفه ، فاطلق صرخة واحدة وهوى متدحرجاً على الارض .

ولم يضع عبد العزيز وابن جلوي اية لحظة بل رجعا مسرعين لمؤازرة رجالهما الذين كانوا بأمس الحاجة اليهما ، بعد ان قتل منهم اثنان واصيب اربعـة بجراح خطرة ، وهم يقاتلون واحداً ضد عشرة رجال ، قتـالا ضاريا زحزح حامية القلعة عن مواقعها ، ثم اصبح اشد ضراوة بوصول عبد العزيز وابن جلوي ، حتى تمكنوا من قتل او جرح عدد من الجنود الرشيديين بلغ النصف ، والقوا بهم من على الاسوار . ثم حاصروا بقية الجنود في احد الاروقة المسدودة فأرغموهم عـلى الاستسلام .

ولما انتهت المعركة بعث عبد العزيز بالمنادين يعلنون على الملأ استيلاءه عـلى الحصن ومصرع عجلان ، فلما وعى اهل الرياض النبأ ، تراكضوا جميعـاً الى اسلحتهم واستولوا على المواقع الاخرى المحصنة في المدينة وابادوا مـا تبقى من حامية ابن الرشيد ورحبوا بالمنتصر أحر ترحيب .

وعند الظهر كان عبد العزيز سيد الرياض .

٢٤

اوفد عبد العزيز رسولاً يحمل البشرى الى والده في الكويت ويقول له :

— لقد استعدت عاصمتنا على رأس عشرين رجلا ، فتعال سريعاً لأن الشعب بأنتظارك .

غادر الامام عبـد الرحمن الكويت ، فلقي في منتصف الطريق الى الرياض

Marfat.com

كوكبة من الفرسان ارسلهم عبد العزيز لمرافقته . ولمـــا وصل موكب عبد الرحمن بعد ايام الى عاصمة نجد احتشد سكان الرياض على جانبي الطريق وهتفوا طويلا للامام .

انها اول مرة يطأ فيها عبد الرحمن تراب الرياض منذ العـــام ١٨٩٠ . أحد عشر عاماً مرت منذ رحيله عنها ، وبدأ الآن يشعر بالتعب والارهاق . لقـــد اضنته حياة المنفى واهرمته قبل الاوان ، فدعا العلماء وائمـــة الشرع واشراف المدينة الى اجتماع في القصر اوضح لهم فيه نواياه :

– ارى انكم بحاجة الى رجل اشد حيوية وانضر شباباً ليحكم بينكم ، وقـد عرفتم ولدي عبد العزيز وخبرتموه وقدرتم ما يتمتع به من مزايا وصفات خارقة لذلك قررت التنازل له عن كل سلطاتي السياسية والعسكرية مكتفياً بمهـــامي الدينية مكرساً بقية عمري للصلاة وعبادة الله .

فانحنى العلماء والشيوخ أمام ارادة الامام .

وجرى الاحتفال في اليوم الثاني بأنتقال السلطة الى عبـد العزيز في الساحة العامة بحضور جموع السكان . وقدم عبد الرحمن لابنه سيف عمـه الأكبر سعود الكبير الذي يتوارثه السعوديون جيلا بعد جيل ابتداء من الامـــام محمد بن عبد الوهاب الذي ورثه عن اجداده التميميين ، فقدمه الى محمد بن سعود ، وانتقـل منه الى ولده عبد العزيز ومنه الى سعود الكبير .

جثا عبد العزيز امام والده فقبل نصل السيف ثم نهض فأمسك « بالربان » ولوح به في الفضاء الى الجهات الاربع ، واقسم بالله العظيم عـلى ان اي عدو لن يجتاز عتبة الرياض ما دام هذا السيف في قبضته .

وأصبح عبد العزيز امير الرياض .

Marfat.com

٢٥

انتفض ابن الرشيد غيظاً وهو يتلقى انباء الضربة الجريئة التي ولت عبد العزيز على الرياض وقال :

– لقد وضع نفسه في الفخ .

ولكن عبد العزيز لم يهدأ وكان يعلم ان بينه وبين كسب الجولة ، جهداً شاقاً طويلا ، وادرك بحس ستراتيجي مدهش في شاب من عمره انه سيمنى بالهزيمة اذا بقي مرابطاً في المدينة وان عليه ان يغادرها بأسرع ما يمكن ليمتلك حرية الحركة والتنقل . فتوجه على رأس نخبة من خيرة فرسان الرياض الى « الحوطة » جنوبي نجد ، وتمركز في اقليم « الافلاج » بين قبائل « الدواسر » التي تنتمي اليها والدته . وراح من قاعدته هذه يشن سلسلة متواصلة من الغارات على القوافل الرشيدية ، بينما بقي الامام عبد الرحمن في المدينة فرمم اسوارها ، واتخذ الاحتياطات الضرورية لجعل الرياض قادرة على تحمل حصار طويل الامد .

شرع ابن الرشيد في مطاردة عبد العزيز . واتخذ من « الدلم » ، حيث هزم ابراهيم باشا الامير فيصلا ، مقراً لقيادته ، ففاجأه عبد العزيز بهجوم صاعق وهزمه في الواحة الممتدة غربي المدينة ورده نحو الشمال . فانضمت منطقة « الافلاج » الى عبد العزيز واقرت له بالسيادة .

ولكن ابن الرشيد عاد فزحف في حملة ثانية متجهاً نحو الكويت متوخياً استدراج غريمه الى خارج المناطق التي يتمتع فيها بتأييد السكان ويحظى بكل مساعدة منهم لعملياته الحربية . ودب الذعر في قلب مبارك فطلب النجدة من عبد العزيز . . . عبد العزيز نفسه الذي كان منحه بالأمس ثلاثين جملا اجرب وطلب اليه ألا يعود بعدها لازعاجه .

Marfat.com

ولم يتردد امير الرياض في نجـدة صديقه القديم وسارع على رأس قواته لادراك ابن الرشيد قبل ان يدرك « الكويت » .

ولكن حملة ابن الرشيد لم تكن سوى خدعة حربية ، فلمـــا تأكد من انها انطلت على عبد العزيز وانه اصبح بعيداً عن عاصمته ، استدار هو على اعقـــابه وطوق الرياض ، فصمدت المدينة للحصار بفضل ما عززه عبد الرحمن من وسائل الدفاع عنها .

وادرك عبد العزيز انها خدعة اخذ بها . لقد كيّف خططه الحربية حتى الآن بخطط ابن الرشيد ، مما افقده الكثير من القدرة والوسيلة ، فقرر ان يتحول الى المبادرة ، فلم يرتد الى الرياض لأنقاذها من الحصار كما كان منتظراً بـل مشى نحو الغرب الى ديار الشمريين ، ومر شمالي العاصمة قاطعاً بذلك طريق الانسحاب على العدو وشرع في تدمير القرى والمضارب الشمرية التي يؤلف ابناؤها القسم الاكبر من قوات ابن الرشيد . فلما علم الجنود وهم يحاصرون الرياض بأن عبـــد العزيز يحرق قراهم ويتلف محاصيلهم ومواشيهم انسحبوا بسرعة عائدين الى بـلادهم . وفشل ابن الرشيد مع ما بذل من محاولات في كبح جماح المنسحبين ، حتى تبخر جيشه في خلال ايام ولم يستطع غير تغطية انسحابه واللجوء الى « حائل » .

واستغل عبد العزيز الى اقصى حد ما حققه من انتصار فاحتل على التوالي ، مدينة « شقرا » والبلدان المجاورة وطهرهـــا من حاميات ابن الرشيد واصبح يسيطر بعد اسابيع على منطقة تمتد الى مسافة ثمانين كيلومترا شمالي الرياض .

استمر القتال سجالا بين عبـــد العزيز وابن الرشيد طوال العامين ١٩٠٣ و ١٩٠٤ ، دون ان يتمكن احدهما من الوصول الى نتيجة حاسمة ، حتى اتيح لعبد العزيز في العام ١٩٠٤ ان يوجه الى عدوه ضربة كبرى .

Marfat.com

تقع منطقة « القصيم » وهي اخصب اراضي نجد ، بين الرياض وبـــلاد شمر وابرز مدنها « بريدة » و « عنيزة » ، وفي كل منها حامية لابن الرشيد . ولكن الاهالي كانوا ساخطين عليه وناقمين . وفي بداية موسم الامطار الذي يسجل عادة بدء توقف العمليات الحربيـــة ، تغيب ابن الرشيد لبعض الوقت عن المنطقة ، فأغتنمها عبد العزيز فرصة للاغارة على قلب «القصيم » فاستولى على «عنيزة » على حين غرة وقتل حاكمها ، ثم حاصر « بريدة » المنيعة . فأرسل ابن الرشيد فرقة من المحاربين الشمريين بقيادة ابن عمه عبيد لانقاذ المدينة . وكان عبيـد هو نفسه الذي قتل الامير محمداً شقيق الامـــام عبد الرحمن وعم عبد العزيز في موقعة « البكرية » ومزق جيشه واخذه اسيراً .

وكان عبد العزيز يمتطي صهوة جمله عند ما جيء بعبيد اليه .

فقال له وهو على الجمل :

— انت هو اذن عبيد ، الذي قتل عمي محمداً .

وقفز عبد العزيز ارضاً واستل سيفه من غمده وبرقت عيناه بالغضب ، والتمع السيف في يد عبد العزيز وهو يهوي به بسرعة البرق الخاطف فمزق احشاء عبيد وجندله متخبطاً بدمائه فوق الرمال .

واستسلمت « بريدة » في اليوم نفسه واعترف القصيم كله ، حتى حدود بلاد شمر ، بسيادة عبد العزيز ، وتـــلاه « الخرج » ، فضمهما الى « الافلاج » . فشمل سلطان عبد العزيز معظم مملكة نجد السالفة .

ادى مقتل عبيد المفجع ، بعد اربعة عشر عاماً من مصرع سالم ، الى تفجير

Marfat.com

غضب ابن الرشيد : « ان السعوديين هؤلاء حقاً من طينة واحـــدة ولن تعرف الجزيرة العربية الامان والاطمئنان الا بالقضاء عليهم وابادتهم . »

وتطلع ابن الرشيد الى الاستانة يطلب المساعدة والعون من الأتراك ... او ليس حليفهم وموضع ثقتهم ؟ ودرست الحكومة التركية طلبه بعناية، فرأت ان من الضروري وضع حد لمطامح ذلك الشاب السعودي الذي اصبحت جرأته ومطامعه وتعطشه الى الفتح مثار قلق. فأصدرت وزارة الحربية التركية اوامرها الى والي بغداد ليضع حداً للثائر المتمرد ويقبض عليه حياً او ميتاً ويقطع رأسه ويرسله الى الاستانة .

وهكذا ... تمركزت في مطلع حزيران ١٩٠٤ ثمـــاني كتائب تركية من الجنود المشاة تؤازرها بطاريتان من المدفعية المتحركة في « سامراء » على ضفاف دجلة حيث كان ابن الرشيد قد استدعى جميع القادرين على حمـــل السلاح من المحاربين الشمريين . واتجهت هـــذه القوة الكبيرة في اواخر حزيران جنوباً وتقدمت على مراحل صغيرة نحو حدود « القصيم » .

كانت سرية من الجنود تكفي قبل سنوات ، لحسم الموقف مع عبد العزيز ، اما اليوم ، فقد دلت ضخامة الوسائل التي استخدمها الاتراك ، بصورة قاطعة ، على مدى تعاظم قوته ، وعلى ان مكانته قد تخطت النطاق المحلي واثارت اهتمام الوزراء العثمانيين . كل ذلك كان مدعاة للاعتزاز . وكان في الوقت نفسه مصدر خطر كبير ، فحرص عبد العزيز على الا يخطيء في تقـــدير حرج الموقف : فالتهرب من المعركة يعني ضياع الهيبة والانحدار الى مستوى ادنى مما كان عليه قبل الاستيلاء على الرياض ، كما ان لمجابهة العدو محاذيرها الهائلة نظراً للتفـــاوت الكبير في القوى . ووازن عبد العزيز بين الامور طويلا ، ثم قرر خوض المعركة وبادر فور اتخاذ قراره هذا الى العمل بكل ما يمد البأس من اقدام فعبأ كل قواته في جوار قرية « البكرية » واستعد للمعركة الحاسمة التي بدأت فجر الخامس عشر

Marfat.com

من تموز ١٩٠٤ ، وهو يوم لم تكد تشرق شمسه حتى اصبح قائظاً لاهباً . وبدأ عبد العزيز الهجوم لتغطية ضعفه بالنسبة الى قوة العدو ، فألقى بكل ثقله على الجناحين حيث تجمع فرسان « شمر » فتمكن من اختراق صفوفهم مرات اربعاً متتالية وارغمهم على التشتت والتفرق .

ثم اختلف الامر عندما اراد التوغل في صفوف المشاة الاتراك اذ تكسرت محاولته المرة تلو المرة امام مربع كثيف من الرجال والفولاذ ثابت كالطود لا يتزعزع كان بمثابة نقطة التقاء لاعادة تجمع البدو الشمريين .

كانت خطة عبد العزيز سيئة ، وما تبين خطأه الابعد فوات الأوان. فلما حل العصر وبدأت علائم الارهاق تبدو على رجاله فتحت المدفعية التركية نيرانها وامطرت السعوديين بوابل من القنابل فأثار دويها هلع السعوديين الذين لم يألفوا ذلك النوع من الاسلحة من قبل ، وشاء عبد العزيز ان يثبت لهم ان هذه المتفجرات تحدث من الضجة اكثر مما تؤذي فترجل عن جواده واندفع وسط سيل من الطلقات لمهاجمة العدو مهيباً بالرجال ان يسيروا على غراره. وفجأة... انفجرت قنبلة امامه على مسافة امتار عدة فأصابت يده اليسرى ، واصابته بجرح بليغ في ركبته ، فنزفت دماؤه غزيرة ونقل فاقد الوعي الى خيمته .

ولما افتقد المحاربون السعوديون قائدهم فلم يجدوه ، ظنوه قد مات واخذ بعضهم يلوذ بالفرار على غير هدى ، فلما استرد عبد العزيز وعيه ادرك انه سيخسر المعركة اذا لم يلتحق فوراً برجاله ، فضمدت جراحه على عجل واستوى على جواده ، رغم الآلام المبرحه التي كان يعانيها ، وظهر مرة اخرى وسط المعمعة فأثارظهوره غير المنتظر حماسة المقاتلين ورد اليهم معنوياتهم ومنع تحول الانسحاب الى تشتت وانهيار . ونجح، متغلباً على آلامه ، في وقف موجة الذعر والهلع ورد الفارين الى صفوفهم واعادة شيء من النظام الى تشكيلاته المضعضعة . ولكنه لم يستطيع تفادي انحسار جيشه نحو الجنوب .

Marfat.com

لقد هزم ابن عبـد الرحمن . ولكن العثمانيين ، لحسن حظه ، لم يحسنوا استثمار النصر الذي حققوه .ولو كان الامر بيد ابن الرشيـد ، الذي خسر الفاً من جنوده ، لما تردد في مطاردة عدوه والقضاء عليـه . ولكن المشاة الاتراك كانوا متأثرين جداً بحرارة الشمس ، فتخلوا عن مطاردة الفريسة وانصرفوا الى قرى «القصيم» لاعادة النظام اليها ... اي بالاحرى لنهبها .

٢٨

مر عبد العزيز بفترة من الضيق الشديد ، حتى لكأن كل شيء تحالف ضده . واخذت الحمى تنتابه من جراء جرحه الذي لم يعالج كماينبغي، وتبخر جيشه . وتهرب رؤساء القبائل الذين طلب منهم المساعدة والعون . وكان الاتراك ، في خلال ذلك ، يتجمعون لتوجيه الضربة القاضية اليه .

لعل الحظ قد تخلى عن عبد العزيز بقسوة تدعو الى اليأس... الى يأس اي انسان آخر غير عبد العزيز فهو «فهد الصحراء» كما لقبه اصدقاؤه، والمتاعب اية كانت وطأتها لن تنال من همته وارادته ، بل ستشحذهمـــا . لقد شب على الاخطار وواجهته ظروف يائسة فلم تفقده الثقة بنفسه ولا بسعد نجمه ، ولم تزعزع قناعته بان الحظ لابد ان يقف ، ولو في اللحظة الاخيرة ، الى جانبه .

شرع عبد العزيز في العمل سريعاً وأبى ان يستسلم للآلام التي كان يعانيهـا من جراء جروحه . وبحث عن الحلفاء في كل مكان ، وبعث بالرسل الى « مطير » و « عتيبة » و « والدواسر » والى « عنيزة » في اقصى الشمال .

ولما لم يفلح الرسل في تحقيق المهمة لافتقارهم الى قوة الاقناع الكافيـة ، تولى الامر بنفسه وطاف بالقرى يلتمس العون من رؤساء العشائر لرد المغير ، وهو يردد على مسامعهم :

Marfat.com

– ان الحرب التي اخوضها ، هي حربكم انتم ايضاً ، فالواجب يقضي بأن تساعدوني على قهر ابن الرشيد ، وليس في وسعكم الوقوف على الحيـــاد مترقبين نتيجة المعركة لان ابن الرشيد قد ارتكب جريمة لا تغتفر بأدخـــال الاتراك الى اواسط شبه الجزيرة العربية ، فاذا اتيح لهم تثبيت اقدامهم فقـد مضى وانتهى عهدكم بالحرية والاستقلال . هبوا الى سلاحكم وقاتلوا معي .

ولكن رؤساء القبائل ما كانوا ممن يسهل اقناعهم ، فلقد كانوا حذرين مشككين يرددون في قرارة نفوسهم : ان مؤازرة السعوديين تحمل في طياتها خطر الوقوع تحت سيطرتهم . فالوحدة العربية التي ينادي بها عبد العزيز شيء جميل ، ولكن لفوضى الصحراء جاذبيتها وسحرها ... فـــلم لا ندع السعوديين والرشيديين يتصارعون ويأكل بعضهم بعضاً ، حتى اذا سقطوا اعياء جئنا نحن فسلخنا جلود الفريقين .

وخاطبهم عبد العزيز بمزيد من الحماسة وقوة الحجة ، ولم يترك سبيـــلا الى ذلك الا سلكه ، حتى بـــدا لهم وكأنه بطل الاستقلال العربي الذي يملك ثقة بالنفس لا تلين ولا تتزعزع . وانتهى بهم الى الاخذ بوجهة نظره ، بعد موازنة طويلة بين السلب والايجاب ، فوعدوه بتقديم ما في وسعهم من المعونة له .

وهكذا تنقل امير الرياض الشاب من بلد الى بلد ، على عـكازه وهو يعرج . موضحاً للسكان ان نزاعه مع ابن الرشيد ليس نزاعاً على سلطة او عرش ، ولكنه قضية حياة او موت بالنسبة الى جميع قبائل الصحراء . وكان يتكلم بأندفاع اشد اثارة من الخطب الحماسية ، وبشجاعة أخذ بها السكان فوافقوا على استئناف المعركة ، فعبأ عبد العزيز كل من كان في عمر يمكنه من حمل البندقية ، والهب مشاعر القبائل ، وصادر كل دابة تصلح للنقل . وانقض على الاتراك وابن الرشيد فجأة على رأس جيش جديد . ودارت الملحمة هذه المرة شمـــالي الرياض قرب قرية « شنانة » .

Marfat.com

وتخلى عبد العزيز عن خطته التي اتبعها في السنة الماضية ، فقرر مستفيداً من التجـــارب ان يترك الشمريين وشأنهم وان يركز هجومه على المدفعية التركية مباشرة فيقضي على مركز تجمع العدو ورجـاله في ذروة قوتهم . وكانت تلك الخطة هي الفضلى .

وهجم الفرسان السعوديون بحماسة مضطرمة على الكتائب التركية حتى التوى خط دفاعها تحت وطأة الصدمة وتزعزع . واخترق عبد العزيز ورجـاله جبهة العـــدو من المقدمة الى المؤخرة ثم استداروا يعاودون الهجوم ، فمزقوا التشكيلات التركية التي ارتجت وفقدت مواطيء اقدامها ، فأركن الشمريون الى الفرار .

كان المشاة الأتراك جنوداً ممتازين فتمكنوا من اعـادة تنظيم صفوفهم في شكل مربع ، وكسروا الطوق الذي ضربه السعوديون حولهم ، وقاموا بعملية انسحاب تكررت في اليومين التاليين . ثم تراجـع الاتراك مرة اخرى في اليوم الثالث لتفادي الحصار عند هبوط الظلام ، فضلوا الطريق وراحوا يهيمون على وجوههم دون هدى بعيدين عن خط الابار الى ان نفدت مؤنتهم من الميـــاه ، فاستبد بهم الظمأ وتشققت شفاههم وايديهم والتهبت عيونهم بفعل الحرارة والغبار ، وفقد كثيرون احذيتهم فمشوا حفـــاة على الرمل الملتهب وتحولت اقدامهم الى كتل حمراء . وما هي الا ايام حتى تحولت الكتائب العثمانية الى طابور من الفارين المترنحين يشقون طريقهم وسط الكثبان .

واستمر ذلك النزوح طيلة ايام ستة ، لم يكف الفرسان السعوديون خلالهـا عن مطاردة المنهزمين واصطيـــاد المتخلفين منهم عن الطابور فيجردونهم من اسلحتهم ويتوارون وسط عاصفة من الغبار . وساهمت نساء المحاربين «الدواسر» في قتل مئات من الجنود الأتراك الضالين ، فلم ينج من المذبحة سوى عشرين جندياً تمكنوا من الوصول الى البصرة وهم على اخر رمق من الحياة .

Marfat.com

٢٩

لم يكن بوسع الأتراك ان يصبروا على هذه الهزيمه الشنعاء ، او يسكتوا عن كارثه « شنانة » التي تقوض هيبتهم وسمعتهم في انحاء الجزيرة العربية كلها . فأنب السلطان عبد الحميد والي بغداد على سوء تقديره لقوة خصمه وأمره بتعبئة فرق عديدة لاستئناف المعركة . واما المحيطون بعبد العزيز من قادة الحركة الوهابية فكانوا ، في غمرة النصر ونشوته ، يتحدثون عن سحق الأتراك والزحف الى الاستانة وخلع السلطان ووزرائه .

ولكن عبد العزيز كانت له نظرته الواضحة والبعيدة الى الموقف فلم ينجرف في تيار الفرحة العامة . فهو يعرف مقدار الجهد الذي عاناه من اجل قهر ابن الرشيد والقضاء على حملة تركية كانت لا تقل عن عشر كتائب . فاذا شاءت الامبراطورية العثمانية اليوم اخذ الأمور على محمل الجد وبذل الثمن المطلوب فبوسعها ان تعبيء ضده قوات لا يستهان بها ولن يكون هنالك اي شك بالنتيجة . فلسوف يُقضى على قوات عبد العزيز وتسحق سحقاً . ورأى عبد العزيز بثاقب نظره ان مواصلة القتال امر مستحيل وان لا بد اذن من التفاوض ، ولكن ... هل يقبل الاتراك بذلك ؟

أسرّ عبد العزيز بفكرته وما أقر عليه رأيه ، الى مبارك حاكم الكويت وطلب اليه ان يكون الوسيط بينه وبين الاتراك . وكان مبارك على علاقة حسنة مع « مخلص » باشا والي البصرة فنظم اجتماعاً بين مخلص والامام عبد الرحمن . واتفق الطرفان بعد مناقشة حامية على عدد من النقاط ، يعترف سلطان الاستانة بموجبها بسيادة عبد العزيز على نجد بكامله . وفي مقابل ذلك يوافق عبد العزيز على اقامة قوة عسكرية عثمانية في « القصيم » وحاميتين في

Marfat.com

« عنيزة » و « بريدة » .

وصدق عبد العزيز على الاتفاق مرغمـــاً مع انه اتاح له الفرصة ليتنفس الصعداء . اما بعض الشيوخ وانصار الحرب بأي ثمن وبعض القـادة العسكريين الذين توهموا بأنهم حرموا من نصر سهل ، فقد شجبوا الاتفاق وذهبوا الى حـد اتهام اميرهم بالخيانة ! وراحوا يخاطبون انفسهم :

– اي استسلام هذا للاستانة ؟ انه لغير جدير بسعودي . انها سياسة جبانة تنطوي على الخيبة . ان اسلافنا سيخجلون اذا رأونا نتصرف هكذا .

ويحاول عبد العزيز تهدئة خواطرهم قائلاً :

– صبراً ... فان الجولة لم تنته بعد ، ان هذه السياسة تحمـل الخيبة للأتراك اكثر مما تحمل الينا فالمهم في هذا الظرف ان نكسب الوقت .

– إلاَم الصبر ... هل هذا كلام يليق بالمحاربين ... ان قليـــلا من الصبر ايضاً وينتهي بنا الامر الى اسوأ مصير .

٣٠

وصلت الحـاميات التركية ، وتمركزت في « القصيم » وسار كل شيء ، في البدء ، طبيعياً تقريباً . ثم ساءت الامور سريعـاً وبرزت المتاعب امام المحتلين بصورة غامضة وغير متوقعة : عصابات تقطع الطرق وتنهب القوافـل التركية القـادمة من البصرة ، فيعجز جنود السلطان رغم جهودهم الفائقـة ، عن وقف هجماتها ورد غاراتها ،ورغم الدوريات العديدة التي كانوا يرهقون انفسهم بأطلاقها في مختلف الاتجاهات .

وازدادت الحالة سوءاً خلال الاشهر التالية وعم الاستياء انحاء المنطقة كلها ،

Marfat.com

وتضاعفت الغارات والهجمات ، ليلة بعد ليلة ، على القوافل التركية ، حتى بدا واضحا ان الاتراك عاجزون عن توفير الامن للمناطق التي اخذوا على عاتقهم حمايتهم ـا ، وباتت المؤن والاسلحة والذخيرة لا تصل الى اهدافها الا نادرا ، وأصبحت الحاميات التركية معزولة عن قواعدها .

وانقضى عـام فاهترأت ثيـاب الجنود الاتراك وبدأوا يموتون جوعاً ، ولا يجدون في بعض الانحاء ما يأكلونه سوى لب النخيل. وكانوا يبيعون، في انحاء اخرى ، بنادقهم للحصول على الطعام . وعجزوا عن الاستمرار في تحمل قسوة المناخ وشدة الحر ، ومعظمهم من الاناضوليين الذين الفوا المناطق الباردة . واخذ المشاة العثمانيون يلوذون بالفرار .

وأسقط في يد حكومة الاستانة ، حتى لم تعد تعرف ماذا تفعل ؟ فلجـأت الى عبد العزيز تطلب معونته ومساعدة حامياتها على وقف اعمال الغزو ، فاستقبل الطلب بأبتسامة ، وابدى مظاهر الود للضباط الاتراك ، كما ابدى اسفه لأضطراب حبل الامن واختلال سبل المواصلات ، ونصح الاتراك بالتزام حصونهم لاتقـاء الاذى ، ولكنه لم يقدم لهم اية مساعدة فعلية ، بل شاءت المصادفات بعد ذلك ان تتعاظم اعمال النهب في الاشهر التالية .

وفي خلال ذلك ، كانت الحكومة التركية في حالة يرثى لها . فنظام عبد الحميد ، يواجه مختلف المتاعب . واليمن والحجاز كانا على ابواب الثورة . بينما تتأجج ، تحت الرماد ، نيران ثورات اخرى فى القاهرة ودمشق ، وسالونيك ، وتنتظر الوقت المناسب للانفجار .

وكان الاتراك مرغمين على توزيع قواتهم في ارجاء الامبراطوريه كافة ، بحيث لم تعد تتوافر لديهم قوات كافية للتدخل الجدي في شبه الجزيرة العربية . ولم يكن بوسعهم التفكير بتعزيز حامياتهم في « القصيم » في الوقت الذي كانت فيه ارمينيا

Marfat.com

والبلقان في ذروة الغليان . ولم يخف ذلك الوضع على عبد العزيز ، ولا جهل ان بوسعه ان يغتنم الفرصة ، فيهاجم الاتراك ويطردهم من البلاد،ويستعيد هيبته التي تأثرت باتفاقه مع الاتراك . ولكن عبد العزيز لم يشأ التراجع عن الخطة التي رسمها ، وهي تقضي بأخراج الاتراك بواسطة حرب العصابات . وكان يراقب بسرور نجاح خطته وبلوغها النهاية التي توقعها فلم يرهق نفسه في تحمل متاعب كبرى ، في سبيل الوصول الى غاية سوف يعمل الزمن على القائها بين يديه غنيمة باردة دون قتال .

ولما بلغ الاتراك منتهى اليأس لجأوا الى الرشوة كوسيلة حققت لهم الغاية احيانا كثيرة ، وعرضوا الذهب على عبد العزيز ثمنا لمساعدته . ولم يكن امير الرياض ثرياً ، بل كان بأمس الحاجة الى المال ، عصب الحرب ، الذي يمكنه من شراء السلاح وتجنيد الرجال واكتساب بعض الحلفاء. ومع ذلك فقد رفض قبول المال من الاتراك وردهم خائبين .

كان عبد العزيز يعتقد بان قوة العثمانيين آخذة الى الاضمحلال ولهذا رأى انه من غير المستحسن اقامة اية رابطة منهم . وادرك الاتراك اخيراً ، انهم سقطوا في فخ محكم .وان افضل ما يفعلونه هو التملص من ذلك الفخ والابتعاد عنه لانقاذ البقية الباقية من حامياتهم في القصيم . وهكذا انسحبت اخر القطعات التركية في العام ١٩٠٥ واختفت معها عصابات السلب والنهب بسحر ساحر . لقد ربح عبد العزيز الجولة دون ان يخرج عن حياده الظاهر .

وكان المفروض فيمن عارضوا الاتفاق مع الاتراك ان ينظروا بأرتياح ، الى الطريقة المرنة ، التي تمكن بواسطتها عبد العزيز من التخلص ، لولا انهم كانوا مسرفين في التشاؤم والتجهم ، لا يرون سوى الجانب الاسود من اية قضية . لقد اخذوا على عبد العزيز اتفاقه مع الاتراك ، وتوقعوا ان يؤدي الى كارثة . فلما انسحب الاتراك حنقوا لان عبد العزيز خيب ظنهم .

Marfat.com

ان في طبيعة عبد العزيز شيئاً ما ، يُدرك ولا يفسر ، ولكنه لا يسرهم . فتلك الثقة بالنفس ، وتلك اللامبالاة في الاستماع الى نصحهم ، ما كانتا مما يوحي لهم بالثقة ، ويبعث على الاطمئنان .

ويتساءل هؤلاء بكثير من القلق وفيما بينهم : ماعساه يكون مستقبل نجد في ظل رجل من هذا الطراز ؟ . .

جلا الاتراك . ووجد عبد العزيز نفسه ، مرة اخرى ، وجهاً لوجه امام ابن الرشيد ... لقد تبدلت الآن ميازين القوى ... لقد اصبح ابن الرشيد وحيداً ، باهت النجم ، بينما كان نجم عبد العزيز آخذاً في التألق واللمعان ، تتسابق القبائل الى كسب مودته والانضواء تحت لوائه بعد النصر الذي احرزه على الاتراك في « شنانة » والذي ادى الى تعاظم هيبته . وكان عبد العزيز اخيراً مسلحاً تسليحاً جيداً بفضل المعدات التى توفرت لديه من غزو القوافل العثمانية .

ومع ذلك ، فأبن الرشيد ، رغم محنته ، كان ما يزال محارباً يخشى بأسه ، جديراً بأن يسدد الى غريمه ضربات مفاجئة . واي خطأ في التقدير قد يؤدي الى عواقب وخيمة . فالحياة في الصحراء متقلبة كالرمال ، وربما نجمت عن هزيمة واحدة ، او خطوة في غير موضعها ، محاذير تسفر عن تمزق الحلف الطري العود الذي نسجه عبد العزيز من حوله .

ومنذ ان اتم الاتراك انسحابهم ، شرع عبد العزيز يشن سلسلة غارات ومناوشات على ابن الرشيد فما عاد يعرف الاستقرار ، واخذ هذا المحارب العنيد يشعر بالارهاق لأول مرة ، منذ مارس صناعة الحرب ، وبعد ان ادركته الشيخوخة وفقد مرونة الشباب وجلده .

Marfat.com

وصل ابن الرشيد وجيشه في احدى الامسيات الى جوار قرية«مهنا » فنصب معسكره هناك ، واهمل اقامة الحراسة لتوفير الراحة لجنوده المرهقين من جهد متواصل بذلوه خلال الايام السابقة ، ولعلمه علم اليقين بأن عبد العزيز بعيد عن هذا المكان ، وان لا خطر يتهدده البتة

وكان عبد العزيز في الواقع على مسافة عشرة فراسخ من روضة « مهنا » فلما ابلغه جواسيسه ، نبأ وجود ابن الرشيد واقامته في معسكر مكشوف على ارض عراء ، اصدر اوامره الى رجاله بامتطاء جيادهم واطلاق الاعنة لهـا الى المدى الاخير . وجدّ عبد العزيز ورجاله في السير طوال الليل ، فلم يتوقفوا لالتقـاط انفاسهم حتى وصلوا الى حافة معسكر ابن الرشيد في الساعة الثالثة صباحـاً . وهبت رياح الشمال قبيل الفجر فأثارت زوبعة من الرمال ، فترجـل عبد العزيز ومحاربوه وتقدموا وسط واحة النخيل متسترين بسحابة كثيفة من الغبـــار فلم يشعر بوجودهم احد ، حتى دهموا معسكر ابن الرشيد ، وفاجأواجنوده النيام ، فقتلوا معظمهم طعناً بالخناجر تحت خيامهم قبـــل ان تتاح لهم فرصة المقاومة والدفاع عن النفس .

كان بوسع ابن الرشيد ان يلوذ بالفرار تحت ستار البلبلة العـــامة ولكنه لم يكن جباناً ، فحمل سلاحه وخرج من الخيمة . وكان النهار لم ينبلج بعد والريح ما تزال مزمجرة عاصفة ، ونادى ابن الرشيد رجـــاله ، فلم يلب نداءه احد . هل قتلوا جميعاً ؟ ام تبدد صوته وسط العاصفة ، فاذا به وحيـد هائم في وسط المعسكر المهشم في عتمة الصباح المبكر الذي لم ينجل بعـد ، تلفه زوبعة كثيفة من الغبار . وعثر به بعض الجنود السعوديين ، فأردوه قتيـلاً بنيران بنادقهم ، وهو يحاول الاحتماء خلف شجرة نخيل .

وسار نبأ مقتل ابن الرشيد في انحاء نجد كلها . وتردد صداه بعيـــداً في الصحراء ... ان السعوديين قد انتصروا وان ابن الرشيد قد مـــات ، وان لا

Marfat.com

خوف بعد اليوم من ثأره او انتقامه .

وخَلَفَ ابن الرشيد أميرٌ مراهق قليل التجارب، فذبحه احد اشقائه، ثم ذُبح هذا الاخير بيد ابن عمه ، واخذ جميع الذكور في الاسرة الرشيدية يتنازعون الارث والخلافة، وانجرفت قبائل « حائل » في الصراع فتحاربت ومزق بعضها بعضاً ، وانتشرت الفوضى كالوباء . ولم تعد « حائل » تشكل اي خطر على الرياض

ولما دخل عبد العزيز الرياض منتصراً ، توافد الناس جميعاً لتهنئته وتجديد الولاء له . ونودي بعد الصلاة وبمبادرة من الامام عبد الرحمن ، بالأمير الشاب ملكاً على نجد وإماماً ، بحضور الشيوخ ورجال الدين ورؤساء الاقاليم والقادة العسكريين . وقبض عبد العزيز على السلطتين الدينيه والسياسية ، وبدأ حلم صباه يتجسد حقيقة واقعة ، واصبح عبد العزيز ، ابتداء من ذلك اليوم ، يلقب بأبن سعود وان كان رفاق السلاح القدامى قد استمروا في تلقيبه على سبيل الدالة « بفهد الصحراء » تذكاراً للقفزة الرائعة التي انقض بها على عنق عجلان ، واستعاد على اثرها عاصمة بلاده بقبضة يده .

واقام اهل الرياض وضواحيها الاحتفالات لمدة اسبوع ، وذبحوا الذبائح ، بعد سنوات من الهول والكفاح . ولكن عبد العزيز لم يكن راغباً في ان يتراخى القوس الذي احكم شده ، وما كان فتح نجد ، في نظره ، سوى مرحلة اولى نحو المهمة الكبرى والهدف الاعظم . فما انقضت ايام ثمانية على تسنمه العرش حتى دعا خيرة محاربيه الى اجتماع في ساحة المدينة ليعرض عليهم مشاريعه . وكانت تقف في مقدمة الحشد ، بقيادة ابن جلوي ، سرية صغيرة من

Marfat.com

المحاربين المشوهين بالجراح . انهم الاحيـــاء الخمسة عشر من فريق الفدائيين الاول ، الذين اقسموا له يمين الولاء في واحـــة « جبرين » . فتحدث اليهم ابن سعود من على سلم القصر وشكرهم على ما ادوه من خدمات بوفاءونكران ذات، واعاد الى اذهانهم كل ما حققوه معاً : احتلال الرياض ، وفتح الافلاج والخرج والقصيم ،ومعركتي البكرية وشنانة ، وطرد الاتراك، والانتصار النهائي على ابن الرشيد . ثم قال :

– لقد اجتزتم معي تجارب قاسية .. اني اعلم ذلك ... واعلم ايضـاً مدى الشجاعة التي كانت سلاحكم للتغلب عليها ... ان ما حققناه لكثير ولكنه قليل بالنسبة الى ما يتوجب علينا تحقيقه . لست اريد ان ارغم احـــداً على اطاعتي ولكنكم اذا مشيتم ورائي فاني اعدكم ، بعون الله ، بأن اضفر لـكم اكاليل المجد ، وبأن اجعل منكم امة عظيمة ذات سيادة وكرامة ومنعة . اني اعلم كم تتحرقون شوقاً الى طرد الاتراك الغرباء والمنحرفين عن الدين الصحيح ، من بلادنا. ولهـذا اقول لكم : لا تتركوا اسلحتكم عرضة للصدأ بل هيئوها لمعارك اخرى ... والى الامام لنشر العقيدة وفتح الجزيرة العربية ان شاء الله ...

وفي الحال ، امتشقت السيوف من اغمادها،وبرقت النصال في وهج الشمس ، وتعالت الهتافات من اعماق الصدور ، وماجت شوارع الرياض وساحاتها طوال الليل بالغناءوالرقص . ثم تفرقت الجموع عائدة الى قراها . وأصبحت خـلال الايام التالية ، الكلمات المثيرة التي قالها الملك الشاب لجنوده ورجاله المخلصين ، تدوي في جميع انحاء نجد :

– الى الامام ... لنشر العقيدة وفتح الجزيرة العربية ، ان شاء الله !..

Marfat.com

الجزء الثالث

فتح جزيرة العرب

(١٩٠٥ - ١٩٢٨)

Marfat.com

Marfat.com

٣٣

ابن سعود هو الآن في السابعة والعشرين ، نحيل الجسم مديد القامة . شامخ كالطود،تحيط به هالة من نشوة الظفر ، لا يخطربال احد ان يجادل في كفاءته العسكرية ، ولا يجهل احد كيف هزم الاتراك ، وسحق ابن الرشيد ، وفتح نجداً بحد السيف . ولكن سلطته ، لم تكن مع ذلك ثابتة الدعائم بعد .

فقبائل اواسط شبه الجزيرة العربية التي تمرست بالحرية المطلقة طوال قرون من البداوة ، لم تكن مستعدة ابداً للخضوع لسلطة سيد كائناً من يكون . وكان كل نظام بالنسبة اليها بمثابة ارغام لا يطاق واعتداء على كل ما لديها من مقدسات . فالروح العشائرية كما يحدثنا الدكتور فيليب حتي تقضي ، قبل كل شيء ، بالولاء الكامل غير المشروط للقبيلة ، تقابله على صعيد أعلى ، نزعة فردية لا تحد . وكان الولاء للقبيلة والتعصب لها ، يجعل منها وحدة تامة قائمة بذاتها مكتفية مطلقة . وكانت كل قبيلة اخرى بالنسبة اليها ، فريسة مشروعة ، او هدفاً محللاً للغزو والنهب .

وبعبارة اخرى فان القبائل لأشبه ماتكون برمال الصحراء ، لا يمكن جمعها الا في قبضة مشدودة ، حتى اذا تراخت القبضة قليلاً تسربت ، كما تتسرب الرمال من خلال الاصابع ، وعادت اكثر تباعداً وانفصالاً .

ومعظم القبائل التي ساندت ابن سعود لم تفعل ذلك بدافع مبدأ او سعياً

Marfat.com

وراء مثل اعلى انما حالفته لمصلحة خاصة، ممنية النفس بالتخلص من ابن الرشيد، حتى يتسع لها بعد ذلك مجال العودة الى هواياتها المعتادة . كان البدو يعتبرون تحالفهم مع عبد العزيز امراً عـــابراً لا جدوى منه بعد مقتل عدوهم ابن الرشيد .

الم يسهم عبد العزيز نفسه في خلق هذه المفاهيم ؟ الم يتقدم الى رؤساء القبائل وشيوخها كبطل من ابطال الاستقلال العربي ؟ وماذا تعني هذه الكلمات سوى دعوتهم الى معركة يستعيدون بعدهـــا حريتهم في العمل والعيش على هواهم ؟

غير ان ابن سعود لم يكن ينوي ابداً ترك القبائل تعود الى فوضاها القديمة بل شدد قبضته عليها بشكل بدا اقسى مما كان منتظراً او متوقعاً . فلما رأت القبائل ان الملك الجديد يحظر عليها شن اية غزوة الا بعد موافقته ، ويعاقب بشدة من يتجاهل ارادته ، بدأت تهمهم وتتململ ويراود التمرد افـكارها .

تعيش قبائل « مطير » في منطقة تقع بين نجد والكويت وليس لها حدود واضحة تماماً . ولهذه القبائل شهرتها في التمرد على كل نظام ، وفي مقاومة كل محاولة للاشراف على شؤونها . وكان على رأس هذه القبائل محارب من طرازفذ: الشيخ فيصل آل الدويش ، وهوشديدالتمسك بامتيازاته، فلم يطق ابداً تحمل سلطة ابن سعود، وقرر الانتفاض على هذه السلطة قبل ان ترسخ جذورها في الارض . واجرى الدويش لهذه الغاية محادثات مع الفئة القاطنة في « القصيم » من قبائل شمر فاقنعها بالتمرد على ابن سعود ، كما اقنع حاكم « بريدة » بالعصيان على السعوديين .

وقد وضحت لعبد العزيز خطورة الموقف لما تمنع حاكم « بريدة » عن تنفيذ أوامره ورفض استقبال الرسل الذين بعث بهم اليه ، فمشى الى المدينة على رأس

Marfat.com

الف من المحاربين ، واصطدم في منتصف الطريق بين الرياض و « بريدة » بفصيلة من الشمريين المتمردين ، فهاجمهم بسرعة ، وشتت شملهم ، واوقع فيهم خسائر فادحة . ثم تحول الى « المطيريين » الذين هرعوا لنجدة « الشمريين » فهزمهم بدورهم وقذف بهم الى داخل اراضيهم . ولكن القضية في نظره ، لا يجوز ان تنتهي عند هذا الحد . فلابد من معاقبة المحرضين حتى يكونوا عبرة لسواهم وحتى ينزع من رؤوسهم اي تفكير بتكرار ذلك . لقد عرف المطيريون طيلة تاريخهم بالتقلب والانتقال من معسكر الى آخر ، فلا بد ان يتلقوا اليوم درساً يقنعهم بأن ذلك الزمن قد ولى ، لذلك اقتحم ابن سعود ديارهم ، واحرق قراهم حتى حدود الكويت ، وقتل زعماءهم ، ولكن الدويش تمكن من الفرار والنجاة من الموت .

واستمر ابن سعود في مطاردة المتمردين حتى جاؤوا اخيراً طالبين الرحمة والعفو . وانتقل بعد ذلك الى « بريدة » فوجد ابوابها مقفلة والمدينة في حالة حصار . ولكن عبد العزيز لم يعدم انصاراً اوفياء في الداخل فتحوا له الابواب ، بينما كان جميع رجال الحامية متجمعين في المسجد لصلاة المغرب . ودخل المحاربون النجديون « بريدة » دون مقاومة تذكر ، وجيء بحاكم المدينة المتمرد ، فجثا امام الملك وراح يبكي ويعفر جبهته في التراب . لقد كان يتوقع ان يفقد رأسه . ولكن ابن سعود القى عليه نظرة احتقار وامره بالنهوض وبمغادرة المدينة فوراً مع جميع افراد اسرته .

وكانت قلعة « بريدة » مفتاح نجد الشمالي ونقطة اتصال هامة في طريق القوافل ، فعين ابن سعود ، ابن جلوي ، حاكماً على المدينة ليحول دون وقوع حوادث مماثلة في المستقبل .

وكان ابن جلوي ، رفيق الجهاد المخلص ، الرجل المطلوب لمثل هذه المهمة . يوحي ذكر اسمه بالرهبة في نفوس اشد البدو تمرداً . وهكذا اخمدت ثورة اقاليم الشمال ، ولم يعرف « القصيم » منذ ذلك اليوم اي شغب او اضطراب .

Marfat.com

٣٤

ما هدأت ثورة « القصيم » حتى انفجرت ثورة اخرى في الجنوب . وكان « العجمان » هذه المرة هم الذين حاولوا التمرد على سلطة ابن سعود . واندلعت شرارة ثورتهم من مدينة « ليلى » بتحريض جماعة من المتعصبين المتزمتين ، وكانت اشد خطورة من سالفتها . فهي اقرب الى الرياض وتهدد بالامتداد الى العاصمة ، وتثير في الوقت نفسه اضطراباً دينياً مسمما للافكار . لذلك كان سخط عبد العزيز كبيراً ، فقرر ان يقمع الفتنة بقسوة وعنف بالغين . انها في هذه المرة معركة بين الاصلاح والتطور .. وبين الجمود والتخلف ...

اقتحم عبد العزيز مضارب « العجمان » واجتاح ديارهم ، وامر فرقتين من جنوده بتدمير قريتي « القطين » و « والحوطة » ومحوهما من الوجود بعد اخلائهما من السكان ، وعدم الابقاء على حجر فيهما فوق حجر ، ولا على اثر ينبيء بمكان وجودهما .

فلما نفذت اوامره بدقة ، مشى الى مدينة « ليلى » فهاجمها وتغلب على مقاومتها ، وارغم حاميتها على الاستسلام ، وحكم بالاعدام على تسعة عشر شخصاً كانوا نواة الثورة ومتزعميها .

أجّل ابن سعود تنفيذ احكام الأعدام لمدة اربع وعشرين ساعة ، وأوفد الرسل الى مختلف الاقاليم يدعون الناس الى « ليلى » ليشهدوا انزال العقاب بالمجرمين . وامر باقامة منصة مكشوفة امام المدينة خارج الاسوار حيث تتجمع القوافل عادة ، فأحتشد عند الفجر سكان المدينة والقرى المجاورة وعدد كبير من البدو ، واحاطوا بالمنصة من جوانبها الثلاثة ، بينما اصطف الحرس النجدي في الجانب

Marfat.com

الرابع امام المنصة . ووصل ابن سعود ، فاجتاز الساحة وسط صمت رهيب، ثم صعد الى المنصة محاطاً بالشيوخ والحرس الخاص . وكانت قامته المديدة والغضب الشديد المرتسم في تقاطيع وجهه ، يثيران الرعب في النفوس .

وفتحت ابواب المدينة واقتيد المحكومون مكبلين بالاصفاد، وارغموا على الجثو امام المنصة، فأومأ ابن سعودبيده مشيراً الى الجلاد وهو يردد : « لا حول ولا قوة الا بالله »فبرز في الساحة زنجي عملاق عاري الصدر بيده السيف وخلفه مساعداه ، فوقف على رأس صف المحكومين .

وتلا احد الفقهاء نص حكم الاعدام معدداً الاسباب التي أوجبت موت المتمردين . وروعيت بكل دقة المراسم والشكليات التي ترافق عادة احكام الاعدام . فقد كان ابن سعود حريصاً على التأكيد بأنه لا يتصرف بدافع الانتقام ، بل ليفرض على رعاياه اطاعة القانون .

ومضى الجلاد يمارس مهمته في المجرمين واحداً بعد الآخر . ثماني عشرةضربة فاصلة ، وثمانية عشر رأساً تدحرجت فوق الرمال . فلما تقدم المحكوم التاسع عشر الى مصيره اشار الملك الى السياف وامره بالابتعاد، وخاطب الرجل الجاثي امامه بقوله :

– انني اعفو عنك، اذهب فأنت حر،وحدّث في كل مكان بما شهدت،وانقل الى اهل الصحراء كلها كيف يطبق ابن سعود العدالة .

ولما انتهى تنفيذ الاعدام خطا ملك نجد الى مقدمة المنصة وخاطب الجمهور موضحاً الجريمة التي ارتكبها العصاة ، والعقاب الرهيب الذي سيتعرض له كل من يحذو حذوهم . ثم طلب الى الحاضرين ان يقتربوا من المنصة وبدأ صوته ينخفض وهو يحدثهم بلهجة اكثر وداً ويقول :

– انتم رعاياي الذين احبهم ، وما من امر أشق علي من معاقبة احدكم بهذا

Marfat.com

الشكل فلا تضطروني لذلك مرة اخرى ، واختاروا من بينكم حاكما عادلاً اضع فيه ثقتي ، انني اترك لكم تدبير شؤونكم بأنفسكم ، شرط ان تقسموا على الوفاء والولاء لي .

علت غمغمة من الدهشة بين الجمهور . لقد كانوا يتوقعون ان يفتك بهم الملك او يسترقهم ويستعبدهم ، فها هو يترك لهم حرية اختيار حاكمهم . لقد كان لهذه البادرة من الشهامة تأثيرها الشديد على الافكار . لقد بقيت جثث المعدومين معرضة على الملأ طوال ثلاثة ايام ، حتى ينطبع مشهدها الرهيب في الاذهان ويكون انذاراً لمن تحدثه نفسه بالتمرد او بالتحريض على ثورة جديدة .

وتناقل الرواة تفاصيل ما جرى في « ليلى » من قرية الى قرية ومن مضرب الى مضرب ، حتى اصبحت حكاية تروى في الامسيات حول مواقد النيران .

فأن العقاب الصارم وما تلاه من عفو وتسامح ، اثارا اعجاب البدو والهبا خيالهم فأخذوا يرددون :

« هذا هو الحاكم الجدير بالحكم بيننا . انه محارب فذ، وحاكم صارم، ولكنه عادل . انه زعيم يتحمل مسؤوليته ويعرف ماذا يريد . »

حتى القبائل النائية سمعت بما جرى في « ليلى » واعتبرت به . كانوا يعلمون ان سعوداً قوي جبار، فعلموا اليوم انه عادل، وانه عازم على فرض احترام ارادته، وان من الافضل اطاعته بدل التعرض لعقابه .

وقمعت ثورة الجنوب بصورة نهائية .

Marfat.com

بينما كان ابن سعود يواجه متاعبه الداخلية ، كان الوضع في الخارج قد تطور وتبدل . فالثورة التي ارغمت بوادرها الاتراك على سحب حامياتهم من «القصيم» قد انتهت في العام ١٩٠٨ الى الانفجار ، واستولى رجال « تركيا الفتاة » على السلطة ، وخلعوا السلطان عبد الحميد في العام التالي فحل محله السلطان محمد الخامس ووعد حكام تركيا الجدد : انور وطلعت وجمال ، بتلافي اخطاء الماضي ، فوضعوا برنامجاً اصلاحياً واسع النطاق ، ولكنهم تمسكوا بسيادة النظام السابق فيما يتعلق بحكم البلاد العربية والسيطرة عليها ، بل ذهبوا الى ابعد من ذلك فأعلنوا عزمهم على دعم هذه السيطرة وتعزيزها . لذلك عينوا ولاة اكثر حيوية وشباباً في العراق وسورية وفي المناطق الساحلية على الخليج العربي والبحر الاحمر ، وعززوا حاميتهم في الاحساء ، وعينوا الحسين بن علي على الحجاز بامتيازاته الواسعة كحاكم للديار المقدسة وممثل للسلطان فيها .

واعتبر الاتحاديون تعيين الحسين لمنصب شريف مكة عملاً موفقاً لاستمالة العرب واسترضائهم . فهو امير هاشمي يرقى بنسبه الى النبي الاعظم . وكان متزوجاً من ابنة موظف تركي كبير ، وعاملاً لحساب الاستانة ، وكان العثمانيون مطمئنين الى انه سيخدم أهدافهم في اخلاص .

ولم تقف الدول الاوروبية مكتوفة اليدين خلال تلك السنوات فقد عززت بريطانيا مواقعها في هذه المنطقة من العالم مستفيدة من الخصومات والمنازعات التي كانت تعصف بشبه الجزيرة العربية .

وقام اللورد « كورزون » في العام ١٩٠٣ ، باحتلال مرفأ الكويت احتلالا مفاجئاً . فأرغم الامير مباركا على تسديد ديونه لبريطانيا في شكل اتفاق خاص

Marfat.com

حصلت بريطانيا بموجبه على حق حماية الكويت والاضطلاع بمهمة الشرطة في الخليج العربي . ثم انسحبت القوات الانكليزية بعد ذلك .

ووقعت حكومة لندن اتفاقاً مع القيصر اعطى روسيا « حقوقا » في تركستان وشمالي ايران ، بينما احتفظت بريطانيا بالسيطرة على الجنوب الايراني والخليج العربي (٣١ آب ١٩٠٧) .

وكانت وزارة الخارجية البريطانية وهي تنفذ خططها بدقة في شمالي شبه الجزيرة العربية ، تدق اوتادها في الجنوب ، فأبعدت بموجب اتفاق ١١ نيسان ١٩٠٤ المطامع الفرنسية عن قناةالسويس، واطلقت يد فرنسا في المغرب مقابل التخلي لها عن مصر ، وكررت في العقبة تمثيل الدور الذي قامت به في الكويت فأضطرت الاتراك سنة ١٩٠٦ الى سحب قواتهم من هذا الميناء المواجه للسويس بعد تظاهرة قام بها الاسطول البريطاني .

وهكذا اصبح شبه الجزيرة العربية مطوقاً بخطرين : تعزيز الحاميات التركية في الاحساء وضغط النفوذ البريطاني المتزايد ، مما اثار قلق ابن سعود وبدأ يشعر بأنه محاصر .

كان لا بد له وهو سيد نجد منذ ١٩٠٥ ، من ان يشق لنفسه منفذاً الى البحر حتى لا يجد نفسه محاصراً وسط رمال اواسط شبه الجزيرة العربية . وكان الخليج العربي اقرب بحر اليه . ولكن ... اية فائدة ترجى من الدخول في نزاع مع الاتراك . فان هزمهم – وذلك امر ليس مضموناً – فلسوف يجد نفسه في نزاع مع الانكليز .

حار ابن سعود في اتخاذ موقفه فأجرى اتصالات مع الامير مبارك وطلب اليه جس نبض اصدقائه الانكليز (١٩١١) فقام امير الكويت بالمهمة واوضح للسلطات البريطانية ان مصالح ابن سعود لا تتعارض مع مصلحتهم في هذا

Marfat.com

الموضوع ، فكلاهما يريد التخلص من الاتراك ، وبذلك يتهيأ لبريطانيا تحقيق هدفها دون الدخول في صراع مكشوف مع الامبراطورية العثمانية واثارة ممالك اوروبا واماراتها . اذا تولى ملك نجد طرد الاتراك فلن يتعدى الامر نطاق خلاف داخلي محدود يعود بالنتائج السارة على الجميع . واقتنع الانكليز بهذا المنطق وابلغوا مباركا انهم لا يعارضون خطط ابن سعود ، شرط الا يمد يده الى الكويت .

ضمن ابن سعود حياد الانكليز ، ولكن خوض معركة ضد الاتراك لم يكن ، مع ذلك ، مأمون العواقب ، فنصحه الامير مبارك الذي كان على اطلاع واسع على ما يدور في الاستانة بالتريث وترقب الفرص . فسياسة الحزم العثمانية الجديدة ، لم تكن سوى ومضة عابرة ، واتضح للاتحاديين ان سياستهم التي رسموها للبلاد العربية ، كانت مسرفة في الطموح ، وانهم يفتقرون الى الوسائل الكافية لتحقيقها .

وصدق حدس مبارك بأسرع مما كان يتوقع . ففي نهاية العام (تشرين الأول ١٩١١) هاجم الايطاليون طرابلس الغرب ، ولم تنته الحرب التركية ـ الايطالية حتى نشبت حرب البلقان الاولى (تشرين الأول ١٩١٢) وزحف الصرب الى سالونيك والبلغار الى الاستانة واصبح الاتراك بحاجة الى كل واحد من جنودهم .

وادرك ابن سعود ان ساعة العمل قد ازفت .

بين الكويت وعُمان ، على طول الخليج العربي تترامى مقاطعة رملية فقيرة معزولة هي : الاحساء .

Marfat.com

منطقة ضئيلة السكان ولكنها تتحول الى مركز نشاط تجاري كبير ، عندما يحل موسم صيد اللؤلؤ ، فيتبدل كل شيء وتتدفق القبائل القاطنة في الداخل الى المناطق الساحلية للاتصال بسكانها ويجزر البحرين المقابلة،فتستقبل«القطيف» و « عقير » و « الخُبر » وسواها من موانيء الاحساء شبه الصحراوية ، جموعاً صاخبة منهمكة . فاذا انقضى الموسم ، تنسحب القبائل وتفرغ المدن ويمضي التجار ببضائعهم الى اسواق الهند وايران ،تعودالاحساء الى فراغها الصحراوي.

وكان يحكم الاحساء آنذاك حاكم تركي مقره في « الهفوف » عاصمة المقاطعة. فأوفد ابن سعود بعض الجواسيس لاستطلاع الموقف هناك ومعرفة اتجاهات السكان ومدى استعدادات الحامية التركية . فلما رجع رسل ابن سعود قدموا له تقريراً مشجعاً عن الحالة . فالشعب مرهق بحكم الاتراك ، ناقم عليه اشد النقمة ، والادارة التركية ظالمة وعاجزة غير فعالة ، جعلت السكان غير آمنين ، والمنطقة مسرح لعصابات السلب والنهب .

اما عن الحاميات التركية الرئيسية في « الهفوف » والمدن الساحلية الهامة ، فقد خفضت كثيراً واستدعي القسم الاكبر منها الى البصرة لينقل على عجل الى الجبهة البلقانية . وقد رحلت منذ وقت قصير فرقة كبيرة من المشاة بكامل اسلحتها واعتدتها بأتجاه الشمال .

وقال الجواسيس انهم صادفوا عدداً كبيراً من اهل القصيم مستعدين لمناصرة ابن سعود اذا جاء على رأس قوات كافية .واقتنع ابن سعود من معلومات رجاله بان الوضع في الاحساء يصلح لعملية سريعة ، فعبأ خيرة قواته واتجه شرقاً في سير حثيث دون توقف ، ليسبق اي رسول محتمل لانذار الاتراك ، فأجتاز صحراء الدهناء واخترق الاحساء وتوغل مباشرة نحو « الهفوف » حتى امست قواته بعد مسيرة ايام ثلاثة عند اطراف المدينة في غفلة من الاتراك .

كانت ليلة مظلمه ، فأجتاز ابن سعود على رأس ٧٠٠ فارس ، الواحة الكثيفة

Marfat.com

المحيطة بالأسوار ، ثم توقف متستراً بمجموعة من اشجار النخل امام بوابة ابراهيم باشا حيث ترجل الفرسان وتقدموا زحفاً حتى ادركوا الجدران السميكة المسننة التي تقوم عليها ابراج الحراسة المربعة على مسافات متباعدة .

قام ١٢ جندياً بتسلق السور بخفة ورشاقة بواسطة سلالم جدلت من الياف النخل ، فدهموا الحراس وقتلوهم بالخناجر وهبطوا الى الداخل ففتحوا احد الابواب وافسحوا للجيش مجال الدخول الى المدينة دون اية ضجة تلفت الانتباه. وكانت المدينة لا تزال نائمة وغارقة في السكون ، فانحدرت القوات السعودية الى السوق – سوق الخميس – واتجهت مباشرة الى قلعة « الكوت » الكبيرة وهي حصن كبير يقوم في وسط المدينة محاطاً بسلسلة من الابراج الصغيرة . وكان باب الدخول ، لحسن الحظ ، غير مقفل ، والجسر منخفضاً ، والحراس نائمين ، فذبحهم السعوديون ، ودلفوا الى الحصن .

أُخذ الاتراك على حين غرة فلم يتسع امامهم الوقت للوصول الى بنادقهم ، فقتل القسم الاكبر منهم بالسلاح الأبيض واستسلم الباقون دون مقاومة . واصبح النجديون بعد ساعة اسياد القلعة بعد ان جردوا البقية الباقية من حاميتها من السلاح وسجنوها في الطابق الارضي . ولما اشرقت الشمس غادر ابن سعود القلعة وطاف بالمدينة يقود فرقة خفاقة الاعلام . وكان الجنود السعوديون ينشدون الاناشيد الحماسية ويقرعون بحوافر جيادهم بلاط الشوارع فاستفاق السكان على ضجة الموكب وهرعوا الى ابواب منازلهم مذهولين يتابعون ذلك العرض ، ومضت برهة طويلة قبل ان يستردوا وعيهم وتنطلق السنتهم التي عقلتها المفاجأة .

ولم تلبث الحامية التركية مع حاكمها ان استسلمت، ولم تمض اربع وعشرون ساعة حتى غادرت الاحساء الى البصرة بغير رجعة . وفي الايام التالية كان ابن سعود يطوف المقاطعة متقبلا ولاء القبائل . واستولى دون مقاومة تذكر على

Marfat.com

« القطيف » و « عقير » . واستدعى بن جلوي من « القصيم » وعهد اليه بتدعيم الامن والنظام في المنطقة وتطهيرها من عصـابات السلب والنهب التي كانت تغزو القوافل ، فنجح ابن جلوي في تحقيق المهمة بما عرف عنه من قوة شكيمة وشدة بأس ، وتمكن سكان الاحساء خـلال زمن قصير من الانصراف الى شؤونهم آمنين مطمئنين .

ان ظل صولجان ابن سعود المديد يترامى عبر الصحراء ، فيلقي الرهبة في النفوس .

وانحنى الاتراك امام الأمر الواقع فاجروا محادثات مع ابن سعود ، وعقدوا معه اول معاهدة لأن اتفاق البصرة الذي تم التوصل اليه بين الامير عبد الرحمن ومخلص باشا كان مجرد تعاقد شفهي .

واعترف الاتراك ، بموجب الاتفاق ، بان الاحساء جزء من نجد وبابن سعود ملكا على الاقليمين وتخلوا له عن الاسلحة التي « خلفوها » في الهفوف وتعهـدوا بعدم التدخل في شؤونه .

وفي مقابـــل ذلك وافق ابن سعود على الاعتراف بسيادة رمزية للأتراك ، كانت مجرد كلام منمق لا طائل تحته . ولقد تم كل ذلك خلال محافظة الانـكليز على عهدهم .

وكانت الاحساء الفقيرة المعزولة في الظاهر واحدة من اغنى المنـاطق في العالم ، تساوي رمالها امبراطورية .

ولكن ابن سعود كان يجهل ذلك ، وكذلك الانـكليز ، والا لاختلف مجرى الاحداث اختلافاً كبيراً .

Marfat.com

٣٧

ابن سعود هو الآن ملك نجد والاحساء ! لقد رفع ذلك من اهميته في الجزيرة العربية كما أصبح بهذا الفتح الجديد يطل على البحر من شرفة عريضة ولم يعد رهين الصحراء الوسطى . لقد قهر الاتراك في « شنانة » وأرغمهم على الانسحاب من « القصيم » ، وها هو يطردهم من « الاحساء » ، فاذا بزعماء القبائل من اقصى الجزيرة العربية الى اقصاها ، يزدادون اعجاباً بابن سعود ويتابعون تصاعد نجمه في حماسة ، وتلهب خيالهم صورة الملك البطل .

وجاءت جماعة من الثوار السوريين لمقابلته في الرياض ، انهم من اعضاء « حزب الفتاة » المنظمة السرية التي تأسست في دمشق لتحرير سورية، وهي تضم فريقاً من الملاكين والادباء والاطباء وكبار الموظفين يجمعهم ايمان بالقسم الذي اقسموه وكانت لهم شارات يتعارفون بها وكلمة سر يتوزعونها ونشرات سرية وصندوق مالي مشترك. لقد كان هدفهم تقويض الامبراطورية العثمانية، وبسهولة السوريين المعروفة في الاندفاع انشأوا هذه المنظمة وراحوا يبحثون في الخارج عمن ينجدهم لاستعادة حريتهم، لقد كانت لهم اتصالات عديدة في مصر وكذلك مع رجال حزب العهد في العراق كما كانت لهم اتصالات مع شريف مكة وبريطانيا ، اي مع كل الذين يأملون في مساعدتهم على تحقيق مشاريعهم [1].

وتحدثوا الى ابن سعود وقالوا له : « اننا في صدد تنظيم مؤامرة واسعة ضد الاتراك ، لقد تباحثنا حتى الآن مع مبارك في الكويت ومع حسين في مكة واخذنا وعداً منهما بالمساعدة ، فلم لا يتولى ملك نجد قيادة هذه الحملة المقدسة

---

١ ـ لورنس : « اعمدة الحكمة السبعة ».

Marfat.com

وهو الذي يتمتع بمزايا وفضائل اكسبته تقدير الجميع ؟ ثم الا يكون ذلك بمثابة قلادة من المجد يتقلدها حفيد سعود الكبير ؟ »

لقد اصغى ابن سعود اليهم بانتباه... كان فخوراً هو الآخر بانتمائه الى العنصر العربي ولا يطيق ـ اكثر منهم ـ ان يكون محكوماً من قبل الاتراك ولكنه قدر ان محدثيه كانوا ذوي تفكير خيالي ، ومحدثون بارعون ، ولم يدهشه ان يكونوا على اتصال مع مبارك ، فمن ذا الذي لا يتصل به مبـارك ؟ ولكن مع الحسين ... ؟ وكيف ؟ انه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بقادة الامبراطوريـة وهو حليف السلطان وظهير الخليفة المخلص ! ثم اليس احد ابنائه نائب رئيس مجلس النواب التركي ، وآخر نائب جدة في المجلس نفسه؟ان هذا لشيء غير معقول !..

وأما عن تحرير سورية ولبنان فانه لأمر مثير حقاً ... ان ابن سعود لا يجهل التأثير الذي تمارسه اراضي هذين البلدين الخصبة ، منذ قرون ، في قبائـل الصحراء ... ان اية حملة في هذا الاتجاه ستحظى سريعاً بتأييد شعبي ...

ولكنه حكم على ذلك المشروع بانه غير قابل للتحقيق في الوقت الحـاضر . وبالاضافة الى ذلك فان مجرى الاحوال تجعـــل مما يعرضه عليه الثوارالسوريون نوعاً من الاغراء الذي يجب الا يستسلم اليه .

كان هدفه مختلفاً جداً ، انه يقضي بانتزاع الجزيرة العربية من نزعتها الفردية واعادة تجميـع اوصالها ووضع حد لفوضاها او بـكلمة مختصرة : اعادة وحدتها ، فاذا شاء القدر ان يكون ابن سعود ـ كما كان يرجو مخلصاً ـ مصدر موجـة اسلامية جديدة فليكن ذلك بعد ان يوحد ويعيد تنظيم مملكته . وصرف عبد العزيز محدثيه بلباقة ولياقة ، فلقد كان لديه شيء آخر ليعمله في الوقت الحاضر .

Marfat.com

ان العمل الذي يستأثر بتفكيره كان شيئاً جد مختلف .

٣٨

ان عبد العزيز هو الآن في الثانية والثلاثين ... لقد اتاحت له حياته الحافلة التي عاشها منذ صبـــاه مجال التعرف عن كثب والتحسس المباشر بالمشكلات الاساسية لشعب شبه الجزيرة العربية ، فاصبحت له نظرة واقعيـة ومباشرة الى الامور بعيدة عن الاستنتاج والتخمين .

ان رعاياه في مجموعهم ينقسمون الى فئتين : اقلية من المزارعين وسكان المدن من جهة ، واكثرية من البدو الرحل من جهة اخرى . وكان في وسع ملك نجـد الاطمئنان الى ولاء الاولين . واما الفئة الثانية فكان من الصعب اخضاعها لنظام او قانون مشترك ما دامت تعيش في ظروفها الحاضرة ، متنقلة على الدوام ،تأبى الاستقرار في اي مكان .

كانت حياة الترحل موضع فخر للبدو واسمى مـا يعتزون به في الوجود ، فيعتبرون انفسهم النموذج المثالي لبني البشر ، ويرون الانسان المتمدن ليس اقل منهم سعادة وحسب ، بل وفي مستوى ادنى بكثير ، ويتملكهم فخر لا حـد له بتسلسل انسابهم الذي يرقى الى عهد آدم ، وبصفاء دمائهم وفصـــاحتهم واشعارهم وسيوفهم وجيادهم وشرف اجدادهم ، ولو انهم لا يملكون من متـاع الدنيا سوى مضاربهم ومطاياهم ونسائهم ، متحررين من اي ارتباط ، مـائجين كالبحر في طلاقة الرياح .

وادرك ابن سعود ان الضرورة تقضي بحملهم على الاستقرار وتبديل ظروف معيشتهم تبديلاً جذرياً ،لأن تلك الظروف هي التي تملي عليهم تصرفاتهم وتكيّف

Marfat.com

طباعهم ، فوضع لهذه الغاية مشروعاً رائعاً ، لم يحاول اي حاكم تجربتـه من قبل ، يرمي الى القضاء على البداوة تدريجياً ، بتأمين حياة مستقرة للبدو الرحل حول موارد المياه ويجعلهم يألفون زراعة الأرض . ذلك يعني اعـادتهم الى حياتهم الزراعية السالفة قبل تدفق ذلك السيل البشري الذي جرف القبائل من اليمن وحولها الى حياة التيه في الصحراء . انه لمشروع صعب التحقيق ، يغامر فيه الملك بمفرده ، ولكن نجاحه يعني تبديل وجه الجزيرة العربية كلها .

كانت ندرة المياه وضيق مساحات الأرض الصالحة للزراعة بالنسبة الى عدد السكان ، العامل الرئيسي الذي يسيطر على حياة الصحراء . وكان يحدث بعض التوازن بين الفينة والفينة فتتوفر للصحراء فترة من الهدوء حتى اذا طرأت زيادة قليلة على عدد السكان عاد التوازن الى الاختلال وتعرضت البلاد الى ازمة جديدة ودخلت الصحراءفي منازعات فتضاعفت اعمال العنف وازدادت المعارك شراسة بين القبائل حول موارد المياه وحمي وطيس القتـــال وتفاقمت دواعي الخصومة،ولا تستقيم الامور مرة اخرى الا عندما تقذف نحو الشمال او تتعرض للابادة ، فئة من السكان موازية للعدد الطارىء الدخيل .

وكان هذا الصراع ، بمثابة عملية انتقاء لا شفقة فيها ولا رحمة ، لنخبـة من الشعب . ولكن استمرار الأمور على هذا الغرار حال دون تزايد عدد السكان وابقى المعيشة على مستواها الشديد الانخفاض . وكيف يمكن للجزيرة العربيـة ان تتحرر من نزعاتها الفردية التي هي انعكاس لاوضاع حياتها ؟

وكانت خطة ابن سعود تقضي باجتذاب عدد صغير من البـدو الى بعض الآبار التي اختيرت بعناية ، بعيدة عن طريق القوافل،وبحملهم على الاقامةحولها لقاء بعض الهبات والامتيازات وتدريبهم على اعمـال الفلاحة والري ، فيؤدي ذلك تدريجياً الى زيادة مساحة الاراضي المزروعة ، ويصبح في امكان سواهم من البدو المجيء الى هذه الاماكن والاقامة فيها ، فتتضاعف الواحات الخضر في وسط الصحراء . وترسخ جذور البدو في الاراضي المنتجة المنسلخة من جفاف

Marfat.com

الرمال ويباسها ، فاذا ما تطورت تلك المشاريع كانت لها جاذبيتها على المناطق والقبائل المجاورة، وكان من الطبيعي ، متى استقر البدو واصبحوا مزارعين، ان ينجبوا مزيداً من الاطفال وان يتزايد بسرعة عدد السكان .

وكان ابن سعود يهدف بعد ذلك الى ان يجند من هذه الجماعات الجديدة جيشاً ثابتاً يختلف كل الاختلاف عن القوات التي تولى قيادتهـا حتى الان . جيش مرتبط بأرض مستقر في بيت يشده الى مليكه ولاء من طراز جديـد ، لاصلة بينه وبين الظمأ الى المغامرات او الطمع في الغنائم، فالمجتمعات الجديدة لن تكون مكرسة لانتاج الحبوب والثمار فحسب ، بل ستكون منبتا ونواة لجيش جديد .

وما غـاب عن ذهن ابن سعود وهو يعرف طبيعة مواطنيه ، ان خطته ستصطدم بتقاليدوعادات مألوفة،وانه لن يتغلب على تذليل العقبات الاباستثماره عاطفة اشد وأقوى ، فلا بد ان تكون هذه الجماعات الزراعية والعسكرية جماعات دينية في الوقت ذاته تربط فيما بينها روابط الاخوة ويتضامن افرادهـا جميعاً في الولاء لقسم او عهد ، شبيهين بالقسم الذي اداه لعبد العزيز رفاقـه في واحـة « جبرين » . فتصبح هذه المراكز موطناً للاخوان ، ومهداً للايمان والمؤمنين ... مؤمنين مدعوين للجهاد وحمـل السلاح في سبيل نصرة العقيدة الصحيحة .

وكان لا بد للملك من قوة استمرار دافعة تمكنه من توحيد الجزيرة العربية . وكان هذا العمران الداخلي الذي وضـع خططه الوسيلة الوحيدة لتحطيم النزعة الفردية الفوضوية ، وافهام الجنود ان واجباتهم حيال القبيلة تأتي في المرتبة الثالثة بعد اطاعة الله والولاء للملك،وانها لجريمة ان يقتل مسلم مسلماً الا في حالةالحرب، وان قرار اعلان الحرب او وقفها امر يعود الى الملك وحده . ان هذا النظـام

Marfat.com

سيرغم البدو على التخلي عن منازعاتهم الخاصة لينصرفوا الى الدفاع عن قضيـة مشتركة .

وفي هذا يقول ابن سعود :

– انني اريد تطوير نزعة العرب الفطريـة الى الحرب ، حتى يشعروا بأنهم اعضاء في جماعة واحدة ، انه عمل طويل شاق ، لا انكر ذلك ، ولكن الجانب الكبير منه سيتحقق عندما تبدأ وحدات جيشي تشعران الهجر [1] الذي نشأت فيه هو بمثابة وطن صغير يانع لها وسط الوطن الكبير القاحل .

٣٩

وكان في رأي الملك ان مستقبل الجزيرة العربية كله يتوقف على هذا الاصلاح الاجتماعي والعسكري والديني الضخم . وما كان في وسعه ، مع ذلك ان يحقق شيئاً في هذا المجال دون مساعدة رجال الدين .

فرجال الدين في نجد يشكلون هيئة ذات نظام صارم في دقته ، يستوي على قمتها الشيوخ المنحدرون من صلب الامام محمد بن عبد الوهاب ، ويشكلون طبقة ذات امتيازات وسلطة . وكان ابن سعود ، بصفته امام الوهابين ، الرئيس الاعلى لهذه الهيئة . وقد دعم مركزه الديني فيهـــا بزواجه في الكويت من الاميرة « جوهرة » حفيدة الامام عبد الوهاب .

وكان اختيار العلمـــاء والفقهاء وائمة الشرع المسؤولين عن تطبيق الشعائر

---

١ – الهجر : هي التسمية التي اطلقت على المزارع او القرى التي انشأها ابن سعود وجعل البدو يستقرون فيها . وهي مشتقة من هجر وهجرة ، نسبة الى هجرة البدو لقبائلهم واستيطانهم في الواطن الجديدة .

Marfat.com

الدينية ، وتفسير القرآن، وتثقيف الشعب ، يتم في نطاق هذه الهيئة . ويليهم في المرتبة خطباء المساجد ، ثم يأتي « المطاوعة » – المدرسون – الذين يشكلون القاعدة وهم منتشرون في كل قرية وقبيلة ومهمتهم نشر العقيدة الوهابية ويتولى كل منهم تدريس ما لا يقل عن خمسين شخصاً .

كانت هذه المنظمة الدينية جهازاً مثالياً لنشر تعاليم الدين والعقيدة، ولترويج اي فكرة بحيث ترسخ جذورها في اعماق الشعب . وكانت كلمة ائمـــة الشرع تنتشر بواسطة هذا الجهاز بأسرع ما يمكن من طرف الجزيرة العربية الى طرفها الآخر .

قرر ابن سعود اثارة اهتمام رجال الدين بمشروعه الاصـلاحي ، فطلب الى والده دعوة ائمة الشرع ليعرض عليهم المشروع ، فاستمع اليه العلماء بانتباه ولكن مع التحفظ ، وكانت خلاصة المشروع : وضع حد للبـداوة وتحطيم الاطارات التقليدية للقبائل وغرس جذور البدو حول ابار المياه وتجنيد جيش من المجتمعات الزراعية الجديدة ، انه بذلك يقدم مشروعاً اصلاحياً من شأنه ان يبدل وجـه الجزيرة العربية ويوفر لابنائها مستقبلاً افضل لم تحلم بمثله حتى الان، ويهيء فرص انتشال القبائل من الفوضى والبؤس وتحويلها الى شعب متطور متحضر ...

ولقي مشروع عبد العزيز مقاومة شديدة فاستعان عليها بالحكمة تارة وبالشدة تارة اخرى، كما كان لمنزلة والده في صفوف العلمـــاء الاثر الكبير في الوصول الى النتيجة المطلوبة المرضية .

لقد بذل ابن سعود جهوداً للتقارب والتفاهم ، فكبح جماح غضبه ولجـأ الى الحكمة واللين في معالجة ما طبع عليه العلمـــاء من حذر ، واستمر الجدل اسبوعاً كاملاً حتى تمكن ابن سعود ببراعة فائقة من اقناع رجال الدين جميعـاً بالفوائد التي يجنونها من انشاء جيش للاخوان مكرس لنشر العقيدة ، ممـا يعني في الوقت نفسه ، زيادة نفوذهم في البلاد . واوضح لهم أن هذا الجيش وحـــده

Marfat.com

سيكون جديراً بنشر العقيدة في الجزيرة العربية كلهـا فلا تبقى محصورة راكدة في الصحراء الوسطى . لقد دافع ابن سعود عن قضيته في براعة فائقة حتى انتهى الى زحزحة العلماء عن موقفهم .

ولقد تأثر العلماء كثيراً بانضمام الامير عبد الرحمن الى مشروع نجله الاصلاحي فوافق ائمة الشرع على الانضمام بدورهم اليـه واصبح « مخططُ الملك » « مخطط العلماء » فهم سينشئون معـاً جيشاً مسلحاً في خدمة الله على غرار الطلائع الاسلامية الأولى ، فيتراص البدو في نظام متين ويؤلفون جماعة من « الاخوان » اخوان في العقيدة والسلاح وفي خدمة الله .

وكتب الائمة الى المطاوعة ليجوبوا مع طلابهم في البلاد من قرية الى قرية ، ومن قبيلة الى قبيلة، لالقاء سلسلة من العظات ترويجاً لفكرة تأسيس « الاخوان » موضحين ان قواعد المروءة القديمة لم تعد مؤاتية،وان شريعة الله خير من العصبية القبلية ، وان طاعة الملك اوجب من طاعة العشيرة . مذكرين بقول النبي الكريم الذي يحث على احياء الموات وزراعة الأرض .

٤٠

مضى « المطاوعة » وتلامذتهم في حملتهم فاصطدموا في كل حدب يجـدار من اللامبالاة او العداء. فأنه لمن الصعب على البدوي المتمسك تمسكا اعمى بتقاليده القديمة المتوارثة ، ان يتخلى عنها بين يوم وآخر . ثم ان نوع الحياة الجديدة هذه لا يبهر ولا يغري . أما قال الشاعر : « أعز مكان في الدنى ظهر سابح » . لقد عاش اباؤهم واجدادهم احراراً ، كما يحلو لهم عبر الصحراء لا يستجيبون لغير نداء الفضاء والسماء. انهم يحثونهم على التخلي عن هذه التقاليد النبيلة ليتحولوا الى مزارعين مقيمين ، وفلاحين صغار ؟ كأنما يطلب اليهم ان يحكموا على انفسهم

Marfat.com

بالانحطاط ويجردوا انفسهم من السلطة ! فأي امير يقبل مختاراً ان يحيا حياة العبيد ؟ لهذا ثارت ثائرة البعض من البدو لما سمعوا بالاقتراح المصيب ! ورد عليه بعضهم بالسخرية والازدراء. فان قواعد المروءة الجديدة لم تجد لها صدى في النفوس ، ولم تنجح الدعوة في اجتذاب اكثر من ثلاثين مرشحاً للمستقبل المبهم الغامض .

لقد وجد مع ذلك ثلاثون شخصاً ، وكان هذا كل ما يطلبه ابن سعود . فصحابة النبي وحملة راية الاسلام الى اقاصي الدنيا ، كانوا في البدء قبضة من الرجال . وابن سعود نفسه، فتح مملكة على رأس قوة لم يكن عددها في انطلاقتها يزيد على عشرين رجلا، وكل ما تحقق في هذا العالم من عظائم ، كان في البدء ، من صنع جماعة قليلة من بني البشر .

ركز ابن سعود فرقته الصغيرة الاولى من المتطوعين في واحة « الاورطاوية » في منتصف الطريق بين نجد والاحساء ، وهو موقع موحش مهجور ليس فيه سوى اربع او خمس آبار شحيحة ، تلجأ اليها القبائل المشردة او المسافرون التائهون . وحولها بضعة هكتارات من الاراضي البور وحوالي خمسين نخلة. هذا كل شيء . فلا كوخ ولا خربة ، انه في الواقع موضع غير جذاب ليبدأ فيه الانسان حياته من جديد .

ولكن ابن سعود لم ينس ما تعلمه خلال اقامته الثانية في الربع الخالي،وهوان البدوي لا يبذل اقصى ما في طاقته من جهد ، الا عندما يكون العمل الذي يدعى اليه موسوماً بطابع التحدي لظروف قاهرة .

وهكذا انصرف رئيس الجماعة ويدعي « متعب » الى العمل بشجاعة وهمة مع فريقه من الرواد الاولين . وجاءهم الملك زائراً ليقطع دابر ما تعرضوا له من مضايقة القبائل المجاورة وسخريتها،ويعبر لهم عن استحسانه ورضاه ويعلن ان

Marfat.com

من يسيء اليهم ، لا يلومن الا نفسه . ثم منحهم قليلاً – قليلاً جداً – من المال ، لانه لايريد ان ينضم اليهم بدو اخرون بدافع الربح والانتفـاع ، واسكن بينهم بعض الفلاحين لتدريبهم على اعمال الزراعة والري ، ووزع عليهم قطع الأرض وحصصهم من المياه ، واعانهم اخيراً على بناء مسجـد وبعض المساكن من اللبن والاجر .

البناء ... انه لشيء جديد على هؤلاء الرجـــال الذين عاشوا حتى الآن على الغزو والغنائم . شيء ملأهم دهشة اولاً ، ثم راح يبدل بصورة غـير ملموسة ، نظرتهم الى الأمور . انهم اناس بدائيون ، ولكنهم ذوو ارادة حسنة ، تحـدوهم الرغبة في تحقيق مستقبل افضل . لقد قيـــل لهم ان الملك بحاجة اليهم لتطوير الجزيرة العربية ، فلبوا النداء في طاعة عمياء . واخذ الملك يشعر نحوهم بميـــل حقيقي فأصبح يزورهم غالبـاً ، ويشجعهم في جهودهم ويشرح لهم المعنى العميق للعمل الذين يقومون به :

– انتم طليعة اصلاح عظيم . ان مصير الجزيرة العربية في ايديـكم ، فتجنبوا الفشل وازيلوا كل عقبة تعترض سبيلكم . لعلكم تدهشون كيف ان مهمة جليلة بهذا القدر ، يُعلق مصيرها بعدد قليل من الرجـال ، ولكن العدد ليس مهماً ، وسيتزايد في حينه ، بل المهم هو جَلَدكم وايمانـكم ، وسيندم يومـاً اولئك الذين رفضوا الاستجابة لندائي . لقد خيل اليهم انني ابغي ردهم الى مراتب العبيد ، مع ان هدفي الوحيد هو تحريرهم من الجوع والجهل والفوضى ، فدعوهم يسخرون اليوم ، فلن يتسع لهم مجال السخرية في يوم النصر عندمـــا يقارنون بين عوزهم وغناكم . وليكن حرصكم شديداً على وحدة صفكم ، فما من خطر يهددكم غير خطر التفرقة والانقسام . واتركوا الباقي علي ، فـــلا تخشوا امراً ، لأنكم في رعاية الله وفي عهدتي .

كان الملك يقضي ليالي بطولها يداول رجال هجر « الاورطاوية » في شؤونهم

Marfat.com

ويعالج ما يعترضهم من متاعب ، متحلقين في نصف دائرة حول موقد النـــار يطرحون الاسئلة على ابن سعود فيرد عليهم بعبارات بسيطة صادرة من اعماق قلبه، ويزودهم بالنصائح . وكان يعبر لهم شيئاً فشيئاً عن اغتباطه بنجـــاحهم فتلتمع اعينهم ببريق الفرحة ، فلا ملك هناك ولا رعية بل جمـــاعة صغيرة من العرب يجمعهم العمل لمهمة واحدة وايمان بمستقبل واحد .

فإذا انصرم الليل قامت الجماعة الى صلاة الفجر . وتشرق شمس يوم جديد ملونة ذرى النخيل بخيوطها الذهبية ثم تلتمع اقنية الري في وهج الشمس كأنهـا الأمل المنشود .

ودعي ابن سعود بعد ستة اشهر من تأسيس « الاورطاوية » الى احتفـــال بسيط ، حاول اربابه ان يسبغوا عليه كل مهابة ممكنة فاقسموا يمين الولاء للملك ثم هجروا خيامهم المصنوعة من وبر الماعز الى غير رجعة ، مخلفين وراءهم حياة البداوة ، وانتقلوا الى المساكن الجديـدة التي بنوها بأيديهم من اللبن والاجر . لقد اجتازوا عتبة منازلهم ، وكأنهم بذلك يجتازون مرحلة فاصلة بين القرون الوسطى والعصر الحديث .

وبدأت التجربة بداية حسنة . ولم يدع ابن سعود لرواد مشروعه الأوائـل اي مجال للتكاسل ، وبعث اليهم بأحد الفقهاء وعدد من المدرسين لانشاء مدرسة ثم اعطاهم بعض المال وبذور الشعير والحنطة ووعد كلا منهم ببندقية وذخيرة .

ونما « الهجر » وترعرع وتعرض لبعض الفشل وخيبات الامل ، فقد قاسى البدو كثيراً ليألفوا الاعمال اليدوية. فلما اقبل الربيع استبد الحنين الى الصحراء بالكثيرين منهم وعانوا كثيراً في مقاومة غريزة الترحل التي تشتد في هذا الفصل، وعجز بعضهم عن المقـاومة فأسلم امره الى الله معتبراً ان لا جدوى من زراعة الحقول، وان العناية الالهية ستتولى شؤونها . وكانت هناك منازعات بالاضافة الى الانسحاب والانشقاقات .

Marfat.com

ولكن « الاورطاوية » ازدهرت مع هذا كله، وكان اختيار موقع «الهجر» موفقاً رغم الظواهر، فلما رويت الأرض تكشفت عن خصوبة نادرة ونبت فيها العشب والقمح والحلفاء ، وتحول الهجر الصغير الى قرية صغيرة ثم الى بلدة ثم الى مدينة . واصبح سكانها يفخرون ، فيما بعد ، بأنهم اتقى المسلمين في نجد كلها، متشددين في كل ما يتعلق بشؤون الدين والعبادة،حتى ان العرب غير الوهابيينما كانوا يجرأون على زيارتهم ، وتخلوا عن كسوة الرأس الموروثة عن قبائلهم ، واعتمروا بالعمامة البيضاء التي كان يعتمر بمثلها الامام محمد عبد الوهاب رمزاً للطهارة والنقاء . وكانوا يعتزون بأسم « الاخوان » الذي اطلقه عليهم ابن سعود تيمنا بكتائب النبي المظفرة واصبحوا ينظرون الى البدو الاخرين نظرتهم الى قوم دونهم في المستوى غارقين في الظلمات والجهل . وكان هؤلاء المتعبدون الصارمون محاربين يخشى بأسهم ، مستعدين دائماً للحرب والقتال يجمعهم شعار واحد : « نحن فرسان التوحيد اخوان من اطاع الله » .

وتزايد عدد المتطوعين . وجاءت لزيارة « الاورطاوية » ، قبيلة « مطير » التي ثارت قبل سنوات والتي لقيت من ابن سعود اشد العقاب ، فسرت لما شهدت من نتائج ، وطلبت الانضمام كلها الى « الهجر » وانخرط رئيسها الشيخ فيصل آل الدويش في صفوف الاخوان .

وجاء هذا كله دليلاً لا يدحض على نجاح التجربة ، لأن الدويش زعيم الثورة الذي نجا باعجوبة من غضب ابن سعود ، لم يكن محارباً له وزنه وحسب بل كان واحداً من اشد المتمسكين بالسيادة البدوية وتقاليدها وكان انخراطه بالاورطاوية بالنسبة الى ابن سعود انتصاراً معنوياً لا يقدر بثمن .

وخرج ابن سعود بنتيجة بارزة من هذا الحادث، الم يكن هدفه الاصلاحي حمل القبائل على تناسي الخلافات الشخصية فالواجب يقضي بأن يضرب هو المثل ، فأقدم برأي سديد وببعد نظر على التصافي مع الدويش على الملأ . ثم

Marfat.com

عينه قائداً اعلى للاخوان وحاكماً على « الاورطاوية » . وقد رمى ابن سعود بأسناد هذا المنصب الى عدوه القديم الى ان يبرهن للقبائل على ان الخلافات الشخصية السابقة زائلة امام هدف الوحدة الذي اخذ على عاتقه تحقيقه .

واصبحت « الاورطاوية » بعد انضمام « المطيريين » الجماعي اليها ، اصغر من ان تستوعب سكانها ، فنزحت عنها جماعات لتأسيس مواقع جديدة على الطريقة نفسها . فكانت « الدلم » و « شقراء » و« ساجر » وسواها . وعين ابن سعود متطوعين من الرعيل الاول للاشراف على المراكز الجديدة، وعني عناية خاصة بدمج القبائل في مواطنها الجديدة بعضها ببعض للحيلولة دون تجمعها في موطن واحد وانقسامها الى فرقاء متنازعين . ثم منح كل « هجر » امتيازات خاصة ليكون ممثلاً لجماعة موحدة متميزة عن سواها من قبائل الصحراء وارفع منها مقاماً .

فلما بلغت « الهجر » درجة كافية من التطور والنمو ، بدأ ابن سعود يجند منها المتطوعين ، فتكونت لديه فرق متفوقة من حيث الحجم والسلامة الجسدية والمعنويات على سواها من الفرق التي تجند من الاقاليم الاخرى .

وما هي الا سنوات خمس على تأسيس « الهجر » الاول حتى كان لدى ابن سعود جيش من الاخوان ، قوامه خمسون الف مقاتل . جيش دائم ثابت ، متماسك الوحدات يبعث الفخر في نفس الذي اوجده ، اين منه الوحدات المبعثرة التي كانت تجمع من القبائل وفقاً للصدف .

كان ابن سعود يملك حتى ذلك التاريخ جهازاً عسكرياً على مستوى نجد . واما اليوم فأنه يملك جيشاً على مستوى شبه الجزيرة العربية كلها .

Marfat.com

٤١

٢ آب سنة ١٩١٤: ذلك اليوم المصيري في تاريخ اوروبا . لقد تردد دويه كقصف الرعد حتى اعماق الشرق ، وكان اشارة الموت بالنسبة الى البعض الاخر . واصاخ العرب بأسماعهم ، من القاهرة الى البصرة ، ومن عدن الى بغداد ، آملين ان تحمل لهم الحرب بشائر نعي الامبراطورية العثمانية .

وكان على ابن سعود ان يتنبه لما يجري . فمنذ بضعة اشهر ، والجزيرة العربية تعج بالعملاء السريين من انكليز والمان وفرنسيين وروس وترك وايطاليين ويابانيين اتوا من كل ناحية : من السويس والبصرة وبومباي وطهران بحثاً عن الحلفاء استعداداً للصراع المقبل. ولكن ابن سعود لم يشعر بقرب هبوب العاصفة لانهماكه بالقضايا الداخلية لشبه الجزيرة العربية .

وتراءى له في البدء ان اشتراك تركيا في الحرب يتناسب كل التناسب مع اهدافه . فها هي بريطانيا الآن في صراع مكشوف مع الاستانة ، افليس هذا هو الوقت الملائم لكي يوجه الى الحجاز الضربة المفاجئة التي نجحت في الاحساء ؟ واذا اخرج الحسين والحاميات التركية من الحجاز ، فهل تتركه بريطانيا وشأنه؟ ام انها ترفض الاعتراف بسيادته على هذه المنطقة ؟

قرر ابن سعود – كما في السابق – استشارة الشيخ مبارك ، فقد كانت نصائحه ثمينة ومفيدة في هذا المجال .

وكان بعض الانفعال بادياً على ابن سعود عندما اجتاز عتبة قصر الكويت حيث تلقى وهو يافع ، دروس السياسة الأولى ، ولكنه كاد لا يتعرف على صديقه القديم عندما دخل عليه في مكتبه . لقد شاخ مبارك وهرم كثيراً منذ

Marfat.com

لقائهما الاخير . وها هو يتقدم محدودب الظهر ذاوي النظرات ، ذابل التقاطيع غائر العينين . انه يطلي شعره وشاربيه بالحناء وتمتلىء اصابعه المعرورقة بالخواتم الماسية الضخمة . ان له سحنة غريبة هذه المرة تنم عن طمع وجشع اكثر من ذي قبل . لقد عهد مبارك بالامارة الى ابنه سليم لشعوره بالارهاق الجسماني ولكنه احتفظ بكل بريق تفكيره وظل على اطلاع على كل ما يحاك من الدسائس في العالم .

وكان شعور الرجلين لدى التقائهما مختلفاً ، فقد اكتأب ابن سعود لما رأى ما فعلته السنون في صديقه القديم . واما مبارك فقد ساوره القلق وهو يرى كم نما تلميذه وكبر ، واحس بالندامة على ما قدمه له من عون . فأذا هو اليوم ملك ذو شأن تمتد سلطته الى الخليج العربي . فماذا يحدث لو حلا لابن سعود ، ان يبتلع الكويت بعدما هضم الاحساء ؟ وهل سيمنعه الانكليز ؟ ... نعم اذا كان عدواً لهم ، واما اذا تحالف معهم ... افلا يجد ساسة لندن مصلحة في استبدال سليم ابن مبارك الفتى اليافع الذي لا يتمتع بأية ميزة بحاكم اجدر واكثر حيوية ؟ يجب بأي ثمن ، منع اي اتفاق بين ابن سعود وممثلي حكومة صاحب الجلالة .

كان ملك نجد بعيداً عن هذه الأفكار السوداء فصارح مباركا بأهدافه في الحجاز وطلب منه ببراءة ان يدافع عن موقفه تجاه الحكومة البريطانية فبسط مبارك ذراعيه وصاح استهجاناً :

— هل انت مجنون يا صديقي الفتى ؟ ان مهاجمة الحجاز هو اسوأ ما يمكنك ان تقدم عليه . واحذر ، بوجه خاص ، ان تمسّ الحسين . افلست راضياً عن اوضاعك الراهنة ؟ ما بالك تتسرع لتلقي بنفسك بين شدقي الذئب ! لو كنت محلك ، لحصرت جهدي في اواسط شبه الجزيرة العربية والتزمت سياسة الحياد ، حتى تمر العاصفة .

عاد ابن سعود الى الرياض غاضباً وقد خيبت هذه المقابلة آماله، فأن عبارات مبارك المعسولة وسحنته المتخوفة وتلميحاته التي تنم عن خطر واضح وهو يتكلم

Marfat.com

عن الحجاز والحسين ، قد اثارت المرارة في نفس ملك نجد ، وكان لها وقعها غير المستحب : اي دور يلعبه ذلك العجوز ؟ لقد رآه من قبـــل وهو بعد فتى في مواقف مسرحية مماثلة حيال الذين يبغي خداعهم . النتيجة الوحيـــدة التي استخلصها من اجتماع الكويت ضرورة الحذر ممن كان يحسبه صديقاً ، فقـد زال عهد الصداقة بينهما ، وان عليه ان يعتمد على نفسه في سياسته الخارجية كمـــا يعتمدها في سياسته الداخلية .

تلك كانت انطباعاته عندما يستقبل المرة بعد المرة ، عمـلاء الالمان القادمين من البصرة وعملاء الانكليز القادمين من الكويت، في محاولة لاجتذاب الملك الى هذا المعسكر او ذاك .

اصبح ملك نجد حيال اختيار صعب . ان مباركا ينصح « بسياسة الحياد » ولكن الحياد يعني العزلة والتعرض بدون وسائل دفاعية كافية لكل مطـــامع جيرانه . ولقد وعى شيوخ الامارات والاقاليم المجاورة وولاتها هـــذه الحقيقة فبادر كل منهم الى اتخاذ موقف معين .

من تراه يكسب الحرب ؟ الاتراك ام الانـكليز؟ ذلك هو السؤال الذي يتوقف عليه كل شيء . لم يكن من السهل ان يعطى هذا السؤال جواباً في بداية الحرب . فالاتراك هم القوة القريبة الاشد خطورة وهم حلفاء للالمان الاغنياء الاقوياء . ولكن ابن سعود يأنف محالفتهم مهما بلغت عروضهم ووعودهم لان انتصارهم يعني انهيار احلامه والقضاء نهائياً على فكرة تحرير الجزيرة العربية .

واما الانكليز فأن سياستهم لم تكن هي الاخرى ، اكثر صفاء . فما عساهم

Marfat.com

فاعلون بالجزيرة العربية اذا انتصروا في الحرب ؟ وما هي حقيقة نواياهم بالنسبة الى السعوديين ؟

كان البريطانيون قد بدلوا كثيراً من وجهة نظرهم الى ابن سعود . فلم يعد تلك الشخصية القليلة الاهمية . انه يشرف الآن على جزء كبير من الخليج العربي ويملك قوة يحسب لها حساب ، لذلك اوفدوا اليه قنصلهم في الكويت المستر « شكسبير » لاقناعه بالتحالف معهم او بالوقوف على الحياد على الأقل .

وجاء « شكسبير » فقابل ابن سعود وطلب اليه في الحاح اعلان الحرب على الاتراك . ولكن الملك لم يفته ما ينطوي عليه اعلان الحرب هذا من مغامرة ولم يشأ الوقوع في هذا الخطأ، فرفض الانجراف في هذا التيار وقدم اقتراحاً لمؤزارة القضية البريطانية بصورة غير مباشرة ... بالزحف على الحجاز وطرد الشريف حسين حليف الاتراك . فاوضح له « شكسبير »بلهجة جافة استحالة تحقيق هذه الفكرة واوعز الى ابن سعود بالعدول عنها ، وطالت المباحثات عدة اسابيع دون التوصل الى نتيجة ، فقد اصم الملك اذنيه عن تحريض الانكليز ، واما « شكسبير » فقد تظاهر بانه لم يفهم ما يرمي اليه ابن سعود .

وهنا حدثت المفاجأة ، فقد احيط الأتراك علماً بهذه المفاوضات ، وكان الامير مبارك هو الذي كشف لهم السر ، فقلقوا اشد القلق وقرروا وضع حد سريع لها ، فساقوا على عجل عدة قبائل من « شمر » و « حائل » وتولوا قيادتها الى الرياض . لقد كشف مبارك اوراقه وكانت خيانته لابن سعود خيانة فاضحة

قطع ابن سعود محادثاته وجهز فرقة كبيرة من الاخوان وانطلق لمواجهة الزحف التركي فالتحم الجيشان في موقع « جراب » قرب الاورطاوية ، وكانت القوات المعادية تتألف ، بالاضافة الى الشمريين ، من عدة كتائب من الجيش

Marfat.com

النظامي التركي تدعمه فصائل من المدفعية . ونشبت المعركة عند الفجر وحمي وطيسها طوال النهار . وابدت تشكيلات الاخوان ثباتاً رائعـــاً وهي تخوض المعركة الاولى الدامية من تاريخها . ثم تحولت الى شن سلسلة من الهجمات الموفقة على القوات العثمانية . وشاء مستر « شكسبير » ان يختبر بنفسه عن كثب مدى كفاءة « الاخوان » العسكرية ، فتوجـــه الى حيث المعركة وجلس على كرسي يشرب الشاي ويراقب سيرها في هدوء الى ان فاجأته جماعة من الفرسان الشمريين احاطوا به وقتلوه وامين سره ضرباً بالسيوف .

ولما حل الغسق اخذ الاعيـــاء الجنود الاتراك فبدأوا يتخلون عن مواقعهم ويتراجعون نحو الشمال .

لقد نجا ابن سعود من المأزق ، ولكنه كان بعيداً عن ادراك النصر واصيبت قواته بخسائر هامة وانتشرت الأقاويل بأن سمعة « الاخوان » الحربية مبالغ بها وبأن بعض الكتائب التركية كانت كافية لدحرهم لو عززتها فصيلة من الالمان .

وادرك ابن سعود اكثر من اي وقت مضى ان من الخطأ البقاء في عزلة . فما الذي يمكن توقعه من الاتراك والالمان ؟ الم يكشفوا عن مشاعرهم الحقيقية نحوه؟ ولذا ، فقد استأنف المحادثات مع الانكليز وانتقل الى « عقير » – احد موانىء الاحساء – حيث اجتمع بمستر « كوكس » خليفة « شكسبير » في القنصليـــة البريطانية في الكويت . واتفق الفريقان بسرعة ، هذه المرة ، فـــلم يثر ابن سعود مسألة الحجاز ووقع مع المفوض الانكليزي اتفاقاً يعلن فيه وقوفه الى جانب بريطانيا ، ويتعهد تعهداً قاطعاً بالا يهاجم حلفاءهـــا او يساعد اعداءها ولكنه لم يلزم نفسه بالاشتراك فعليـــاً في العمليات العسكرية . واعترف الانكليز من جهتهم ، بملكية ابن سعود على نجد والاحساء واستقلال هـــاتين المقاطعتين عن الاتراك ، وتعهدوا بالا تكون هذه المناطق موضع بحث عند تقسيم الامبراطورية العثمانية ، وبأن يدفعوا له معونة شهرية قدرها خمسة آلاف ليرة استرلينية ذهبية

Marfat.com

وان يقدموا له الاسلحة وان يهبوا لمساعدته اذا تعرض لأي اعتداء .

غادر ابن سعود ميناء « عقير » مبتهجاً لهذه التسوية فهو غير ملزم بمحاربة الاتراك ولكنه ضمن الحماية ضد اي هجوم جديد محتمل من جهتهم، كما ان الصيغة التي تعهد بموجبها بالا يهاجم حلفاء بريطانيا والا يساعد اعداءها تترك البـــاب مفتوحاً لعملية ضد الشريف حسين . لقد حصل ، دفعة واحدة ، على كل مـــا يبتغيه وقال في نفسه :

لو ان الانكليز كانوا واثقين من النصر الى الحد الذي يزعمونه ، لما منحوه شروطاً ملائمة الى هذا الحد ...

٤٣

امتدت الحرب العالمية الاولى التي بدأت في سهول « الفلاندر » بفرنسا ، بسرعة الى الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط . فقد جعل الاتراك ، منذ كانون الاول ١٩١٤ ، من الشرق محوراً لعملياتهم الحربية في مختلف الاتجاهات . وكان جمال باشا احد الثلاثي الحاكم قد عين والياً على سورية بسلطات توازي سلطات نائب للملك فزحف في ١١ كانون الثاني ١٩١٥ على قناة السويس على رأس جيش مؤلف من ٤٠ الف رجل بقيادة الضابطين الالمانيين الكولونيل « كريس فون كريسنستين » والكولونيل « فون سيكت » فهاجم الطريق المائي في طوسون قرب الاسماعيلية ولكن المدفعية والسفن الحربية البريطانية صدته عن منطقة القنـــاة (٣ شباط) .

ونزلت خـــلال ذلك قوة بريطانية قادمة من الهند بقيادة الجنرال « تاوسند » في جوف الخليج العربي واستولت على مدينة البصرة وزحفت بمحاذاة مجرى

Marfat.com

نهر دجلة متجهة الى بغداد ولكنها هزمت في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٥ ، ثم طوقت في « كوت العماره » واضطرت الى الاستسلام (٢٩ نيسان ١٩١٦)

وجاءت هزيمة « كوت العمارة » بعد فشل حملة الدردنيـــل ضربة قاسية للمعنويات البريطانية في الشرق الادنى . وشاءت بريطانيا تخفيف وطأة هذه الهزيمة بشن هجوم يبدأ من مصر بقيادة الجنرال «ارشيبالد موراي » ويستهدف الاستيلاء على شبه جزيرة سيناء ، ثم يخترق فلسطين باتجاه القدس ودمشق . وكانت هذه العملية على جانب كبير من الدقة لان مؤخرة القوات البريطانية في صعودها على طول الساحل ، ستكون معرضة لخطر الحاميات التركية المتمركزة في المدينة المنورة ومدن الحجاز الاخرى . وكان ذلك هو الظرف الذي يترقبه ابن سعود ليزحف الى مكة ولن يعترض البريطانيون على هذه العملية التي تتلاءم مع خطتهم وتؤمن لهم حماية مواقعهم الخلفية . واما الاتراك فسيعجزون عن المقاومة لان معظم قواتهم سيكون منهمكا في قتال الانكليز .

وكان ابن سعود يضع اللمسات الاخيرة لاستعداداته العسكرية عندما حدثت المفاجأة في السادس من تشرين الثاني ١٩١٦ فأعلن الشريف حسين استقلال الحجاز ونقض يمين الولاء للسلطان ، وكشف رسمياً عن تحالفه مع بريطانيا ، ثم اذاع بيانا مدوياً دعا فيه جميع زعماء الجزيرة العربية للانضمام اليه في حملة عامة من اجل الاستقلال .

لقد اعد هذا التحول منذ وقت طويل ،على يد « سير هنري ماكماهون »[1] المفوض السامي البريطاني في مصر واعضاء المكتب العربي للمخابرات البريطانية في

---

١ – تم التوصل الى هذا الاتفاق بين الشريف حسين وسير هنري ماك ما هون في رسائل سرية متبادلة. وقد تعهد المفوض السامي البريطاني في رسالة مؤرخة في ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ =

Marfat.com

القاهرة، وكان تطور العمليات الحربية قد جعل من الشريف حسين عاملاً هاماً في منطقة الشرق الادنى. وبذل الانكليز كل ما في وسعهم لاستمالته وحمله على التخلي عن الاتراك ، فتعهدوا بان يعترفوا بسيادته على الحجاز وبأن يدفعوا له معونة شهرية قدرها عشرون الف ليرة ذهبية انكليزية، وداعبوا خياله وطموحه بتنصيبه رئيساً لاتحاد يضم الدول العربية كلها . وكان ذلك كافياً لاقناع الشيخ الطموح بالانفصال عن الاستانة .

وقد ادى تبدل موقف الحسين الى تعديل كلي للموقف الستراتيجي في الجزيرة العربية ، واصبح للانكليز حليف ثمين يعتمدون عليه في طرد الحاميات التركية وحماية الجناح الايمن لجيشهم في سيناء ، وحرمان الالمان والاتراك من اية قاعدة لغواصاتهم في البحر الاحمر ، ذلك الطريق المائي الهام الذي تعبره القوافل القادمة من الهند كلها .

لقد شهد ابن سعود ، حتى الآن ، كثيراً من المفاجآت السياسية المسرحية ، ولكنه لم يدهش كما دهش لهذه المفاجأة في تخلي الحسين عن الاتراك وانضمامه الى الانكليز.. لقد اتضح له الآن دفعة واحدة كثير من الامور التي ظلت غامضة حتى الآن : لقد علم من الثوار السوريين من جماعة حزب الفتاة الذين جاءوا الطلب مساعدته ، انهم متفقون مع الشريف حسين ! ... فالشريف كان متآمراً اذن على الاستانة منذ زمن غير قريب ... ذلك ما دفع الامير مباركا على تحذيره من التعرض للحجاز ، وبدا له السبب الذي من اجله استبعد « شكسبير » اية مناقشة في هذا الموضوع . كما تبين له السبب الذي دعا « كوكس » الى التساهل في شروطه اثناء مباحثات « عقير » . تعهد ابن سعود تعهداً صريحاً بالا يهاجم حلفاء

= باستعداد الانكليز لتأييد استقلال العرب في ديارهم الممتدة من طوروس الى ايران الى الخليج العربي فالمحيط الهندي والبحرين الاحمر والمتوسط .

Marfat.com

بريطانيا ، وكان ذلك التعهد مبهماً في ذلك الحين فاصبح له اليوم معنى واضح مفهوم بعد ان اعلن الحسين حليفاً لبريطانيا .

وبدأ الشريف حسين بمهاجمة الحاميات التركية في الحجاز بمساعدة ابنائه الثلاثة علي وفيصل وعبد الله ، فرد الاتراك بهجوم معاكس ضار حتى مالت الكفة ضد الهاشميين ، فأرسل الانكليز بعض القطع البحرية الى جدة وينبع وسواهما فافرغت كميات من البنادق والمدافع والذخيرة وصناديق ملأى بالذهب وقبضة من الضباط النشيطين : « ستورز » و « ويلسون » و « يونغ » و « كوهان » « توماس ادوارد لورنس » .

اثارت حماسة الضباط البريطانيين جنود الشريف حسين ، فاستعادوا الثقة بأنفسهم ، وتمكن حسين بواسطة الذهب البريطاني من اعادة تجنيد المحاربين من قبائل الداخل - بما في ذلك القبائل النجدية - ومن تعزيز اسلحة قواته ومعداتها .

وهكذا استولت قوات الشريف حسين على العقبة في صعودها بجوار الخط الحديدي الذي يصل المدينة المنورة بدمشق ، ثم اتصلت بقيادة فيصل ولورنس - الذي رفع الى رتبة كولونيل - بالقوات البريطانية القادمة عبر شبه جزيرة سيناء ، وقذف الجيشان معاً بالقوات التركية الى بئر السبع وغزة (٩ كانون الثاني ١٩١٧) .

وخلال ذلك ، كانت قوة بريطانية ثالثة احسن تجهيزاً من الاولى قدنزلت في مرفأ البصرة وسلكت الطريق نفسه الذي سلكه الجنرال « تاوساند » على مجرى نهر دجلة ، وانتهى الاتراك المرابطون في « كوت العمارة » الى الاستسلام (شباط ١٩١٧) وشق هذا النصر ، الذي محا هزيمة العام الماضي ، طريق بغداد - الموصل امام الحلفاء .

Marfat.com

وتمكن الانكليز من صد الهجمات العثمانية المضادة على اختلاف الجبهات واخذوا يجمعون فرقهم استعداداً للهجوم الاخير . فقد خلف الجنرال اللنبي « الجنرال ارشيبالد موراي » في القاهرة ، وكان القائد الجديد العملاق شديد التفاؤل فوضع خطة تقضي بالتقاء جيش سيناء القادم من الجنوب بجيش البصرة القادم من الشرق ، في جوار حلب . ثم يزحف الجيشان معاً لاحتلال الاستانة .

ومن جهة اخرى كان الجنود الأتراك المفتقرون الى السلاح والذخيرة والمؤونة يموتون بالآلاف جوعاً ومرضاً . فالنتيجة لم تعد موضع شك .

حرص الانكليز ، قبل هجومهم الكبير ، على الحصول على مساندة جميع الزعماء العرب ، لان حملة « اللنبي » تصبح اكثر نجاحاً اذا اشتدت وطأة الفرسان العرب على الجناح الايمن للجيش التركي . فاوفدت الحكومة البريطانية ، لهذه الغاية ، بعثة الى الرياض لدعوة ملك نجد للمساهمة في القتال ، وكانت البعثة برئاسة « سانت جون » و « والورد » و « بلهافن » .

استقبل ابن سعود المبعوثين البريطانيين بحفاوة بالغة في قصره بالرياض ، مع ان العلماء وعامة الشعب استفظعوا استضافته لهؤلاء الأجانب . واصغى ابن سعود باهتمام لاقوال « فيلبي » وبلهافن ، ولكنه تمسك كل التمسك بحياده وفشلت احدى حجج البريطانيين في اقناعه بالتزحزح عن موقفه . لقد كان مقتنعاً بأن الحياد هو السياسة الفضلى ، وان من الخطأ الارتماء دون روية في اتون الحرب .

وكانت دعوة الانكليز لابن سعود للاشتراك في الحملة العربية ضد الاتراك تحمل في طياتها وضعاً يأباه ، لانها تجعله احد الدائرين في فلك الشريف حسين ، ثم انه لا يؤمن بجدية مشاريع الاتحاد العربي التي ترعاها بريطانيا . وهو الى جانب ذلك يؤمن بأن رسالة الوحدة والثورة الصادقة انما تنطلق من نجد قلب الجزيرة العربية ومنبع العروبة الصافي الاصيل .

Marfat.com

وكان ابن سعود يزداد حدة كلما كان يسمع بالمبالغ الطائلة التي تدفعها لندن للحسين لتجنيد المقاتلين من داخل نجد بالذات . وكان يقول للمبعوثين البريطانيين :

– انكم تخطئون في ذلك ، ففي اليوم الذي تنقطع فيه مساعداتكم عن الحجازسينهار الحكم هناك لدى اول ضربة من سيفي، وتتطلع اليّ جميع القبائل تطلعها الى محرر منقذ .

وغادر « بلهافن وفيلبي »الرياض دون اية نتيجة ،ولكنهما خرجا بانطباع جديد بأن ملك نجد ابرز شخصية في الجزيرة العربية وان الفرق شاسع بينه وبين سواه ، وان بريطانيا قد تكون مخطئة بتركيز سياستها العربية كلهـــا على الشريف حسين .

تعثرت العمليات الحربية البريطانية في ذلك الوقت، واضطر الجنرال «اللنبي» الى تأجيل موعد هجومه الكبير مرات عدة . فقد صمد الجنود الاتراك ، رغم سوء وضعهم وافتقارهم الى السلاح والمؤن،وأرغموا القوات الانكليزية على التوقف في خط يمتد من شمالي يافا الى عمان بعد الهجوم الذي اوصلها الى هذه المواقع (١٧ تشرين الثاني ١٩١٧) ثم الى القدس « في التاسع من كانون الاول) .

وازدادت العلاقات سوءاً بين ابن سعود والشريف حسين بحلول العام ١٩١٨ . وشعر الانكليز بحرج الموقف بينهما ، فاصدروا اوامرهم الى الماجور « فيلبي »

Marfat.com

بالعودة الى الرياض على رأس بعثة صغيرة والاقامة فيها بصورة دائمة لتفادي وقوع الانفجار .

وفوجىء الجميع في ربيع العام ١٩١٨ بوقوع حادث غير متوقع كاد يشعل النار في البارود . فقد التحقت بلدة « خرمة » بالاخوان ووضعت نفسها بذلك تلقائياً في حماية ابن سعود .

تقع « خرمة » على تخوم « عتيبة » والحجاز في موضع يجعل ملكيتها مبهمة غير واضحة وكانت مع ذلك سوقاً هامة يؤمها بدو الداخل لبيع قطعانهم من تجار الساحل ولم يكن بوسع الحسين الاغضاء عن انتقال هذا الموقع الهام الى منطقة نفوذ غريمه فأرسل قواته الى « خرمة » لتثبيت حقوقه فيها وسلطانه عليها . وقاوم السكان المحاصرون مقاومة بطولية ، ثم اضطروا الى الاستسلام امام قوات تفوقهم عدداً ، وذبح قسم منهم بأيدي المشاة الحجازيين .

واثار هذا العمل الوحشي موجة من السخط في انحاء نجد وطالب «الاخوان» بالزحف العاجل الى « خرمة » والانتقام لاخوانهم فيها ، وخاطب قادتهم ابن سعود بقولهم :

ـ هيا امتشق حسامك وسر بنا الى المعركة لننقذ اخواننا من براثن الشاذين عن الدين . اليس عاراً ان تبقى الديار المقدسة في عهدة رجل استحل دماء اخواننا في العقيدة .

ورد عليهم ابن سعود بقوله :

– لا ريب في ما تقولون ولكن هناك مصلحة عليا تحملنا على التذرع بالصبر .

لقد وقع ابن سعود في حيرة . فان عواطفه ومصالحه وكبرياء شعبه تهيب به

Marfat.com

الى مهاجمة الحسين ، ولكن الجنرال « فيلبي » وهو يراقب الموقف بدقة وانتباه، كان يذكر الملك دائماً باتفاقية « العقير » ويردد على مسامعه :

– لا تنس ان الحسين حليف بريطانيا وان في مهاجمته خرقاً لبنود الاتفاق .

ورأى « فيلبي » ان يحول انظار ابن سعود عن الحجاز فاقترح عليه الزحف الى دمشق – مما يسهل هجوم اللنبي – او باتجاه الشمال الغربي على مقاطعة «حائل» حيث عين الأتراك والياً يدعى محمداً بن الرشيد هو حفيـد ابن الرشيد السالف الذي يثير اسمه في نفس ابن سعود ذكريات معارك الشباب .

ولكن ملك نجد تردد في الاخذ بهذه النصيحة ووجه كتاب احتجاج عنيف اللهجة الى الحسين يشجب فيه ما يلقاه اهالي خرمة من سوء المعاملة ويطلب منه سحب قواته من المدينة . وكانت بادرة غير موفقة من ابن سعود لانها تفتقر الى دعم عسكري .

وكان الحسين واثقاً من تأييد الانـكليز له فرد الى ابن سعود رسالته دون ان يقرأها وقال للرسول :

– عد الى الرياض وقـــل لعبد العزيز بأن الوقت لن يطول حتى أزحف انا الحسين الى نجد لاطرده واطرد اسرته واقضي على جميع الوهابيين .

قال الحسين ذلك على الملأ حتى يسمعه اي انسان . حتى بلغت الاهانة حداً يبعث على الظن بأن ملك الحجاز كان يسعى بكل الوسائل الى اثارة ابن سعود وتوريطه في مأزق خطير .

ولم يسع ملك نجد ان يدرك كنه تصرفات الانكليز ! ان يمنعوه من مهاجمـة الحسين حليفهم ... فذلك امر طبيعي ، ولكن لم لا يمنعون الحسين من التعرض

Marfat.com

لابن سعود ما داموا يملكون وسائل الضغط عليه ؟ وماذا يعني هـذا التناقض في الموقف، ؟ ايدّعي الجميع بأنهم « اصدقاء » فيما يشحذ كل منهم سكينه لقتـل الآخر !

والواقع ان كثيرين من الانكليز انفسهم لم يفهموا ، مثلما لم يفهم ابن سعود ، ألغاز تلك التصرفات في ذلك الحين ، لانهم كانوا يجهلون مـا اصبح اليوم معروفاً .

فقد كان الماجور « فيلبي » ، الذي يساند ابن سعود ، ينتمي الى « المكتب الهندي » - انديان اوفيس - في بومباي ، التابع لحكومة الهند ، في حين كان الكولونيل « لورنس » الذي يؤيد الحسين، ملحقاً « بالمكتب العربي » ـ ارابيان اوفيس ـ في القاهرة المرتبط بوزارة الخارجية في لندن . وكان كل من المكتبين ينهج سياسة مستقلة عن سياسة زميله ، فـلم تتباين مواقفهما فحسب ، بل غالباً ما كانت على طرفي نقيض .

وكان اهتمام « المكتب الهندي » يدور حول بلاد مـا بين النهرين والطريق « البرية » الى الهند ، لذلك عمل المشرفون على هذا المكتب على التفاهم مع الحكام المسيطرين على ساحل الخليج العربي فاتصلوا بالأمير مبارك خلال اقامته في بومباي واقاموا بفضله محمية في الكويت ثم اجروا بواسطته اتصالاً مع ابن سعود اتاح له تحقيق فتح الاحساء .

اما رؤساء « المكتب العربي » فكان اهتمامهم ، ينصب قبل اي شيء ، على السويس وعدن والطريق البحرية الى الهنـد . فعملوا لذلك على نشر نفوذهم بين الامراء المسيطرين على ساحل البحر الاحمر. فهم الذين فاوضوا الحسين حتى حملوه على التخلي عن الاتراك، ولا بد لهم اليوم من مسايرة اهدافه ومطامحه . واصبحت

Marfat.com

السياسات المتبعة من قبل الجهازين الانكليزيين متعـــادية متخاصمة تعكس خصومات المملكتين المتنازعتين .

لقد تعهد لورنس للحسين بالاتفاق مع « ماك ماهون » سنة ١٩١٦ بتنصيبه رئيساً لدولة اتحادية عربية تنشأ بعد الحرب ، كما تعهد بمنح العراق وسورية لابنه فيصل ، وشرقي الاردن وفلسطين لابنه عبد الله . ولكن وزارة الخـــارجية البريطانية وقعت بعد ذلك بالاتفاق مع اللنبي معاهدة تمنح فرنسا بموجبها حق الانتداب الفرنسي على سورية خلافاً للتعهدات المقطوعة لفيصل [١] وتعهد اللورد « بالفور » من جهة اخرى للصهيونيـــين بالمساعدة على انشاء « وطن قومي » لليهود في فلسطين خلافاً للتعهدات المقطوعة لعبد الله بن الحسين [٢] .

وقع لورنس في الشرك ولم يعد مؤلف « اعمدة الحكمة السبعة » يعرف كيف يتصرف ، فقال في كتابه : « كنت احد ضبـاط اللنبي وكان يتوقع مني ان افعل كل ما في وسعي لخدمته ، وكنت مستشار فيصل وكان يعتمد على شرفي وعلى نفوذي ، الى حد انه غالباً ما كان يأخذ بآرائي فوراً . ولم يكن بأستطاعتي مـع ذلك ، ان اشرح للجنرال « اللنبي » حقيقة الموقف ، ولا ان اكشف لفيصل مخططات الانكليز [٣] . »

لم يقف الامر عند هذا الحد . ولم تر الحكومة البريطانية بأساً ، في تلك الظروف الحرجة ، من نثر الوعود ذات اليمين وذات اليسار ، ومن التبرع بما لم تكن تملكه بعد ، فوعدت العرب ـ او بالاحرى لجنة من الاستقلاليين العرب في القاهرة ـ بالاراضي العربية التي يحتلها العثمانيون . ثم شاءت الحكومة البريطانية

---

١ – معاهدة سايكس بيكو ٦ ايار ١٩١٦

٢ – وعد « بالفور » الى اللورد روتشيلد ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ .

٣ – « اعمدة الحكمة السبعة » .

Marfat.com

ان تقيم الدليل على مقدرتها في بذل الوعود بنسبة عدد الفرقاء فأضافت الى الملفات الخاصة بالشريف حسين ، والحلفاء ، واللجنة العربية ، ملفا اخر خاصاً باللورد « روتشيلد » والحركة الصهيونية العالمية . واتجهت الى محاولة اجراء مفاوضات منفصلة لانهاء الحرب مع الاتراك تحمل في طياتها ـ كما يقول لورنس : « الموت لعدد لا يحصى من العرب الذين يقاتلون الى جانبنا » .

هذه الوعود المتناقضة كانت حصيلة الخلافات والمنازعات بين الاجهزة البريطانية ، ولم يهتم بها خبراء « داوننغ ستريت » كثيراً لاعتقادهم بأن النصر كفيل بتسوية كل شيء . الا ان هذا كله انعكس على الموقف في الشرق الادنى ومالت الاجهزة الى التحزب للجبهة التي تتعامل معها ، فاخذ لورنس يرمي بطاقاته جميعاً لصالح الحسين ، بينما انحاز فيلبي الى ابن سعود . وكان النزاع بين الضابطين البريطانيين يتفاقم بنسبة اشتداد الازمة بين ملكي نجد والحجاز .

تجددت الاضطرابات في « خرمة » مرة اخرى ، اذ قام السكان بطرد حامية الحسين في حركة يائسة واستعدوا لاستئناف المقاومة واهابوا بابن سعود ان يسارع الى نجدتهم ، فلم يبد حراكاً شأنه في المرة السالفة .

وقام العلماء والاخوان يندّدون : ما هذا الموقف ؟ ان جنود الحسين يقتلون اخواننا فيتفرج ابن سعود على المذبحة ، ولا يهب لنجدتهم ويبخل عليهم حتى بكلمة تأييد !

ومرة اخرى وجه اهل « خرمة » نداء استغاثة الى اخوانهم في نجد ، وكان النداء مؤثراً وكان له دوي كبير .

Marfat.com

واعتكف ابن سعود في قصره ، ساكتاً لا يتكلم الا نادراً ، فالحيرة قد شلت « فهد الصحراء » ، فما عساه صانع ؟ ان النزول عند رغبة الجيش معناه خرق معاهدة «العقير» وسيكون رد فعل الانكليز سريعاً فيقضى على الاخوان ويضيع عرش نجد والاحساء وتذهب بلاده نهباً، وسيقتسمها الطامعون بعد انتهاء الحرب وتفرض على شعبه السيطرة الاجنبية او يهمل وشأنه ، فتنهار وحدته ويغرق مرة اخرة في الفوضى .

ولكن القعود عن اية حركة سيرسخ الاتهامات الكاذبة في عقول الناس بأنه يمالىء الانكليز ، وسيثير ازمة داخلية . فيا له من سيف ذي حدين ، ويا له من موقف شائك لم يواجه ابن سعود مثله من قبل ...

وعلم على حين غرة ، بأن محمداً بن الرشيد ، الذي تأكد من فشل الاتراك في الحرب ، قد انتقل فجأة الى معسكر الحلفاء ، وان الحسين قدم له السلاح والعتاد سراً ليهاجم الرياض ، فاسترد ابن سعود كل حيويته وتهيأ الفهد للوثوب . فلن يكون في وسع الانكليز الاعتراض ، ما دام هو المعتدى عليه . ثم الم يحرضوهم انفسهم على التخلص من ابن الرشيد ؟ وما دام الاخوان يتحرقون شوقاً للقتال فلم لا يتولى قيادتهم لسحق العدو التقليدي **للاسرة** ؟ وتكون هذه المعركة بمثابة تفريج للكبت الذي يعانيه المحاربون .

قرر ابن سعود الدعوة الى اجتماع شعبي كبير يحضره ممثلو الشعب في مدينة « شقرا » المركز الهام من مراكز الاخوان ، واستدعى قادة الجيش على عجل ، فلبوا الدعوة بلهفة لا تقل عن لهفتهم الى القتال،وما توقعوا الا ان الملك يستدعيهم ليعلن لهم بدء المعركة ضد الحسين .

Marfat.com

ووصل القادة واتباعهم الى « شقرا » الواحد بعد الآخر فكان ابن سعود يستقبلهم عند باب المدينة ، حتى لاح صبح اليوم التالي فاحتشد سكان « شقرا » والقرى المجاورة ، والقادة العسكريون واتباعهم ، في سهل رملي يقع شمالي المدينة وجاء الملك فجلس قبالتهم يحوطه حرسه الخاص . انه اضخم حشد عسكري عرفته الجزيرة العربية حتى الآن .

نهض ابن سعود وتفرّس ملياً في وجوه الحاضرين وقال :

ـ لقد دعوتكم لا ني بحاجة اليكم . فقد قررت بعد تفكير طويل اعلان الحرب .

فتفجرت الحناجر بهتافات صافية تستقبل تصريح الملك ، فالساعة قـــد حانت لتنفض غبار الجمود وتمسح عن جبينها عار اللامبالاة . واردف الملك في هدوء :

– لقد قررت اعلان الحرب . واما العدو الذي اطلب اليكم قهره فهو محمد ابن الرشيد .

فتجهمت الوجوه ، وهمدت حماسة الجماهير . وسرت بينها همهمة تعبر عن الاستياء. ووقف القادة العسكريون الجالسون في مقدمة الصفوف وطلبوا السماح لهم بالكلام وقال كل بدوره :

– ماذا يعني ذلك ؟ وما يهمنا من ابن الرشيد ، فليس هو ، بل الحسين ،من ينبغي قتاله .

ولما لم يجب ابن سعود نهض فيصل آل الدويش ، القائد الاعلى للاخوان ، وطلب الكلام باسم الجيش كله ، فقال بالحاح :

– اننا نطالب بمحاربة الشريف حسين ،الذي يفتك باخواننا في « خرمة » .

Marfat.com

اننا نطالب بمحاربة اعداء الدين ، ألم تجندنا انت وتعلمنا وتدربنا لهذه الغاية ؟ ليس لك غير كلمة واحدة تقولها يا ابن سعود ونمشي وراءك حتى الموت ، شرط ان تقولها ضد الحسين الذي انتهك حرمة الديار المقدسة ، وعليك ان تعلم باننا لن نخضع لرغبات الاجنبي .

اصغى ابن سعود الى الدويش ولم يقاطعه ، لانه يعرف ما يدور في خلد قائد الاخوان. لقد قيل له ان المعركة ضد محمد بن الرشيد اوحى بها الانكليز وستكون لصالحهم . فقد كان الدويش يكره الانكليز كرهاً عظيما . وذلك ما حداه الى انتقاد الملك في موقفه هذا الى جانب مصلحة الاجنبي .

ها هو الدويش يتكلم وخلفه قادة الاخوان وضباطهم يحتلون عدة صفوف وامارات وجوههم تنذر بعاصفة على وشك الهبوب . فلقد تكاثر عددهم في السنوات الاخيرة واصبحوا قوة يخشى بأسها في البلاد ... قوة تسعى الى فرض ارادتها والسيطرة .

اية كارثة يواجه ابن سعود !. فالاخوان الذين هم صنع يديه ، والذين اوجدهم من العدم وتعهدهم بالرعاية منذ كانوا حفنة من المتطوعين حتى اصبحوا الجيش الأول في الجزيرة العربية ، ها هم اليوم على عتبة التمرد وفي ذروة الغضب ، فهل يتلقى ابن سعود ضربة سيف صقله ودأب على العناية به طوال سنين . فابن سعود خير من يعرف طبيعة جيشه وتكوينه ، وما غاب عن ثاقب نظره ان ذلك الجيش يقف في تلك اللحظة على شفير الثورة، وان خطاب الدويش قد الهب حماسته . واذا لم يقبض سريعاً على ناصية الأمور فان زمام جيشه قد يفلت منه الى الابد . ولكنها كانت عملية دقيقة ، فكلمة غير واضحة او بادرة تحمل على غير محملها او اشارة يساء تأويلها قد تدفع الاخوان الى ازاحة الملك والزحف الى مكة لسحق الحسين . واذ ذاك ، فلا مناص من فاجعة تحل بالاخوان،اذ لا ريب

Marfat.com

في ان الانكليز سيقضون عليهم بدفق من قنـــابل مدافعهم ومصفحاتهم وطائراتهم .

لم يكن على ابن سعود في تلك اللحظة الحرجة وهو يتخيل المجزرة الرهيبة ، ان ينقذ عرشه وحسب ، بل كان عليه ان ينقذ هؤلاء الرجال جميعاً ويصدهم عن الانزلاق الى مغامرة انتحارية .

ومرت دقيقة صمت اطول من دهر قبـل ان يقف ابن سعود ليقول بصوت بدأ هادئاً ، وازداد حدة كلما ازداد الملك انفعالاً :

ـ سمعاً يا اخوان ، يا من تسمون بجنود الملك وانها لتسمية لا يدرك معناهـا الا من شاهدنا معاً في غمرات المعارك وساحات القتال . فالعواطف التي اكنها لكم ليست عواطف رئيس نحو مروؤسيه فحسب ، ولكنهـــا مشاعر اخ نحو اخوانه وأب نحو ابنائه . فباسم هذه المشاعر اتكلم ومنهـــا استوحي ما اقول وليس لي بعد الله من معين سواكم . اننا معاً كفيلون بتحقيق كل شيء ، واما اذا انفرط عقدنا فلا بد من تضاؤل شأننا . فلا يظنن احد منكم انني اعبث بما يترتب علي من واجبات ومن قال لكم هذا القول فهو شانىء نمـــام يستغل طيبة قلوبكم ويجهل ما ينوء به كاهلي من مسؤوليات جسام . ايخيل اليكم ان آلام اخواننـــا فى « خرمة » لا تثيرني وتحز في نفسي مثلما تثيركم وتحز في نفوسكم ، ولكني اعرف ما تحتمه الضرورة . فكفوا عن الاهتمام بأمر الحسين . ويميناً بالله إما ان يمنعه الانكليز من تكرار اعتداءاته على « خرمة » واما ان نمشي اليه معـــا لننزل به العقاب الذي يستحق .

بعثت هذه الكلمات الاخيرة الارتياح في صفوف الجموع وبـــدأ ابن سعود يستعيد مواقعه . فقد كان يعرف كيف يتحدث الى اولئك الرجـــال وينفذ الى اعماق قلوبهم . خطيب لا يجارى يكاد يقرأ افكار الذين يتحـــدث اليهم ،

Marfat.com

واذا تحدث الى جنوده تغلغل الى قرارة صدورهم واحل ارادته محل اراداتهم[1].

اي مشهد ! واي معركة ! اين تكافؤ القوى ؟ هذا عبد العزيز بن سعود ، وهو وحيد ، اعزل ، يقابل جمعـــاً مسلحاً تعصف به الثورة ، فيسيطر عليه ببضع كلمات .

وتابع عبد العزيز :

– واما بشأن محمد بن الرشيد فالانكليز قد استعجلوني حقـاً امر قتاله ، ولن احاول ان اخفي عليكم هذه الحقيقة ولن يجني ثمار المعركة والنصر سوانا نحن ، سيقدمون لنا السلاح والذخيرة وسنصبح في موقف افضل لتسوية الحساب مـع الحسين . وسيرفع الانكليز يدهم عن قبائل الصحراء جميعـــاً متى فتحنا اقليم « حايل » ، واما الحاكمون المفسدون في اطراف البلاد فسيخضعون لسيطرتنـا ويتاح لنا اذ ذاك ان نعيش في سلام .

ظل ابن سعود يخطب ساعتين ، على هذه الوتيرة . وما ان انتهى حتى تقدم قادة الاخوان واحداً بعد الآخر ، فجثوا بين يديه وطلبوا اليه ان يغفر لهم سوء ظنهم به :

– لقد ساورنا الشك يا عبـد العزيز وخدعنا المغرضون بما اثاروه حولك من اقاويل ولكننا ندرك الآن خطأنا . فلأنت ذروة الحكمة والتعقل وحاشى ان نجادل في اوامرك بعد اليوم وانت وحـدك قائدنا في طريق العزة والكرامة . اننا وراءك يا ابن سعود لقتال ابن الرشيد اذ تطلب اليوم، وسنكون غداً معك لقتال الحسين كما قطعت الوعد .

---

١ ــ ارمسترونغ في كتابه عن الجزيرة العربية : « لورد اوف ارابيا » .

Marfat.com

واختتم الاجتماع بصلاة الجمعة ثم غـــادر ابن سعود المدينة وودّع جنوده قائلا :

ـ ما خامرني يوماً اي ريب بولائكم لي، فأنبذوا ذوي النوايا السيئة ، حؤولاً دون نثر بذور التفرقة بيني وبينكم ، والتحقوا بمواقعكم وهيئوا رجالكم ، فموعدنا في « بريدة » ليلة الهلال الجديد ، وعسى الله ان يؤتينا النصر .

اخترق ابن سعود اقليم « حائل » على رأس طلائـع جيشه . وكانت المعركة قصيرة اذ انقض بسرعة البرق الخاطف على قبائل « شمر » فبدد شمل قوات محمد ابن الرشيد وارغمه على الفرار الى العراق . ثم عين حكاماً مخلصين للمدن والقرى الرئيسية في المنطقة ووزع الهدايا على المحاربين الذين لمعوا في المعركة ، وقفـــل عائداً الى الرياض حيث هب الشعب لاستقباله اروع استقبال .

واستعاد ابن سعود هيبته في نظر رعاياه بعد ذلك الهجوم الصـاعق الذي افضى الى النصر وضم اقليم جديد الى المناطق الخـــاضعة لنفوذ السعوديين، فمنذ عهد سعود الكبير والسعوديون عاجزون عن اخضاع « حائل » .

ورأى العلماء بان الاوضاع قد تبدلت في الرأي العام لصالح الملك المظفر فبادروا الى تهنئته والتعبير عن ولائهم له واقيمت الصلاة في المسجد الكبير بالرياض شكراً لله ، ونودي بابن سعود « سلطاناً على نجد وملحقاتها » .

* * *

ادى فتح « حائل » الى اتساع المناطق الخاضعة لنفوذ ابن سعود بنسبة الثلث

Marfat.com

وامل ازدياد عدد رجاله واشتداد مكانته . وتوفرت للملك خصوصاً استراحة في صراعه مع الشريف حسين .

ولكن شريف مكة وقد انتفخ اكثر في وقت مضى ، لم يكن يدع فرصة تعرض الا واستغلها لاثارة السعوديين الى اقصى حد . فلما انتقض سكان «خرمة» للمرة الثالثة اصدر اوامره الى ابنه عبد الله بالزحف على المدينة وابـــادة الثوار .

لم يكن في وسع ابن سعود ان يصبر هذه المرة ايضاً ، والا خسر نهائياً ثقة الاخوان . الم يقسم لرؤوسهم في اجتماع « شقرا » بانه سيتولى قيادة قواته لمحاسبة الحسين اذا أعاد الكرة على « خرمة » ؟ فلا بد له من ان يبر بوعده حيال هذا الاعتداء الجديد ، مهما كان من اتفاق « العقير » . فقد طـــال الصبر على التحدي .

وتدخل الانكليز لفرض وساطتهم ، فيما كان كل من ابن سعود والحسين يستعدان للقتال . فقد ضاقوا ذرعاً بهذا النزاع ، حول واحة مجهولة ، تستقطب حيوية الملكين العربيين ، في الوقت الذي يتحتم فيه توجيه الضربة القاضية الى تركيا ، فعقدوا مؤتمراً في القاهرة دعوا اليه ملك نجد .

وكان نفوذ « لورنس » ورؤساء « المكتب العربي » هو المسيطر الاقوى في العاصمة المصرية ، وكانت نظرياتهم هي السائدة . فهم يرون ان الحسين حليف لبريطانيا ، وان الحاجة ماسة اليه ما دامت الحرب لم تنته بعد ، وان الضرورة تقضي ، لذلك ، بمراعاة شعوره . واما ابن سعودفليس،في نظرهم ، سوى مغامر مغتر يمشي في ركابه الحظ،واذا سولت له نفسه مهاجمة الحسين ، فان هذا الاخير سيقذف به الى اواسط شبه الجزيرة العربية دون مشقة ، بفضل قواته المدربةعلى ايدي الخبراء الانكليز ، والخاضعة لاشراف ضباط سوريين. ومع ذلك،فالتحذير

Marfat.com

جدى من العلاج ، وما دام ملك نجد مصراً على ركوب رأسه ، فلسوف نلقنه درساً لن ينساه .

دعوا ابن سعود للمثول امامهم ، وابلغوه من علٍ انهم لن يتحملوا اي حركة نزق منه ،ونصحوه ولكن بلهجة من يأمر ، بالتخلي عن «خرمة » لملك الحجاز . واذا لم يأخذ بهذه النصيحة فسيقطعون عنه المساعدة ويدعمون الحسين بكل ما يملكون من قوة .

وكان ذلك كثيراً على كرامة ابن سعود ، فرد عليهم باعتزاز وهو يتدثر بعباءته :

ـ ليس النصر من عندكم ، ولكنه من عند الله يؤتيه من يشاء . لقد مر زمن طويل ،وانا اصدّ قواتي عن مهاجمة الحسين لاظل وفياً للمعاهدة التي ابرمتها معكم. ولم افعل ذلك خشية او رهبة بل محافظة على كلمتي وإني لاحمد الله ان توقفتم عن دفع المساعدة لأن ذلك يطلق يدي فأتصرف كما اشاء وانقذ سمعتي وشرفي .

ورجع الملك الى الرياض ممتعضاً من سوء المعاملة الذي لقيه في القاهرة مصمما على مناوأة الانكليز .

٤٨

زحف الامير عبد الله بن الحسين قادماً من الغرب الى « خرمة » مطمئناً الى التأييد البريطاني التام على رأس قوة نظامية قوامها اربعة آلاف جندي من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان البدو . وكان ابن سعود يتقدم في الوقت نفسه على رأس

Marfat.com

قواته من الاخوان قادماً الى المدينة من الشرق وكان المحاربون السعوديون في ذروة الحماسة، فلقدوفى الملك اخيراً بوعده،ولما اوشك الجيشان المتعاديان على الاقتراب من « خرمة » قرر خالد بن لؤي شيخ المدينة وقائد مقاومتها طوال الاشهر الماضية ان يتولى بنفسه زمام المبادرة .

فقد جاء المخبرون من الاخوان ينقلون اليه معلومات مشجعة عن الحملة الهاشمية التي عسكرت في واحة مجاورة لبلدة « تربة » واكدوا له ان عبد الله لم يجد ضرورة لاقامة الحراسة حول معسكره ، لثقته بأن جيشه في مأمن من اية مفاجأة . كانت ليلة حالكة السواد في اعقاب عاصفة هوجاء هبت عند المساء وضباب كثيف يلف كل شيء .

كان قد وصـــل الى « خرمة » منذ بعض الوقت عدد من محاربي الاخوان ـ حوالي اربعمائة قدموا لمؤازرة السكان المحاصرين ـ ، فجمعهم ابن لؤي وسار بهم ليلاً حتى ادرك على حين غـــرة معسكر الامير عبد الله . كان العدو نائماً والضباط هاجعين بثياب النوم . وتسلل الفدائيون الاخوان الى الخيام بكل هدوء متسترين بالضباب ، وراحوا ينحرون الضباط والجنود طعناً بالخناجر . ولم يتسع الوقت امام عبد الله الا للوثوب على ظهر جواده والفرار لينجو من المجزرة .

وانطلق عبد الله يجري به جواده دون توقف مرتعداً من البرد والخوف حتى ادرك مكة فصعد سلم القصر قفزاً وايقظ والده من النوم وابلغه نبـأ الكارثة . ان مئة لا غير من اصل ٤ الآف رجل من القوات النظامية تمكنوا من النجـاة واستولى السعوديون على كل الاسلحة والذخائر والمؤن والمطايا . فصـــار جيش لحسين الى العدم (١٣ حزيران ١٩١٨) .

ساد مكة غم شديد . وكانت المدينة المقدسة تعجُّ في ذلك الفصـل بالحجاج

Marfat.com

فأثار اعلان قرب وصول ابن سعود وفرسان الاخوان بين صفوفهم موجة من الذعر لاتوصف، وتدافعوا جماعات جماعات على طريق جدة لركوب البحر. واصيب الحسين بنوبة من الغضب الهستيري الشديد . فطرد عبد الله من القصر ، وحظر عليه الظهور امامه بعد اليوم ، ووجه برقيـــة استغاثة الى الانكليز يرجوهم بها الاسراع لنجدته

دخل ابن سعود مع جيشه « تربة » في الصباح وطاف في ساحة المعركة سيراً على الأقدام فأذا هي تغص بالجثث وصنـــاديق الذخيرة المبعثرة واكوام المؤن والاسلحة المهجورة . ان فصيلة من الاخوان الفدائيين كانت كافية للقضاء عـلى القوات العدوة دونما حاجة لتدخل مجموع الجيش . فالاخوان ولا شك جهـــاز عسكري ممتاز لا نظير له في البلاد العربية . لقد اصبحت طريق مكة مفتوحة امام ابن سعود ، والحجاز الاعزل كله تحت رحمته .

الظفر في متناول ملك نجد ، فليس أمامه سوى جهد بسيط ، فيستولي على الديار المقدسة ، ثم ينحدر جيشه نحو البحر الاحمر .

في غمرة هذه الظروف تلقى ابن سعود انذاراً من الانكليز يمهلونه فيه ست ساعات لجمع صفوف جيشه والعودة الى الصحراء الوسطى . والا فإنهم يوجهون لقتاله فرقة من الاستراليين ، وتشكيلات آلية وعدة اسراب من الطائرات .

استشاط ملك نجد غيظاً وهو يقرأ الانذار البريطاني وادرك ان ليس لديه ما يفعله سوى الرضوخ للأمر الواقع. فتصفية بقايا قوات الحسين امر يسير ، ولكن مواجهة الامبراطورية البريطانية شيء آخر . فجمع قـــادة الاخوان وامرهم بالعودة . انها محنـــة مرة ادمت فؤاد الملك . ومع ذلك فإنه استرد السيطرة على قواته ، واطاعه الجميع دون اي اعتراض فقد اتضح لهم الآن ، لمـاذا تردد مليكهم طويلاً في خوض المعركة ، فـلم يكن السبب كما تخيلوه تواطؤاً مع

Marfat.com

الانكليز . وادار ابن سعود ورجاله ظهورهم الى مكة وسلكوا سبيل الصحراء الوسطى صامتين ، بعـــد ان خلفوا وراءهم حامية صغيرة في « خرمه » لصد اي اعتداء محتمل .

لقد حرم ملك نجد في الدقيقة الاخيرة من فتح الحجاز والوصول الى الديار المقدسة ولكن المعركة قد تأجلت ولم تنته بعد . وكان يقول في نفسه : « صبراً فلن يكون الانكليز حاضرين دائماً لحماية الحسين ! »

وكان كل من جنوده يردد في ذاته صامتاً ، ما يجول في خاطر ابن سعود .

٤٩

شرعت قوات لورنس واللنبي ، الانكلو ـ عربية في شن هجومهـــا الاخير الكاسح على الاتراك ، (١٩ ايلول ١٩١٨) ، بعد ان تعثرت عاما كاملاً امـــام الخطوط العثمانية التي كانت تسيطر عليها منذ كانون الأول ١٩١٧ على جبهة تمتد من شمالي يافا الى مدينة عمان .

وكانت القوات الانكليزية تضم فرقاً بريطانيـــة ، ونيوزيلندية وهندوسية ، على اكمل تجهيز واحسن حال من حيث المؤونة ،تواجهها ثلاثة جيوش تركية ،هي الجيش الثامن والسادس والرابع وقد تحولت الى شبه هياكل عظمية اذ كانت في عوز الى كل شيء . وكان مصطفى كمال قد وصل منـــذ بعض الوقت الى نابلس وبذل ، دون جدوى ، جهوداً فوق طاقة البشر لرفع معنويات الجنود المنهارة .

وقد اسفر الهجوم البريطاني الكبير ، بعد شنه بأربع وعشرين ساعة ، من

Marfat.com

خرق الجبهة التركية على طول ساحل البحر، وتطويق الجيش الثامن لذي يقوده الكولونيل رفعت ثم تحولت الهزيمة الى اندحار كامل فتفككت الفرق العثمانية وتراجعت دون انتظام نحو الشمال ، بعد ان حشرت في الاردن وقصفت بقنابل سلاح الجو الملكي وتعرضت لغارات متواصلة من قوات فيصل فانفتحت طريق سورية امام الانكليز .

دخلت الوحدات البريطانية دمشق بعد ان اسرت خمسين الف جندي تركي واقيم للنبي ولورنس استقبال شعبي حافل وغمرت الفرحة جميع الشعوب العربية، فإن ساعة الحرية قد دقت .

وفي الثلاثين من تشرين الأول ١٩١٨ وقعت حكومة السلطان اتفاق الهدنة الذي سجل هزيمتها وانتصار الحلفاء والقت المانيا السلاح بعد ذلك بأثني عشر يوماً . وانتهت الحرب العالمية الأولى .

* * *

تقطعت اوصال الامبراطورية العثمانية . وانبثقت عنها مجموعة من الدول والامارات « المستقلة » او « ذات السيادة » او « ذات نصف السيادة »، حسب الوعود المقطوعة لها . ونجمت عن ذلك كله متاعب جمة لرؤساء الدول الغربية . وحاول ممثلو الدول المنتصرة المجتمعون حول مائدة خضراء في باريس ، اعادة وصل ما تقطع من ذلك العالم المهشم : ارمينيا ، كردستان ، العراق ، سورية ، لبنان ، فلسطين ، شرقي الاردن ، الحجاز ، اليمن ، اواسط الجزيرة العربية ، السويس ، عدن ، العقبة ، الموصل ، الكويت . مشاكل بقدر ما هنالك من اقطار . فكل حدود تثير مطامع مكبوتة او مكشوفة، وكل اقليم كان سبباً في

Marfat.com

مساومات لا تنتهي ، وكل قرية كانت كفيلة بأثارة النزاع . فان الحلفـاء لم يرثوا اشلاء الامبراطورية العثمانية فحسب ، بل ورثوا مشكلاتها ايضاً .

وكانت اقطار الشرق الادنى والاوسط ، حتى ذلك الحين ، يضمهـا الوجود البريطاني . وكان الانـكليز في ذروة سطوتهم ، لهم حامياتهم العسكرية في القاهرة والاستانة وبغداد وحلب ودمشق والموصل والقدس والبصرة ، وتمتـــد منطقة نفوذهم من الاهرام حتى البوسفور ، ومن البلقـان حتى الهند . فقد بسطت حكومة لندن حمايتها على مصر منذ مطلع الحرب (١٨ كانون الأول ١٩١٤) . واستغل « سير برسي كوكس » ، قنصل بريطانيـا السابق في الكويت ، والذي كان قد عين مفوضاً ساميـــاً في بغداد فرصة انهيار القيصرية في روسيا في نهاية الحرب ، فالغى الاتفاق البريطاني – الروسي المعقود في العام ١٩٠٧ وفرض على طهران معاهدة حماية تشمل الاراضي الايرانية كلها (٩ آب ١٩١٩) . وهكذا بدأت تتكون « امبراطورية الشرق الاوسط » .. تلك التي حلم بها «دزرائيلي» و « بالمرستون » و « تشمبرلن » ، لتكون بمثابة صلة وصل بين شرق المتوسط والهند ، وبين قبرص وبومباي .

ولكن حكومة لندن في الوقت الذي بدأت فيه بريطانيا تشهد تحقق الآمال التي داعبت خيالها منذ اكثر من قرن ، وجدت نفسها عاجزة عن الاحتفـاظ الى النهاية بالمناطق التي تحتلها ، فإن ذلك كان يتطلب قوات ضخمة ويستوجب نفقات باهظة ويستدعي الاستمرار في التعبئة العـــامة في حين كان الجنود البريطانيون الذين نهكتهم الحرب يطالبون بتسريحهم ، وكانت جموع المتظاهرين تمر امام وزارة الدفاع في لندن حاملة لافتات كتب عليها : « اعيدوا الينـــا ابناءنا ». وكان المكلفون البريطانيون الرازحون تحت عبء الضرائب يلحون على الحكومة مطالبين بتخفيض نفقاتها الى الحد الادنى وتصفية الاحتلال الخارجي ، لقد انتهت الحرب ولم يعد اي مواطن بريطاني يرغب في التضحية بالرجال وبذل

Marfat.com

المال في سبيل توسيع امبراطورية كانت تغطي حتى الآن خمس الكرة الارضية .

فهل اصبح لزاماً ـ والحالة هذه ـ التخلي عن قطف ثمار سنين عديدة من الجهود الدبلوماسية والعسكرية ؟ .. كلا .. اجاب لورنس ، الذي رأى ان الوقت قد حان لتحقيق مشاريعه .

اذا كانت بريطانيا عاجزة عن ان تحتل او تحكم بنفسها مناطق الشرق الادنى ، فلم لا يعهد الى ملوك وطنيين بإدارتها لحسابها ؟ وهكذا تستمر انكلترة على الافادة سياسياً واقتصادياً من تلك المناطق : فكل شيء يتوقف على حسن اختيار رجال يوحون بالثقة . وكان للهاشميين في حساب لورنس جميع المؤهلات ، تعدهم بريطانيا منذ تشرين الأول ١٩١٥ بالمناطق الواقعة بين مصر وخط حلب – الموصل – بغداد ـ البصرة ، فلا بد اذن من تنصيب عبد الله ملكا على شرق الاردن وفيصل ملكاً على العراق وسورية فتؤلف هذه الأقطار الثلاثة مع الحجاز اتحاداً عربياً يرأسه الوالد الملك حسين . وما دام هذا الاخير شريف مكة فإنه من السهل جعله خليفة للمسلمين . اجل ان سلطان الاستانة ما زال يحتفظ بهذا اللقب ولكن الهزيمة قد اضعفته الى حد يجعل انتزاعه منه امراً ميسوراً .

وكان لورنس يؤكد ، ان الحسين سيكون « متفهما » و « مرناً » وسيكون في وسع بريطانيا ان تهيمن بنفوذها على قرارات الخليفة ، وليس ذلك بالقليل الذي لا قيمة له ، لان سلطته الروحية ستمتد حتى ماليزيا والهند حيث يعيش اكثر من مئة مليون مسلم .

ولورنس انذاك في ذروة مجده . كان طاووس الصالونات اللندنية ، لا تمل حسان السيدات من الاستماع الى قصص مغامراته . ولم يتردد « برنارد شو » ،

Marfat.com

الذي وافق على مراجعة المخطوطة الاصلية لكتاب « اعمدة الحكمة السبعة »، من القول بأن اسلوباً رائعاً كهذا لم يبصر النور في انكلترة من قبـــل . وكتب « لويل توماس » يقول ان مغامراته الباهرة وصفاته النادرة ستشكل مادة مثلى لكتاب المستقبل . حتى ان تشرشل نفسه الذي لم يكن قد نفض غبـار هزيمة الدردنيل ، لم يخف غيرته من هـــذا المنافس الشاب . واستغل لورنس جو الاساطير التي نسجت حول مغامراته ، ومعاركه التي بدأت عند قدمي سيناء ، وانتهت في ربى دمشق . وكان ملك العرب غير المتوج هذا يتنزه في حديقة « هايد بارك » بعقاله المذهب ، وعباءته البيضاء ، وجزمته الحمراء وقد تدلى في وسطه خنجر من الذهب معقوف من خناجر امراء مكة . وكان حراس قصر « بوكنغهام » يؤدون التحية مشدوهين لذلك البدوي ، ذي العينين الزرقـاوين الذي يحمل ارفع الاوسمة الانكليزية . وضاعف لورنس جهوده في لندن وباريس وفرساي مردداً ان الوقت قد حان للوفاء بالوعود التي بذلت للشريف حسين واسرته .

٥٠

اما في الواقع فكانت الامور على غير ذلك ، وكان لورنس يحـاول ان يخفي ما وراء تأكيداته من ارتباك عظيم .

ألم يقل في كتابه :

« ان رجال الثورة العربية قد أُخذوا بالخداع . فالحكومة البريطانية كانت قد وعدت الشريف ، بواسطة هنري ماك ماهون ، بانها تؤيد قيـام حكومات عربية في بعض اجزاء سورية والعراق ، لقاء خدماته ، وذلك « مع الاحتفاظ بما لحليفتنا فرنسا من مصالح » . ان وراء هذا التحفظ معاهدة كان يجهل ماك

Marfat.com

ماهون (وبالتالي الشريف حسين) وجودها ، ولم يعـــلم بها الا عندما فات الأوان . معاهدة اتفقت فيها فرنسا وانـكلترا وروسيا على احتلال بعض اجزاء المناطق الموعود بها ، وعلى اقتسام الباقي بوصفه مناطق نفوذ .

« بلغت انباء هذا التلاعب آذان العرب ، عن طريق تركيا ، والعرب يولون ثقتهم الاشخاص ، اكثر مما يولونها المؤسسات ، فقاموا ، وقد خبروا صداقتي واخلاصي في غمرة المعارك ، يطالبونني ، بوصفي عميلاً حراً ، بضمان وعود الحكومة البريطانية . ولم اكن قد احطت علماً رسمياً ، ولا لفت نظري وديا ، الى ارتباطات ماك ماهون ومعاهدة سايكس ـ بيكو : هذا كله كان قد اعد في دوائر وزارة الخارجية البريطانية. واذ لم اكن غبياً، فكنت ارى اننا سوف لن نبر بوعودنا للعرب في اعقاب النصر . فلو كنت حقاً مستشاراً مخلصاً،لكنت ارجعت جنودي الى بيوتهم ، وما عرضتهم للموت طمعاً باوهام كهذه. ولكن ألم تكن الحماسة العربية العنصر الاعظم في حربنا في الشرق الادنى . فكنت اذن اؤكد لرفاقي في النضال ان انكلترا تحترم وعودها نصاً وروحاً .واذ كانوا يطمئنون الى ما اقول ، فقد كانوا يقاتلون في بطولة . اما انا فقد كنت أبعد ما اكون عن الافتخار بهذه الاحابيل ، وما فتئت اجتر في داخلي مرارة العار ...

« وكنت اقسم ، حيال هذا، ان اجعل من الثورة العربية آلة لصالح قومها ، بقدر ما كانت تخدم مصلحة جيشنا المندفع من مصر . وكنت قد وعدت نفسي بان اقودها الى نصر مبين برغم الدول الكبرى ، في سياستها الانتهازية ، على دعم مطالب العرب . هذا كله كان يقتضي البقاء حياً يوم نبحث معاهدة الصلح لكسب المعركة الاخيرة في قاعة مجلس الوزراء . اما ان تكون هناك خديعة ، فلا يمكن ان يرتاب في الامر .

« اجل لم يكن يحق لي ان ازج العرب ، وهم غافلون ، في لعبة حياة او موت . لا ، ولا ظل حق . لان حصاراً مريراً كان ينتظرنا ثمرة جهود بطولية ؟ مرارة نجنيها

Marfat.com

عادلة . وهكذا فبدافع الحقد الناشيء عن اوضاعي الخاطئة ، اوضاع ضابط من الصف الثاني يبتعد الى هذا الحد عن الحقيقة لتغطية رؤسائه ، قمت بهذه الرحلة الطويلة المحفوفة بالمخاطر .. »

فاذا كان لورنس قد دافع بهذا القدر من العناد عن مصالح الحسين وابنائه ، فما ذلك إلا لأنه — كما يقول هو نفسه — كان يخوض « معركته الاخيرة » فعلى قرارات مجلس الوزراء يتوقف كل شيء ، وسيرى على ضوء هذه القرارات ، اي بقدر اعتبارها او تجاهلها ما 'وعدبه الهاشميون،اذا كان قدربح الجولة اوخسرها؟ اذا كان هو نفسه بطلاً ام مغامراً ، نبياً ام دجالاً، ولم يكن يهمه ذلك بالنسبة الى الاجيـال القادمة ، وانما يهمه امام ضميره ، وامام نظر رفاقه القدامى في السلاح .

في هذه الاجواء ، ذهب « جون فيلبي » ، الذي راقب انهيار الامبراطورية التركية من الرياض ، للاجتماع بلورنس ، واكد له انه يرتكب خطأ فادحـاً بتركيز سياسته العربية كلها على الحسين واسرته ، وبرفضه اخذ اواسط شبه الجزيرة العربية وابن سعود بعين الاعتبار . ان نجداً هو المولد والمنظم للحياة العربية . لذلك فإن البناء كله،الذي يسعى الى تشييده ، سيكون قائماً على اساس خاطيء ، ولن يكون في وسع الهاشميين ان تتحمل مناكبهم الخائرة عبء اتحاد عربي . وهم جميعاً ـ باستثناء فيصل ـ ، لا يتحلون بأية ميزة ، ولا يهمهم سوى الاثراء على حساب رعاياهم،ولا يتمتعون بحب شعب الجزيرة العربية،ولا باحترامه، وعندما لاتكون هنالك بريطانيا لتساندهم ، فلسوف ينهارون من تلقاء انفسهم كتماثيل من الفخار . فالرجل القوي،ليس الحسين ، انه ابن سعود ، فهد الصحراء و « كروميل » الجزيرة العربية .

كانت المقابلة عاصفة . فلورنس يملك مزايا وفيرة ، ولكنه لم يكن يحب المناقشة اصلاً ، وعلاوة على ذلك فلم يكن في حالة فكرية تمكنه من الاستماع

Marfat.com

ببرود الى نصيحة من هذا النوع . لقد كان متورطاً في معركة كلها احراج ، وكان يتشبث بمواقفه في عناد اشد كلما شعر بأنها مهددة اكثر . بل كان يعرف تماماً ، ان « فيلبي » يقول الحقيقة بشأن الحسين ـــ الم يقل عنه هو نفسه انه كان « شخصية عنيدة » لا تستقر على رأي ، ضيقة الآفاق ، جشعة ومراوغة ، لا استعداد فيها لاي تضحية بانانيتها الغالية في سبيل اي كان ، ولا قدرة لها على السيطرة على مطامعها ... الم يرغم على الاقرار بأن الهاشميين يعيشون في عزلة وفي عالمهم الخاص ؟

ألم يصرّح لورنس نفسه في مؤلفه عن البـــلاد العربية ، ان الرياض قلب العروبة ومنبع فكرها الأصيل ومهد نزعتها الاستقلالية الواعية . ولكنه كان قد تورط كثيراً فلا يمكنه التراجع . كان شرفه في الميزان ، وقد عظمه الحسين وأخصاؤه الى حد انه يرى ذاته ملزماً بدعمهم حتى النهاية .

ونظر لورنس الى الأمور من عل . ورد على « فيلبي » : انك لا تعرف شيئاً عن مشكلات الشرق الاوسط . وانه – اي لورنس – لا يريد في هذا المجال ان يتلقى دروساً من احد . ابن سعود .. كروميل العرب .. دعك من هذا . انـه ليس سوى مشاغب قصير الجناح ، دون رصيد ولا مستقبل يزعج الناس جميعاً بتمسكه المفرط بالقرآن وادعاءاته المضحكة . واما الاخوان فمتزمتون يدمرون اشرف ما اقامه الفن العربي ، ولو تركوا على هواهم لزجّوا الجزيرة العربية في النار والدماء . معركة « تربة » محض صفقة من صفقات الحظ فلا تعني شيئاً .. لا .. لا ، فإن قناعته قد تمت ولا سبيل للتراجع عنها .

وحاول فيلبي ان يصحح بعض اراء لورنس وان يعيده الى بعض الاعتـدال فأفهمه هذا الاخير انه يضيع وقته عبثاً وان البحث قد طال امده .

وانسحب « فيلبي » منفعلاً مما بدا من « لورنس » من نزق وضعف استنتاج

Marfat.com

ولن يطول الزمن في الواقع حتى يثبت كم كان صاحب «اعمـــدة الحكمة السبعة» مخطئاً ... خطأ كلف انكلترة ثمناً باهظاً .

٥١

اخذ ابن سعود علماً من « فيلبي » بالنتيجة السلبية للمقابلة . ولكن هـل ان وجهة نظر لورنس هي نفسها وجهة نظر الحكومة البريطانية ؟

قام ملك نجد باتصـــالات مع « سير برسي كوكس » ليتأكد من ذلك . فكوكس هو الطرف الثـــاني في معاهدة « العقير » ، ومن حق ملك نجد ان يستوضحه عن المستقبل الذي تعده له بريطانيا في عالم ما بعد الحرب .

ولم يكن المفوض السامي البريطاني في بغداد يشاطر الكولونيل « لورنس » اراءه في ابن سعود ، بل كان يقدره حق قدره ويعجب بالجهود التي بذلها ليظل اميناً على المعاهدة رغم استفزازات الحسين . ومع ذلك فـــلم يكن يستطيع مخالفة توجيهات حكومته الواضحة ، اي لا مكان لابن سعود في الاتحاد العربي . و « لن يتاح لمغامر ان يجلس على مائدة الأمراء » . ان نظرية « لورنس » قـد انتصرت رغم تحذيرات فيلبي [1] وعلى هذا فلن تكون لابن سعود اية حصة من اشلاء الامبراطورية العثمانية ، بل ان عليه ان يغتبط بالاحتفاظ بمـا يملكه حتى الآن : نجد والاحساء وحائل .

عاد الملك الى الرياض مكتئباً فنظرة واحدة الى الخريطة تكفي للاحـاطة

---

١ – كان لورنس قد اصبح في ٢١ اذار ١٩٢١ مستشار الشؤون العربية في وزارة المستعمرات التي يشرف عليها تشرشل .

Marfat.com

بالموقف . ان بريطانيا تعمل الآن على اقامة دول موالية لها يحكمها حكام معادون لابن سعود في كل مكان كان يسيطر عليه الولاة الاتراك . فقـــد توفي مبارك في الكويت ، ولكنه اوصى ابنه محمداً قبل وفاته بالحذر من السعوديين، وسيكون العراق من حصة فيصل وشرقي الاردن من نصيب عبد الله بينما يبقى الحجـــاز في عهدة الحسين . واما عسير واليمن وعدن وحضرموت وعمـــان وسواحل الجزيرة العربية ـ باستثناء الاحساء ـ فتحت السيطرة البريطانيـة مباشرة او بواسطة امراء موالين، وهكذا كان ابن سعود محاصراً من الشرق والشمال والغرب والجنوب ... لقد زالت الامبراطورية العثمانية ... ولكن بريطانيا التي ورثتها جاءت تنسج على غرارها وتسلك سياستها بالذات ...

كيف يمكن خرق هذا الحصار قبـل ان يتاح لاتباع لندن الوقت الكافي لتثبيت مواقعهم ؟

في شمالي ـ غربي حائل ، منطقة شبه محايدة ، تؤمها قبائل « شمر » لرعي قطعانها ، وهي تمتد على شكل زاوية الى داخـــل شرقي الاردن . وكانت هذه المنطقة تشكل نقطة الضعف في الطوق الذي يعمل الانكليز على إحـكامه حول اواسط شبه الجزيرة العربية ، فأرسل ابن سعود فرقة من الاخوان ، فاحتلت الموقع المذكور دون مقاومة ، ومكث هو يترقب رد فعل الانكليز ..

وحدث ، لسوء الحظ ، ان الاندفـــاع جرف بعض تشكيلات الاخوان فاجتازت الحدود التي عينها لها الملك . واخترق الاخوان، وهم يرددون اناشيدهم الحماسية ، منطقة الجوف على مسافة خمسين كيلومترا داخل الحدود الاردنية .

Marfat.com

وكان الحاكم منهم فانضم اليهم وفتح ابواب المدينة امام طلائع الاخوان .

وادرك الانكليز فوراً مدى الخطر ، فالجوف مركز تجاري هـــام تعبره القوافل في طريقها من بغداد الى مصر . وكان في وسع من يحتـــل تلك الواحة تهديد فلسطين وسورية معاً . ان النـــار توشك على الاندلاع من اواسط شبه الجزيرة العربية لينتشر لهيبها بعد ذلك في حوض البحر الابيض المتوسط .

ورأى خبراء وزارة الخارجية البريطانية ان ابن سعود يـــكاد يقضي على التوازن في الشرق الاوسط . « فاذا استمر على هـــذا الغرار فإنه سينسف كل خططنا باقامة الاتحاد العربي » . ان الضرورة تقضي برده سريعـــاً الى جادة التعقل .

واستدعت السلطات البريطانية ملك نجد للمرة الثانيـــة الى القاهرة لتطلب منه الايضاحات ، فأشار عليه مستشاروه الذين تحمسوا لسرعة تقدم الاخوان ان يرفض تلبية الدعوة،وان يستغل الموقف للاندفاع نحو بغداد والبحر المتوسط وكانوا يرددون : « ما من قوة في العالم تستطيع الوقوف في وجهنا ، لقد انتهى الانكليز . انهم يواجهون المتاعب في كل مكان » .

غير ان ابن سعود بقي على حذره ، فان هؤلاء المستشارين انفسهم قد رددوا على مسامعه من قبل ان تركيا قد انتهت . ولكن الجيوش العثمانيـــة صمدت ، رغم ذلك ، طيلة اربع سنوات في وجه القوات البريطانية والفرنسية والروسية المتحالفة . وهو يعلم ان بريطانيا بعيدة عن ان تكون قد « انتهت » ، وان من الخطر التعرض لتدابيرها الانتقامية – فوافق على حضور مؤتمر القاهرة واجراء محادثات مع المبعوثين البريطانيين . كانت خطته تقضي بالمساومة على الانسحاب من « الجوف » والمناطق الشمالية – الغربية ، لقاء انضمامه الى الاتحاد العربي .

Marfat.com

وكان من المحتمل ان يبلغ هذه النتيجة ، لولا ان حادثاً خارجاً عن ارادته قد حدث فقلب حساباته رأساً على عقب . لقـــد اندفعت مفرزة اخرى من الاخوان – ١٥٠٠ رجل – بدافع المنافسة لزميلتهـــا التي احتلت الجوف ، وقطعت مسافة ستمائة كيلومتر من الصحراء ، في منتصف شهر آب ، فاجتازت الحدود الاردنية وانقضت على قرية « طريف » وابادت معظم سكانها .

تقع « طريف » على مسافة خمسين ميلاً من عمان العـــاصمة الجديدة لشرقي الاردن حيث كان مقر الامير عبد الله وحيث للانكليز حامية صغيرة .

ولم يكن في وسع البريطانيين الصبر على تحد من هذا النوع فارسلوا من عمان كوكبة من السيارات المصفحة المزودة بالرشاشات وثـــلاثة اسراب جوية من القدس . فتعرض الجنود الاخوان لأول مرة للقصف الجوي ، وتمزق بنيران الاسلحة الالية من كتبت له النجاة من شظايا القنابل ، ولم يبق على قيد الحيـاة سوى ثمانية من اصل الف وخمسماية رجل تناثرت جثثهم طعمة للطيور الجارحة .

قطع ابن سعود محادثاته في القاهرة لما اتصل به نبأ هذه الاحداث وسارع في العودة الى « شقرا » مركز انطلاق الحملة المتسرعة . وكان الثمانية النـاجون من مجزرة « طريف » قد وصلوا على آخر رمق ، فحكم عليهم ابن سعود بالاعدام وامر بتنفيذ الحكم فوراً ليلقي على وحدات الاخوان الاخرى درساً في وجوب طاعته وعدم الخروج عن ارادته .

وانذره الانكليز رسمياً بوجوب العودة الى المؤتمر فسلك طريق القـــاهرة مؤملاً ان يكون العقاب الصارم الذي انزله بالمتمردين قد اثر على مفاوضيه ودلالة على عزمه على فرض احترام سلطته . ولكن الانكليز ادركوا بان دورهم قد جاء لتجاهل الموقف . فإن السرعة التي تم بها القضاء على تشكيلة من «الاخوان» بواسطة الرشاشات والطائرات ، جعلتهم يفكرون بان ملك نجد لا يستحق كل

Marfat.com

هذا الاهتمام وبأن سمعة « الاخوان » الحربية مبـالغ بها كثيراً ، فاستخفوا بابن سعود حتى ثاروصرخ في وجوههم : « صحيح انني كنت صديق الانكليز ، ولكني عاهدت نفسي على الا امشي معهم الى ابعد مما يحتمه عليّ شرفي وديني و كبريائي. وستندمون يوماً على معاملتي بهذا الشكل . »

ثم نهض وغادر قاعة الاجتماع واغلق الباب وراءه بعنف .

٥٣

انتهت خطة ابن سعود الى الفشل ، فقفل عائداً الى الرياض . وقد قرر ان يتريث ايضاً . . .

وتوالت الاعوام ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٢ دون ان تحمل في طيـاتها اي تبديل يذكر على الموقف في نجد . ولكن تبديلاً عميقاً كان قد طرأ ، خلال ذلك ، على الوضع في البلاد العربية . وكان المراقب لـلاحداث في تلك المنطقة يدهش لتقلص القوة والنفوذ البريطانيين بعد عامين ونصف العـام من انتهاء الحرب .

لقد بدأت مرحلة الجزْر البريطاني الواسع واتخذت شكل التقهقر ، بعد المد الذي بلغ الذروة في العام ١٩١٩ . واضطرت الحكومة البريطانية ، تحت ضغط سياسة التقشف الاقتصادي التي اتبعتها ، الى تسريح قسم كبير من قواتها . وعاد النيوزيلنديون والهنود الى بلادهم وسحبت الحاميات من البصرة وبغداد وعمان والقدس . وفقدت السيطرة البريطانية كل ركائزهـا ، باستثناء بعض الفرق في الآستانة ، وقوى البحرية والطيران (عشرون سرباً من سلاح الجو الملكي موزعة

Marfat.com

في العراق ، وعلى ضفاف البوسفور بالاضافة الى سرب في ازمـــير واخر في المضائق) .

وكان لانسحاب القوات البريطانية الجماعي اثره على الجو السياسي ، فصوت مجلس النواب الايراني ضد الحماية البريطانية واستبدلها بمعاهدة مع الروس لم تترك للانكليز سوى حصة من استثمار النفط (٦ تشرين الأول ١٩٢١) . وتراجعت آخر الفرق الانكليزية امام الهجوم المشترك الذي شنته القوات الروسية والكمالية في القفقاس . والغت مصر الحماية البريطانيـة واعلن الملك فؤاد استقلاله (١٥ اذار ١٩٢٢) .

كانت الامبراطورية البريطانية تواجه المتاعب في كل مكان .

لم يكن في هذه الاحداث كلها ، ما يشجع اقامة الاتحـــاد العربي ، لذلك لم تكتب له الحياة رغم جهود « لورنس » اذ تحولت الشعوب ضد ملوك وامراء هم صنيعة حكومة لندن ، ولم يكسبهم تمرسهم بالحكم اية شعبية لدى الجماهير .

واصبح ملك الحجاز شديد التأثر بفعل السنين ، وازداد مزاجه حدة ، فلم يعد يطيق سماع اية ملاحظة ، بل كان يستشيط غيظاً حتى اصبحت حيـــاة معاونيه معه لا تطاق فابتعدت عنـــه الحاشية الا زمرة من الموظفين المرائين يتملقونه ليستزيدوا من اقتناص الخيرات . « الذهب ، مزيداً من الذهب » كان ذلك شعار الحكومة الشريفية فلا تتورع عن اي عمل في سبيل الحصول عليه : ضرائب ، ورسوم تتزايد وترهق كاهل الشعب عاماً بعد عـــام . وراح الملك حسين ، في سبيل ايجاد موارد جديدة يعصر البدو الرحل ، ففرض العشر عـلى قطعانهم ، ثم تناول من عائدات الحج ووضع على الحجاج رسم اقامة ، واسعاراً عالية للمـأوى والماء ، فمات كثيرون منهم ظمأ خـــلال احد مواسم الحج ،

Marfat.com

وانتشر ذلك النبأ حتى وصـــل الى اعماق الصحراء فأثار موجة عارمة من الاستياء .

وفيما كان نجم الحسين في الحجاز آخـــذاً في الافول ، كان نجم « لورنس » حاميه في لندن يميل الى الانحدار ، فقـد انتهى « ملك العرب غير المتوج » الى مضايقة الجميـع بغروره وتدخلاته المثيرة حتى ان كليمانصو ، وويلسون ، ولويد جورج ، واورلندو اصبحوا يتبرمون برؤيته . وعمد من تلقاء نفسه الى استدعاء فيصـــل الى باريس فأثار الأمير عاصفة في المجلس الاعلى وخاطب « الاربعة الكبار » بلهجة عنيفة بعيدة عن الدبلوماسية مطالباً بسورية التي يحتلها الفرنسيون مؤكداً وعد « ماك ماهون » له بذلك ، ممـــا احرج الجميـع ، فرد الاربعة الكبار بأن طلبه غير مقبول .

ولما علم الحسين بالأمر اخذ يندد عالياً بخداع بريطانيا وعدم وفائها بعهودها ووعودها . وطلب الاعتراف به ملكاً على جميـع البلاد العربية .

ولما لم يتلق الحسين جواباً ، توجه الى عمان ونزل عند ابنه عبد الله حيث كانت للانكليز بعثة عسكرية فطرد الضباط البريطانيين من القصر ضرباً بعصاه وطلب الى ابنه بحدة ان يتحرر من سيطرتهم وهدده بحرمـــانه من الميراث اذا استمر في هذا الخطل . وقال له : « ان الانكليز لن يتأخروا في تحويل الحجاز الى منطقة انتداب بريطاني . »

وأوفدت وزارة الخارجية البريطانية الكولونيل لورنس الى الحسين لتهدئته فصرخ ملك الحجاز في وجهه :

— لست سوى خداع وعميل مشاغب . انت الذي ورطتني في هذه المغامرة الحمقاء بوعودك المعسولة ولم تكف عن خداعي منذ اليوم الذي رأيتك فيه .

Marfat.com

وكان لا بد من الامساك بالملك الكهل المضطرم غيظـــاً لمنعه من القذف بلورنس الى اسفل الدرج ، انه لم يعد يسيطر على نفسه .

وفي اذار ١٩٢٤ ، انعقدت الجمعية الوطنية التركية في انقرة وقررت الغـاء الخلافة ونفي عبـد المجيد من الاستانة ، وعندها نادى الملك حسين بنفسه خليفة للمسلمين دون استشارة احد فاثار بذلك نقمة عارمة في البلاد العربية اذ تخطى الحسين كل الحدود وارتكب الخطأ تلو الخطأ مما ادى به الى التورط مع الانكليز والى اثارة نقمة العرب .

٥٤

استدعى ملك نجد العلماء ورؤساء القبـــائل الى اجتماع في مسجد الرياض « الذي عقد برئاسة الامام عبد الرحمن للتداول في الكتب الواردة الى الامـــام من الاخوان ، وهم يبغون الحج ويلحون في ذلك ، وتكلم في هذا الاجتماع سلطان بن بجاد فقال : « يالامام حنا نبغي الحج ، ولا نريد ان نصبر اكثر مما صبرنا على ترك ركن من اركان الاسلام مع قدرتنا عليه . ليست مكة ملكاً لاحـد ، ولا يحق لأحد ان يمنع المسلمين او يصد المؤمنين عن اداء فريضة الحج. نريد ان نحج يا عبد العزيز فاذا منعنا الشريف حسين دخلنا مكة بالقوة .. »

وقال السلطان عبد العزيز ان مسألة الحج من المسائل التي يرجع الفصل فيهـا الى علمائنا وها هم حاضرون ، فليتكلموا . ونهض الشيخ سعد بن عتيق وقـال : « ان الحج من اركان الاسلام ، ومسلمو نجد والحمد لله يستطيعون ان يؤدوا هـذا الركن على الوجه الاتم بالرضى او بالقوة ، ولكن من اصول الشريعـــة النظر الى المصالح والمفاسد . فالأمر الذي قد يؤدي الى ضرر او مفسدة يدفع (يؤجل من

Marfat.com

أجله الحج) ، فهل هناك من مفسدة او مضرة قد تنتج عن السماح لمسلمي نجد بالذهاب الى بيت الله ؟ ذلك ما نريد ان نقف عليه من الواقفين على السياسة »

فرد السلطان عبد العزيز مخاطباً العلماء والاخوان بما يلي : « نحن لا نود ان نحارب من يسالمنا ، ولا نمتنع عن موالاة من يوالينا، ولكن شريف مكة كان دائماً ، كما تعلمون ، يزرع بذور الشقاق بين عشائرنا ومع ذلك فقد بذلت كل ما في وسعي لحل المشاكل التي بيننا وبين الحجاز بالتي هي احسن . وكنت كلمادنوت من الحسين تباعد ، وكلما لنت له تجافى . اي ورب الكعبة ، لست ارى في تطور الامور ما ينعش الامل، بل ارى الامور تزداد شدة وارتباكا ولا يحسن الاستمرار في خطة لا تعزز حقوقنا ومصالحنا» .وقف السلطان عند هذه الكلمة فهتف الجميع :« توكلنا على الله ! الى الحجاز ! [1] »

ثم عبأ ابن سعود جيشه من الاخوان ، وقسمه الى ثلاث فرق . ارسل الاولى منها الى حدود العراق ، والثانية الى حدود شرقي الاردن لمنع فيصل وعبد الله من نجدة والدهما . فلما عزل بذلك الحسين ارسل الفرقة الثالثة – وهي الاكثر عدداً – باتجاه الحجاز وامرها بالزحف رأساً الى مكة وسحق اية مقاومة قد تعترض سبيلها .

لم يكلف الحسين نفسه ، منذ هزيمة « تربة » ، عناء اعادة تنظيم جيشه ، فنفقات الجنود ثقيلة الوطأة على خزينته ، وكان يعتمد على الانكليز لحمايته في حالة الخطر ، ويقول في نفسه : ان عليهم واجب نجدتي اذا هوجمت فما الداعي لبذل المال .. حسبي الركون اليهم !

ولم يعبأ بتحركات ملك نجد في البداية ، ولكنه ما لبث ان فتح عينيه على،

---

١ – امين الريحاني : « نجد وملحقاته » .

Marfat.com

الخطر المحيق به ، لا سيما والاخوان يتحركون والانكليز لا تبـــدو منهم بادرة توحي بعزمهم على الوقوف في وجههم ، فجمع على عجل ما تبقى له من التشكيلات الهزيلة ووضعها تحت امرة ابنه الاصغر « علي » الذي يتحلى بشجاعة لا تنكر ، الا انه بعيد عن اي خبرة تخوله القيام بمسؤولية عسكرية في مثل هذه الظروف.

وتمركز « علي » مع قواته في الطائف ، على الطريق المؤدية من نجـــد الى الحجاز فكنس الاخوان كل القوة كما تكنس الريح الأوراق الذابـــلة وتابعوا زحفهم الى مكة دون توقف او تريث ، وكانت حماستهم تزداد توقداً كلما ازدادوا اقتراباً من الاماكن المقدسة .

وأوقعت هزيمة الطائف ذعراً عاماً في مكة على غرار مـا جرى بعد كارثة « تربة » فتدافع الحجاج والتجار وسكان المدينة في كل اتجاه سعياً الى ملجأ وهم يرددن : « سيصل الوهابيون وستكون المذبحة عامة . . » وهكذا تكدس قسم من اهل مكة في العربات وفروا باتجاه الساحل ، في حين كان الاخوان على بعد عدة كيلومترات من المدينة .

وهرع « علي » الى القصر الملكي ليحمل الى والده نبـــأ الكارثة . فطرده الحسين ، وبعث بالرسل الى جميع القبائل المجاورة يحثها ، متوسلاً ، لكي تهرع الى نجدة مليكها ، فلم تتحرك اية واحدة منها . وبدأ اقرب النـــاس الى الملك — ومنهم الملكة — ينصحونه بالتنازل عن العرش لابنه علي فلعل بريطانيـــا تتدخل حينذاك وتحول دون حلول الكارثة ، وحـــار الحسين في امره واخذ يزرع قاعة القصر جيئة وذهاباً مفكراً دون الوصول الى قرار .

وعرف سكان المدينة ، وهم على اشد ما يكون الاضطراب ، بحيرة الحسين ، فبدأت الجماهير الساخطة تتجمع امام سياج المقر الملكي وهي تهتف :

— دافع عن نفسك ، او فارحل

Marfat.com

وحاول بعض المتظاهرين اختراق القصر ونهب الاقبية التي يكدس فيها الحسين كنوزه وامتدت الايدي الى السياج تحطمه فأدرك عند ذاك انه لم يعد يملك حرية الاختيار ، فتخلى عن العرش لابنه « علي » واصدر امره الى خدمه بإعداد الحقائب .

لم يكن في الحجاز سوى عدد قليل من السيارات يملكها الملك وحده ، وكان لا يسمح لاحد سواه بركوبها ، فجمعها في ساحة القصر وحملها بالسجاد والاثاث ، وسبائك الذهب والفضة بالاضافة الى الصناديق التي كان يحفظ فيها ليراته الاسترلينية ، ثم انطلق مسرعاً مع افراد اسرته وحرسه باتجاه جدة [1] .

وكان اليخت الفاخر الذي اهداه اليه الانكليز « الرقمتين » راسياً في الميناء فنقل اليه الحسين صناديقه بعد ان تفحصها الواحد تلو الاخر ، ثم ابحر دون ان يوجه كلمة وداع الى حراسه صوب السويس ومنها الى قبرص حيث استقر وحيث حكم عليه بعد ذلك في قضية جزائية .

ان امره قد انتهى الآن ولم يعد سوى شيخ هرم يقضي ايامه في احصاء ما يملكه من الليرات الذهبية [2] .

وقفت طلائع الاخوان عند ابواب مكة منكسة السلاح تنتظر وتترقب

---

١ – في شهر رجب من العام الهجري ١٣٤٣ الموافق للعام الميلادي ١٩٢٥ .

٢ – انتقل الى عمان في العام ١٩٣١ حيث توفي لدى ولده عبد الله ودفن في المسجد الاقصى . وكانت السلطات الانكليزية قد سمحت له بمغادرة قبرص بعد ان اشرف على الموت .

Marfat.com

الاحداث . فابن سعود لم يكن واثقاً بعد من موقف الانكليز ، اتراهم يتدخلون لمصلحة « علي » بعد ان ذهب الحسين ؟ .

واستغل « علي » هذا التلكؤ غير المتوقع في مجرى الاحداث فرجع الى المدينة المقدسة لاعادة تنظيم المقاومة وكانت مبادرته الاولى – كما توقع ابن سعود – طلب مساعدة البريطانيين .

فأبرق الى لندن بواسطة القنصل البريطاني في جدة يقول : « ارسلوا الي الطائرات والمال وخصوصاً السلاح . »

ولكن الانكليز كانوا متبرمين بمطالب الحسين والهاشميين التي لا تنقطع ، فكان جوابهم : « ان النزاع بين الحسين وابن سعود قضية مذهبية غايتها تسوية بعض الخلافات الناجمة عن انتقال الخلافة ، وانهم « عملاً بالتقاليد البريطانية » لن يتدخلوا في نزاع من هذا النوع » .

فلما شعر علي بالفراغ حوله اتجه الى ابن سعود وسأله شروطه . ففهم ملك نجد فوراً ، ان الانكليز قد تخلوا عنه ورد عليه : « لن القي السلاح حتى يخرج اخر هاشمي من الحجاز » . واصدر اوامره الى الاخوان بدخول المدينة المقدسة .

غادر « علي » مكة على عجل ، وتوجه الى جدة للتحصن فيها ، فيما كان الاخوان بقيادة خالد بن لؤي المنتصر في « تربة » يدخلون مكة في صفوف متراصة محرمين فطافوا وسعوا بين الصفا والمروة . وكانت مكة المكرمة التي تعج عادة بالناس ، تبدو خاوية : فالشوارع مقفرة ، والمتاجر مغلقة ، والستائر مسدلة والابواب مقفلة ، ولا شيء سوى الغبار الكثيف تذروه الرياح في الساحات الهامدة . لقد لجأ سكان المدينة المذعورون الى الأقبية اعتقاداً منهم بان ساعتهم الاخيرة قد ازفت .

Marfat.com

وجاب رجال خالد بن لؤي ارجاء المدينة ، والخوف جاثم فوقهـا . وامر القائد المنادين بقرع الطبول عند مفترق الطرق الهامة وابلاغ السكان انهم في أمان ، وان المدينة المقدسة في حمى الله ثم ابن سعود ، وان ملك نجـــد يضمن سلامة كل فرد من الاهلين . ولكن اهل المدينة ترددوا مع ذلك في الخروج من مخابئهم متأثرين بما سمعوه عن قوة « الاخوان » وقد دخلت عالم الاساطير .

وقام الاخوان بنزع الزينات من المساجد ، وازالة الزخـــارف من المسجد الحرام . ونظفوا ساحة الكعبة المكرمة مما تراكم عليها من اقذار واعـادوا الى الاماكن المقدسة بساطتها الطبيعية الأولى وفقاً لتعـــاليم الدين وهدموا بعض القباب المستحدثة المبتدعة . وحال خالد بن لؤي ، فيما عدا ذلك ، دون امتداد ايدي الجنود الى ارواح السكان او املاكهم .

ودهش السكان لحسن تنظيم الجيش السعودي وانضباطه فبدأوا يخرجون من اقبيتهم . ولم يمض اسبوعان على رحيل الحسين حتى استعادت المدينة حالتهـــا الطبيعية .

٥٦

غادر ابن سعود عندئذ ، مدينة الطائف حيث بقي للاشراف عـلى الموقف ورجع الى الرياض وبعث بالرسل الى اقاصي الصحراء يعلنون النصر ويبلغون القبائل بأنه طرد الحسين ، واصبح حامي الديار المقدسة ولكنه لن يحتفظ بهـا الا بتوكيل من جميع المسلمين .

وجاء رؤساء القبائل لتوديعه فخطب فيهم قائـلاً : «اني مسافر الى مكة لا للتسلط عليها بل لرفع المظالم التي ارهقت اهلهـــا . اني مسافر الى مهبط الوحي

Marfat.com

لبسط احكام الشريعة ... ان مكة للمسلمين كافة وسنجتمع هناك بوفود العالم الاسلامي فنتبادل واياهم الرأي في الوسائل التي تجعل بيت الله بعيداً عن الشهوات السياسية ... وسيكون الحجاز مفتوحاً لكل من يريد عمل الخير من الافراد والجماعات ...»

وخرج الملك بعد ذلك من الرياض سالكاً طريق مكة على ظهر جمله الكبير الذي يستخدمه في المعارك يحيط به وزراؤه وولاته ومستشاروه المدنيون والدينيون . وكانت تتقدم الموكب موسيقى الجيش وتحرسه فرقة كاملة من الاخوان ، فاجتاز سفوح نجد ببطء حتى ادرك مشارف الحجاز الاولى . ودامت الرحلة المظفرة اربعة وعشرين يوماً ، كان سكان القرى والبدو يتجمعون خلالها على جانبي الطريق لتحية الملك وتقديم الولاء .

واجتاز ابن سعود في اليوم الخامس والعشرين آخر طوق من الجبال المحيطة بالمدينة المقدسة ، ودلف الى الوادي العريض الذي يحتضن المدينة وتبدو في جوفه سابحة في ضوء مذهّب . فترجل الملك عند مدخل الوادي واقام مضربه هناك فهو لا يريد ابتداء من هذا المكان ان يكون فاتحاً بل حاجاً بسيطاً ، فنزع شاراته الملكية : سيفه وعقاله الذهبي ووشاحه الملكي ، ثم ارتدى ثوب الاحرام الابيض وامتطى جواده حاسر الرأس اعزل ، فاجتاز جبل عرفات ووادي « الابطح » وسلك الطريق الرملية العريضة ، طريق « المعابدة » — المؤدية الى الكعبة المشرفة .

وخلال سيره ما انقطع يردد دعاء التلبية :

« لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك . »

Marfat.com

كان ابن سعود لا يكف عن ترديد هذا الدعـــاء منذ طفولته ، حتى انه ارتبط بكل المناسبات الهامة في حياته . وهو يذكره على وجه خاص بإقامته الاولى في « الربع الخالي » عندما كان طريداً اعزل بـــلا نصير او صديق حتى كاد يستسلم الى اليأس .. انه يذكره بتلك الامسية ، امسية الشقاء والحماسة معاً ، لما تراءى له من خلال الغسق الارجواني وجه سعود الكبير وقادة الفتح العربي . ثم انه يذكره بالعهد الذي قطعه على نفسه بتوحيد الجزيرة العربية ونشر العقيدة واقتفاء خطوات النبي العظيم .

كان يردد الادعية طوال مسيرته في طريق « المعـــابدة » حتى بلغ مقبرة « المعلا » عند ظلال الاسوار ، حيث كان خالد بن لؤي بانتظاره ، فترجل عن جواده وخلع نعليه ودخـــل المدينة حافي القدمين تتبعه حاشية صغيرة من « الاخوان »

فلما بلغ عتبة البيت الحرام فتحت امامه الابواب ومشى الى الساحة منفرداً وشعر وهو يتطلع الى الكعبة بنظراته المبهورة ، انه بلغ ذروة ما يصبو اليه في حياته .

وبصوت عامر بالايمان اخذ يبتهل : « اللهم ان هذا الحرم حرمك والامن امنك والعبـد عبدك ، اسألك مسألة المضطرين اليك المشفقين من عذابك ان تستقبلني بمحض عفوك وان تدخلني فسيح جنتك ، اللهم ان هذا حرمك وحرم رسولك فحرم لحمي ودمي عن النار . اللهم آمني من عذابك يوم تبعث عبادك ، انك انت الله لا اله الا انت الرحمن الرحيم . »

ثم اقترب من الكعبة فقبل الحجر الاسود وجثا ارضـاً كأي حاج عادي ، وعفر جبهته على التراب . وبقي هناك غارقاً في الصلاة حتى خيم الظلام .

Marfat.com

٥٧

استقبل ابن سعود في اليوم التالي مختلف الوفود التي دعاهـــا الى مكة . واجتمع في قاعة القصر الكبيرة حيث كان عرش الحسين ممثلون من كل الاقطـار الاسلامية : مندوبون من العراق وايران ومصر وزعيم السنوسيين من طرابلس الغرب ومبعوثون عن الحبشة وافغانستان واذربيدجيان ومـاليزيا وشخصيات من الهند .

كان الجميع متلهفين قبل حضورهم لمشاهدة ما جرى في مكة ، متوقعين ان يجدوا الاماكن المقدسة خراباً . فدهشوا اذ رأوا المدينة آمنة هـــادئة ، وقد نظفت باحات الاماكن المقدسة من كوم الأوساخ التي كانت تتراكم فيها في عهـد الحسين ، ثم كان الاستقبال الودي الحافل الذي خصهم به الملك مدعـاة لازالة آخر ما علق بأذهانهم من شكوك .

ونشب خلاف بين المندوبين حول حق الصدارة والافضلية وحول من يتولى ادارة الاماكن المقدسة ، فطالب الهنود بهذا الشرف وأعتبروه حقاً مشروعـاً لأن عددهم يفوق عدد المسلمين الذين يمثلهم المندبون الحاضرون . واحتج المصريون واعترضوا على هذا المبدأ واثاروا حججاً تقليدية وقديمـة : اليسوا هم الذين كانوا يشرفون على الحج منذ تفكك مملكة سعود الكبير ؟ فلما رأى ابن سعود ان المناقشة قد تشعبت وان الوصول الى اتفاق اصبح امراً مستحيلاً ، نهض وقـال بلهجة حازمة :

– اخواني اعضاء الوفود الاسلامية ! كونوا على ثقة بانني لن اوافق ابداً على وجود اية رقابة اجنبية في بـلادي . ولسوف اعرف ، بعون الله ، كيف اصون استقلال هذه الديار. واعتقد ان ايا من الشعوب الاسلامية الممثلة هنا لا يستطيع

Marfat.com

ضمان استقلال الحجار، لسبب بسيط هو ان هذه الشعوب جميعاً لا تملك حريتها. فالهنود واقعون تحت السيطرة الانكليزية . وكذلك مسلمو العراق وشرقي الاردن ومصر . واما السوريون واللبنانيون فتحت سيطرة الفرنسيين . والسنوسيون تحت السيطرة الايطالية . فالعهد بإدارة الديار المقدسة الى اي من هذه الشعوب معناه الحاقها بصورة غير مباشرة بالسيطرة الاجنبية .

لقد فتحت الديار المقدسة بإرادة الله وبفضل قوة ساعدني وولاء شعبي ، فأصبح من حقي وحدي ان اتولى ادارتها كدولة مسلمة حرة . انه حقي المطلق وواجبي كملك .

ليس لانني انوي فرض سيطرة شخصيتي على الحجاز ، فذلك بعيد عن تفكيري . فالحجاز امانة الله في عنقي سأحافظ عليه بكلتا يدي الى ان يصبح في وسع شعب هذا البلد ان يختار حاكمه ، شرط ان يكون حاكما حراً قادراً على ان يكون خادم الاسلام وحده » .

٥٨

حاكم حر يستطيع ان يكون خادم الاسلام .. وحده !

لا ريب في ان ابن سعود كان يشير الى نفسه في هذه العبارة . غير انه لمن الخطأ ان نعتقد انها مجرد حنكة سياسية ، بل هي في الحقيقة تعبر عن ايمان وثقة بالنفس لا جدال فيها . ان من الصعب ان نتفهم نفسية ابن سعود اذا تجاهلنا طبيعة عقيدته الدينية .

لقد نشأ في مدرسة والده الامام على التقيد الصارم بتعاليم القرآن، ولم يدر في

Marfat.com

خلده قط ان يخالفها . أجل ، لقد انتفض ابن سعود مراراً ضد تطرفات بعض رجال الدين المتعصبين وتفاسيرهم السطحية للشرع ، الا انه لم يتخط قط هـذا الشرع في حقائقه الجازمة .

ان الاسلام في نظره يمثل لباب الذهنية العربية ، وهو النظـــام الذي لولاه لغرق البدو في الفساد والفوضى . كان عبد العزيز ، كمـا يقول — آرمسترونغ — « يؤمن بان الله دائم الوجود الى جانبه ، يقوده في كل عمل ، سواء وقف بالجماهير ام اختلى في جناحه ، جلس للقضاء ام حارب في الصحراء . ففي القصر او تحت الخيمة او على المسالك الرملية كان ابن سعود وطيد الايمان بان الله معه حيثما كان يقوده بيده .

وقبل ان يتخذ اي قرار خطير ، كان يخلو الى نفسه ويصلي . وعندما تدنو اللحظة الحرجة ، كان يفرغ ذهنه من اي شيء ، ويسأل العلي القدير ان يوجه خطواته ، وما كان بعد ذلك يعود عن قرار ، ايماناً منه بإن الله هو الذي املاه عليه ! » .

انه لمن الضلال ان نحسب ان نفسية كهذه تتنافى والنظرة الموضوعية الثاقبة التي سادت سياسته ، فالديانات كلها حافلة برجالها الذين كانوا في الوقت نفسه عظماء كرجال دولة ورجال ادارة .

لقد قال ابن سعود يوماً — للسير برسي كوكس — : « اني مسلم اولاً ، وعربي ثانياً ، غير اني دوماً خادم الله » .

ولما كان عبد العزيز يجسم في ذاته شعباً رفض دوماً ان يفصل بين الزمنية والروحية فقد كان نشاطه السياسي والديني يتمازجان الى حد يتعـذر عليه ، هو نفسه ، ان يميز بينهما .

Marfat.com

وعلامَ يميز بينهما ، وكل منهما يدعم الآخر . فامتـداد سلطانه ونشر الدعوة كانا في الواقع واحداً ، وكان لمطامحه السياسية وغيرته الدينية اتجاه واحد ... هنا كانت تكمن قوته الكبرى ! كما يشهد بذلك نضاله ضد الحسين .

كان يجد الملك في هذا النضال مصلحته ، لان احتلال الحجاز يعطي بـلاده منفذاً على البحر الاحمر ، ويشكل خطوة في سبيل وحدة الجزيرة العربيـة ، ويحطم الطوق الذي احكمه اعداؤه من حوله .

وفي الوقت نفسه كان هذا النضال لمصلحة ايمانه وخدمة عقيدته ، ذلك لأن الحكم الذي كان قائماً في الحجاز قد اضعف الاسلام بينما كانت رسالة ابن سعود ان يعيد اليه الحيوية ... ألم يقل لاعضاء المؤتمر الاسلامي العام المنعقد سنة ١٩٢٦ : « اني عازم على ان اجعل بحول الله من الديار المقدسة مشاعل للحيـــاة والثقافة الاسلاميتين ، ومدعاة فخر واعتزاز لكل مؤمن ، ليشهد اشعاعها عبر العالم ، على شباب الاسلام الدائم وحيويته الخالدة . »

٥٩

فوجيء الانكليز بانهيار الحسين وفراره ، إذ لم تدم مقاومته سوى ثمـــان واربعين ساعة . وكانوا يعتقدون بأن الملك ، رغم اخطائه سيكون اكثر فعالية في دفاعه عن نفسه .

ورأى المشرفون على وزارة الخارجية البريطانية ان لا مجال للاعتراض على الأمر الواقع ، بل ان الواجب يقضي بالاتصال حالا بابن سعود ، فأوفدوا لذلك بعثة دبلوماسية برئاسة الجنرال « جيلبرت كلايتون » الرئيس السابق للكولونيل « لورنس » في « المكتب العربي » بالقاهرة .

Marfat.com

وقابل ابن سعود « كلايتون » في بلدة « بحرة » الصغيرة الواقعة في منتصف الطريق بين مكة وجدة . كان يحمل ذكرى مرة لمقابلته الاخيرة مع الانكليز، فاية مطالب سيصطدم بها اليوم ؟ .

وقام الانكليز باحتلال ميناء العقبة في اقصى الشمال الحجازي بينما كان « كلايتون » في طريقه الى « بحرة » . وكانت العقبة مع عدن والكويت من اكثر المواقع الستراتيجية اهمية في شبه الجزيرة العربية ، ولم يكن في نية الانكليز ان يتخلوا عنها .

وكان ابن سعود قد امسك هو الآخر بورقة رابحة ... ورقة تزعج الانكليز بوجه خاص ، فقد اصدر اوامره الى الفرقة الثانية من الاخوان التي كانت مرابطة على حدود شرقي الاردن بالتوغل داخل وادي السرحان ، وتمت العملية في الخفاء لان الابصار كانت كلها متجهة الى مكة ، وكان اهتمام القنصليات الاجنبية منصباً على احداث الحجاز. فأصبح ملك نجد بذلك يمتلك ممراً كرأس الحربة يفصل ما بين شرقي الاردن والعراق ويصل الى مقربة من الحدود السورية .

وكانت هذه المناورة مبنية على حساب دقيق . فإذا كان الانكليز قد قرروا عدم مساندة الحسين ، فقد يتخلون بالمثل عن فيصل وعبدالله ، فيكون الاخوان قادرين على القضاء عليهما الواحد بعد الاخر وينتهي ابن سعود مرة واحدة من جميع الهاشميين ، والا فإن الانسحاب من وادي السرحان يمكن ان يكون موضع مساومة لقاء بعض المكاسب في الحجاز او سواه .

كان المشرفون على وزارة الخارجية البريطانية يحرصون على منع القوات السعودية من الوصول الى المناطق الساحلية ، فهم لا يجهلون ما قد ينجم عن ذلك من انعكاسات ومن تأثير على الموقف في مصر وايران ، ذلك ما كان يثيرهم كل

Marfat.com

مرة يقترب فيها ابن سعود من ساحل المتوسط . وكان التوغل في هذه المرة اكثر اثارة لان الرقعة من الارض التي يحتلها « الاخوان » تفصل شرقي الاردن عن العراق ، وتقطع الطرق البرية بين بغداد والقاهرة وتمنع مد الانابيب التي كان مقرراً انشاؤها لنقل البترول من الموصـــل الى حيفا حيث كانت الاميرالية البريطانية منصرفة الى بناء قاعدة بحرية هامة . اذا بقي الاخوان حيث هم فان السياسة البريطانية كلها في المنطقة ، ستكون بحاجة الى اعادة نظر ، بل ان احتلال القوات السعودية للشطر الفاصل بين شرقي الاردن والعراق يثير في وجه الحكومة البريطانية عدداً من المتاعب والقضايا ، يبدو فتح مكة الى جانبهـــا امراً ثانوياً .

وظن ابن سعود ان « كلايتون » جاء الى « بحرة » ليحمله على الجـــلاء عن الحجاز ، في حين كان المفاوض البريطاني مهتما بتحقيق الجلاء عن وادي السرحان ، ودهش الملك عندما دارت المحادثات كلها حول الوادي والعقبـة دون ان تكون مكة موضع بحث . واقتنع الملك بان كلايتون لا يلعب لعبة شريفة فراح هو يخفي مقاصده واستمرت المحادثات مدة ستة ايام ... ستة ايام حـاول كل منهما خلالها التوصل الى سبر اغوار الآخر .

كان ابن سعود القائد الاعلى لجيش يخوض معركة ، لان السيطرة على الحجاز لم تتم بعد وما زالت جدة والمدينة المنورة تقاومان ، فلم يشأ الملك وقف العمليات الحربية خلال المفاوضة كيلا يتيح للمدينتين مجال تعزيز دفاعهما . لقد جعـل من « بحرة » مقر القيادة العليا وواصل الاهتمام بالعمليات العسكرية ، بينما كان يتابع المفاوضات الدبلوماسية مع الانكليز .

فأصبحت البلدة الصغيرة من جراء ذلك مقر حركة دائبة ، ففيها تتجمع القوات الرئيسية السعودية والقبائل الحجازية الجبلية والمتطوعون الذين يطلبون الالتحاق بالاخوان . وكان لا بد من انشاء وحدات جديدة وتسليحها بالمعدات التي خلفها

Marfat.com

العدو وتموين القرى التي تمت السيطرة عليها وحفظ النظـــام في مكة ، وتعزيز الحصار على جـــدة والمدينة المنورة . وكان ابن سعود مضطراً في كل لحظة الى تعليق المفاوضات ليستقبل احد الرؤساء او يتخذ قرارات عسكرية او يسوي بعض القضايا الطارئة ويصدر تعليماته الى اركان حربه .

ولكن هذه الانقطاعات – كما يقول المؤرخ ارمسترونغ – لم تكن تزعـج الملك ابداً ، بل كان يعود للجلوس الى مائدة المفاوضات ويستأنف المنـاقشة في هدوء من النقطة التي توقف عندها ، في حين ان الضوضاء الصاخبة في البـــلدة والغبار وتردد السعاة وضباط اركان الحرب الى المقر الملكي واضطرار الملك الى قطع المحادثات والتغيب ثم العودة . . . هذا كله ادى الى نفاد صبر ممثل الحكومة البريطانية « سير جيلبرت » فخيل اليه ان ابن سعود يهزأ به وانه يحاول التأثير عليه بظواهر القوة هذه .

واعلن كلايتون صبيحة اليوم السابع انه يضع حداً للمحادثات . واذا كان يستحيل التوصل الى اتفاق ودي ، فلا بد من الحرب . . . الحرب التي ستستخدم فيها كل الوسائل الفنية الحديثة ، وتسهم فيهـــا القوات الفرنسية في سورية الى جانب البريطانيين .

ان تصريح كلايتون كان ينطوي على شيء من المبـــالغة ، فالفرنسيون مشغولون بثورة جبل الدروز وغير مستعدين لتحمل عبء صراع آخر . واما الحاميات البريطانية في فلسطين فقد خفضت الى الحد الذي لا يسمح لها بخوض حرب دون مساعدة حلفائها .

ولم يكن ابن سعود يجهـل ذلك . فتساءل برهة : هل يواجه التحدي ؟ ثم بدل رأيه، فإن عملاً من هذا النوع يعرض مصير المملكة للخطر، وليس من الحكمة

Marfat.com

التضحية بالمهم لمحض الاعتداد بالنفس . فما دام كلايتون لم يتقدم بأيـة مطالب في الحجاز ، فلا بأس من التفاهم على موضوع وادي السرحان .

ولم يشأ ابن سعود ان يظهر بمظهر المتراجع امام الضغط ، فطلب مهلة اربـع وعشرين ساعة للتفكير . وفي اليوم الثاني وقع الطرفان اتفاقاً يتعهد ملك نجـد بموجبه بالجلاء عن وادي السرحان مع احتفاظه بحق السيادة على القبائل القاطنة في الوادي ، اما بشأن مينـــاء العقبة فإنه يمتنع عن المطالبة به بوصفه جزءاً من الاراضي الحجازية على ان يبحث مصيره في مفاوضات مقبلة .

وبنتيجة هذا الاتفـــاق اصبح ابن سعود طليق اليدين في المناطق التي كانت خاضعة حتى الآن للحسين . فإن الصمت الذي التزمته معـاهدة « بحرة » حول هذا الموضوع كان يعني ان القضية لا تهم بريطانيا .

لم يبق اذن سوى متابعة فتح الحجاز ، فقد تحصن « عـلي » في جدة وعزز فيها حاميته بمساعدة المرتزقة الاتراك الذين جندهم من بين عمال الميناء . وحذت « المدينة » و « ينبـع » حذو جدة . فأصدر ابن سعود اوامره الى « الاخوان » بهدم حصونها باسرع وقت ممكن .

ولكن حصار المدن الثلاث امتـد الى عدة اشهر رغم هجمات الاخوان الضارية . وصمدت حامية « جدة » ببسالة وعناد ، فإن هذه المدينة التي بنيت حول ضريح حواء كانت محصنة تحصيناً قوياً من قبل المصريين في السابق وكانت مركزاً تجارياً مزدهراً .

Marfat.com

واخيراً ... بدأت الميـــاه والمؤن تتناقص رغم التقنين الدقيق واخذ المحاصرون في الابراج العالية يموتون بالمئات وكان يستحيل دفنهم لان المقابر خارج الاسوار وهي في ايدي الاخوان . واصبحت المجـــاعة رهيبة وغصت الشوارع بجموع المتسولين يزحفون في اسمـال بالية ، خائري القوى عاجزين عن السير ، ثم يتساقطون امواتا من الحرمان ، على الارصفة وفي الساحـات . رجال ونساء فقدوا عقولهم بتأثير الجوع والظمأ يزاحمون الكلاب الشاردة والعقبان على جثث الاموات ، وتحولت ازقة الميناء الى مقبرة مكشوفة . وكان خريف ذلك العام حاراً والشمس ترسل اشعة لاهبة فامتلأت المدينة بالروائح الكريهة تتصـــاعد من الجثث المنتنة ، حتى ان البواخر السائرة في عرض البحر كانت تحول سيرها بعيداً عن « جدة » هرباً من الرائحة وجرائيم الاوبئة .

واستعد « الاخوان» في اوائل تشرين الثاني ١٩٢٦ لتوجيه الضربة القاضية . واستبد اليأس بالأمير « علي » الذي كان الى ذلك الحين يأمل في مساعدة الانكليز ومعونتهم اذ يسهل عليهم تموينه من البحر ، ولكن لا الانكليز ، ولا الحسين ، ولا فيصل ولا عبد الله ، فعلوا شيئاً لمؤازرته . فشعر بأنه خسر الجولة نهائيـاً ، ولم يعد بوسعه الصبر فقرر التسليم لينقذ المدينة من الدمار الشامل .

وابحر في مطلع كانون الأول على قارب بريطاني نقله الى عدن ، وتوجه منها الى بغداد لاجئاً الى اخيه الملك فيصل فكان آخر هاشمي يغادر ارض الحجاز .

ولما علمت « المدينة » و « ينبع » باستسلام « جدة » ورحيـــل « علي » بادرتا بدورهما الى الاستسلام .

Marfat.com

٦١

وقرر ملك نجد ان يدخل مكة المكرمة للمرة الثانية ، وكان قد دخلها اول مرة حاجاً ، حاسر الرأس اعزل من السلاح ، في موكب تميز بالطابع الديني الصرف .

وهكذا مشى خمسة عشر الفاً من الاخوان في عرض عسكري وجابوا المدينة ، وهم مشرعو السيوف تتقدمهم الموسيقى والريات والالوية وتوجه الملك بموكب رسمي الى القصر يحوطه الاعيان والقادة والولاة واطل على الجمهور من الشرفة الشريفة ، فيما كانت المدفعية تطلق من اعلى الاسوار مئة طلقة وطلقة ، ترددت اصداؤها في فضاء الجبال المحيطة بالمدينة المقدسة .

ثم انتقل الى قاعة العرش حيث كان بانتظاره مئات من الشيوخ واشراف المدينة فأعلنوا مبايعة شعب الحجاز له بالملك (١٨ كانون الثاني ١٩٢٦) .

*

* *

غمر الكولونيل « لورنس » بأس شديد لما بلغه خبر انهيار الحسين والطريقة التي تخلت بها بريطانيا عن حليف الأمس وامتهنت الوعود المبذولة للهاشميين .

وخيل اليه ان كل شيء في قرارة نفسه ومن حواليه قد تداعى ، عندما علم بتفاصيل رحيل الهاشميين وبان « كلايتون » الذي عمل معه جنباً إلى جنب في — المكتب العربي — بالقاهرة ، لم يفرض على السعوديين الانسحاب من الحجاز ولا تنصيب الأمير علي على عرش ابيه .

Marfat.com

لقد ذهب قبـــل عشر سنوات ، لفتح الصحراء ، يدفعه شعور بالفخر والاعتزاز ، ونجحت مهمته وهب العرب لتلبية ندائه ممـــا جعله شديد الثقة بنبوغه وذكائه .

ولكنه عندما يعود الآن الى استعراض مغامرته ، فان لواذع السخرية تدمي قلبه . اين جحافل الرجال ..؟ لقد تبددت كالدخـــان ، والفى الحسين نفسه في ساعة الشدة وحيداً ، واضطر علي الى الفرار .

لقد خيل « لملك العرب غير المتوج » انه يعمـل للخلود ، ولكنه يرى اليوم ان جهوده واحلامه لم تتعد في مصيرها آثاراً على رمال . اين الاتحـــاد العربي الكبير ؟ لم يبق منه سوى العراق وهذه الرقعـــة البائسة من الأرض - شرقي الاردن - المحشورة بين فلسطين والصحراء دون منفذ الى البحر . فحصيـــلة المهمة التي قام بها في النهاية : الاخفاق .

لقد خسر المعركة الاخيرة ولم تعد آماله عالقة بشيء .

كانت سقطته عميقة ، فاراد ان يجعلها ابعـــد غوراً ، بان يستخدم ذكاءه الضاري الذي كان يتميز به ضد نفسه ولسحق ذاته .

كم مرة حاول التخلص من القابه التي لا مبرر لها وقيادته الزائفة : « لقد كان العرب ضحية خدعتنا ، ومع ذلك كانوا يقاتلون العدو بكل مـــا اوتوا من اندفاع . وكانوا يهبون الى تلبية ارادتنا ، كما يهب التبن امـام الرياح ... انهم لم يكونوا تبناً بل هم اشد الرجال شجاعة وبسالة وقناعة ... ربما كان من البطولة ان ابذل حياتي في سبيل قضية لا ايمان لي بها . اما ان اسوق الى الموت سواي ، واتقنع بالاخلاص فيما انا في الواقع اهرج ، فتلك سرقة ، سرقة ارواح ... لقد كان لي ، ولا ريب ، ميل الى الخداع ومقدرة في مجـــالاته ، والا لما كنت

Marfat.com

استطعته الى هذا الحد وطوال سنتين ولكان أخفق هـــذا الخداع الذي وضع مخططاته سواي . لم يكن لي اي نصيب في الثورة العربية في مستهلها ، امـا في النهاية ، فقد كانت لي مسؤولية الارتباكات التي اثارتها هـذه الثورة على الذين تمخضوا بها . فمتى تحولت ، في سيـاق الثورة ، مسؤوليتي من ثانوية الى اولية واساسية ؟ والى اي سبب يجب ان يسند الحكم علي ؟ ليس لي ان اجيب . لقد كنت اشعر بمرارة اسفي لانغماسي في هذه الثورة ، انهـا مرارة كانت كافية لأن تضني نفسي ساعة اتحقق من واقـع جمودي ، ولكنها لم تكن كافية حتى تدفعني الى التحرر من التزاماتي . من هنا ، تقلبـات ارادتي وتذمري الدائم العقيم » .. (١)

وباتت الشكوى وحدهـا لا تجدي ، فان الم الخيبة بـدأ يحرق لورنس ويوحي اليه بفكرة الانتحار ، واصبحت الحياة والشرف بالنسبة اليه على طرفي نقيض فلا يدفع احدهما عن الآخر .

وكان لورنس ينصرف احياناً الى احط المهن لينسى فيها مرارة خيبته فعمل خادماً في اسطبل وفي زريبة خنـــازير ، وكان يردد باستمرار : « كنت احب الأشياء المهينة ، وابحث عن ملذاتي في الحضيض ، وأجد الثقة والاطمئنان في التردي والانحطاط ، ان في وسع الانسان ان يسمو الى مستويات لا حدود لها ، ولكن ليس في وسعه ، عندما ينحدر ، ان يتخطى في انحداره حداً معيناً . »

لقد كان يأمل في استعادة حريته الهـــانئة التي عرفها ايام شبابه في غيطان بورسعيد عندما كان يقضي ايامه في تحميل البواخر مع نفر من منبوذي القارات الثلاث ، كما كان يقضي لياليه في النوم متقلصاً على الرصيف عند قاعدة تمثـــال « دولسبس » .

---

١ ـ لورنس : « اعمدة الحكمة السبعة ».

Marfat.com

ولم يستطع اي شيء ، حتى ولا مرور السنين ، ان يخفف من آلامه ، وانتهى به المطاف اخيراً الى التطوع في سلاح الجو الملكي البريطـــاني كجندي بسيط وباسماء مستعارة . هنا وجد بعض الراحـــة في حياة الثكنات الآلية بين قوم يجهلون ماضيه وشخصيته ، او آخرين يعرفونه ولكنهم يحترمون صمته .

وقد كتب بذلك الى بعض اصدقائه يقول : « ليس في وسع المرء ان يكون إلا قائداً اعلى او جندياً بسيطاً ، وليست المراحل الفاصـــلة بينهما سوى تمويه وخداع ، وعندما لا نتولى زمام القيـــادة المطلقة فانه لمن الأفضل ان نحتمي بالطاعة العمياء . »

وسقط لورنس في ١٣ ايار سنة ١٩٣٥ ضحيـــة حادث مروع وهو يقود دراجته البخارية ، فنقـــل الى المستشفى حيث لفظ فيه انفاسه الاخيرة بعد بضعة ايام .

كان الاخوان في نشوة ، فقد الهب فتح الحجـــاز حماستهم للقتال ، واخذ المحاربون ، وعلى رأسهم فيصـــل الدويش ، يطلبون الى الملك ان يخوض معارك اخرى ، ويحقق انتصارات جديدة ..

رأى ابن سعود ان يوجه موجة هذه الحماسة الى منطقة « عسير » على ساحل البحر الاحمر .

ان « عسيراً » منطقة تتميز في الجزيرة العربية بخصبهـــا وكثافة سكانها من مزارعين وذوي حرف ، كما كانت تتميز بوسائل الري المتطورة فيها ، والتي تتيح

Marfat.com

لفلاحيها حراثة اراضيهم وزرعها حبوباً وخضاراً على مدار العـــام .

وكانت « عسير » ، وهي مهد الحضارة القديمة من سبأية وحميرية ، ترزح عام ١٩٢٦ تحت حكم حسن الادريسي ، وكان حـاكما مستبداً . فمشى « الاخوان » الى « أبها » البلدة التي كان يعتصم فيها الادريسي ولم يجدوا صعوبة في القضاء على سلطانه وارغامه على الفرار . فعين ابن سعود احد ابناء عمومته حـــاكما على « عسير » [1] .

ودارت بعد ذلك المفاوضات بين الملك عبد العزيز وبريطانيـــا ، ولكن المفاوضات هـــذه المرة جرت في جو يختلف عن جو مفاوضات القاهرة او عقير ، فقد ادركت بريطانيا حقيقة قوة ابن سعود وقررت كسب مودتـه ، وانتصرت نظرية فيلبي على اراء لورنس .

ابدى المفاوضون البريطانيون كثيراً من الاستعداد الطيب والاحترام نحو الملك . فسر ابن سعود بهذا التحول ، وقرر استغلال الظروف المؤاتية لتوسيع المباحثات واجراء مفاوضات عامة لتسوية كافة القضايا العالقة بينه وبين بريطانيا دفعة واحدة ، فوافق على عقد معاهدة حسن جوار مع فيصـــل وعبد الله ، وتعهد بالا يتعرض للعراق وشرقي الاردن .

وانتقل المفاوضون بعد ذلك الى مشكلات شبه الجزيرة العربية الاخرى . فوافق ابن سعود على « عدم الاهتمام » ، بحضرموت وعمان اللتين تطوقـان شبه

---

٢ - جاء في كتاب « جزيرة العرب في القرن العشرين » ما يلي : « استنجد الحسن الادريسي بالملك عبد العزيز عندما كان امام اليمن يزحف بجيشه لاحتلال « عسير » فاعلن الملك عبد العزيز حمايته وعقدت بينهما معاهدة تنظيم الادارة في تلك المنطقة عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) لانقاذ ما بقي من ملك الادارسة . وفي عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) طلب السيد الحسن ان تضم البلاد الى مملكة جلالة الملك عبد العزيز وان يكون حكمه فيها مباشراً . ومن ذلك التاريخ اصبح ذلك القسم من « عسير» ملحقاً بمملكة نجد والحجاز . »

Marfat.com

الجزيرة في الجنوب الشرقي على طول المحيط الهندي وتشكلان امتداداً للربع الخالي ليس فيه ما يغري ، ويقطنهما عدد ضئيل من السكان ، وإذا استثنينا مسقط عاصمة عمان فلن نجد فيها سوى عدد من القرى الصغيرة الفقيرة ، المبنية من الآجر واللبن يعيش فيها جماعات من الصيادين البؤساء .

واحتفظ الملك بموجب هذه المعاهدة بحق السيادة على الحجاز وعسير ، وبحق الاشراف على الديار المقدسة دون منازع .

٦٣

عندما فتح النبي محمد ﷺ مكة ، واصبح سيد الحجاز ، اخذت تتوافد القبائل العربية الى المدينة المقدسة لمبايعة الرسول العربي (٦٣٠ — ٦٣١) ودعي ذلك العام ـ الذي سجل لاول مرة في التاريخ توحيد الجزيرة العربية تحت قيادة واحدة ـ بعام الوفود .

وشاء ابن سعود ان يحذو حذو الرسول ويعيد تلك الذكرى المجيدة ، فدعا في خريف العام ١٩٢٨ ، الى عقد مؤتمر عام (جمعية عمومية للجزيرة العربية) يعقد في الرياض [1] وطلب من جميع قبائل المملكة ومدنها وقراها إيفاد مندوبين عنها الى المؤتمر .

ولم يكن هدف ابن سعود من وراء المؤتمر محض تظاهرة تلهب خيال رعاياه .

---

١ ـ ان الاسباب الرئيسية التي دعت الى عقد هذا المؤتمر موقف فريق من الإخوان بقيادة فيصل الدويش ضد الاصلاحات التي قام بها الملك عبد العزيز زاعمين انها من البدع والمنكرات ، فاراد عبد العزيز ان يجمع كلمة النجديين ويثير حميتهم ضد الاخوان المتطرفين .

Marfat.com

بل كانت تحتمها ضرورات ومشاكل سياسية داخلية . فقد انشغل الملك بفتح الحجاز وعسير وظل غائباً عن نجد طوال عامين كانت خلالهما مناطق حـــائل والاحساء وعتيبة برعاية حكام عكف الملك على اختيارهم في عناية . ومع ذلك فإن بعضهم لم يكن في مستوى المهمة التي انتدب لهـا فشط في تصرفه مما ادى الى انتشار التذمر والتشكي ، وتأزمت اوضاع بعض المناطق حتى اوشك السكان على الثورة . وكان الاخوان منصرفين الى مهامّهم الحربية بعيدين عن مواطن الاضطراب حتى يعيدوا الأمور الى نصابها. فنجم عن ذلك استياء عام هدد استقرار المملكة. ولقد حان الوقت ليقبض الملك بيديه على ناصية الأمور .

حدد الثامن من تشرين الاول موعداً لافتتاح المؤتمر واخذت الوفود تتوالى ، منذ مطلع الشهر ، من مختلف ارجاء الجزيرة العربية ، وتجمع في اليوم المحدد امام القصر الملكي ، حشد يقدر عددهم بستين الف نسمة حتى تجاوزوا اسوار القصر وغصت ساحة المدينة بالجموع وضاقت بها الشرفات والنوافذ واغصان الاشجار واسطحة المنازل . انـه لحشد لم تشهد له الرياض مثيلاً منذ ان رأت النور .

كان المؤتمر صورة ناطقة لشعب الجزيرة العربية : العلمـــاء والحكام والولاة وامراء الاسرة السعودية ، واعيان المدينة وشيوخ القبائل وقادة الاخوان والضباط والجنود ، جنباً الى جنب مع الرعاة والمزارعين .

ولم يكن هؤلاء الرجال المتباينون سنـاً ونشأة ومشارب وميولاً مدفوعين بعوامل ومشاعر واحدة . فبعضهم على ولاء مطلق للملك ، وغيرهم اقل ولاء ، ومعظمهم لم يسبق له ان شاهد الملك من قبل . وقد اجتـــاز هؤلاء مئات الكيلومترات عبر الصحراء استجابة لندائه متلهفين لسماع ما سيقول .

واطل ابن سعود من على قمة درج القصر منتصباً بقـــامته المديدة الفارعة واستعرض الجموع بنظرة شاملة نافذة وبدأ يتكلم ... ومما قاله :

Marfat.com

– الملك لله وحده ! اذكروا اني عندما جئتكم الفيتكم منقسمين على انفسكم متناحرين ، يسطو بعضكم على بعض . وكان الذين يتولون شؤونكم ، سواء من العرب او الاجانب ، يتآمرون عليكم ويغذون خلافاتكم ليحولوا بينكم وبين الوحدة والقوة .

عندما جئتكم كنت ضعيفاً . ولم اكن املك من القوة سوى عون الله . ولم يكن يصحبني سوى اربعين من الرجال كما تعلمون جميعاً ، فانتقلت ، مع ذلك ، من نصر الى نصر وجعلت منكم شعباً ... وشعباً عظيماً .

ولقد دعوتكم الى هذا المؤتمر ، ليس بدافع الخوف من احد لأنني لا اخاف احداً . لقد قاتلت وحيداً في الماضي ولا معين لي الا الله . ولا يخامرني اي خوف من مواجهة قوى الأعداء لأنني أؤمن بان الله ، عز وجل ، سيؤتيني النصر من عنده ، الا انني انما دعوتكم خشية من الله ... اجل خشية من الله ومخافة الوقوع في معصية الغرور . ذلك ما دعاني الى التحدث اليكم الآن ، واريده ان يكون حديثاً من القلب الى القلب .

لقد ترامى الي ان لدى البعض منكم شكاوى علي وعلى الولاة الذين اوليتهم عليكم . انني اريد ان اعرف هذه الشكاوى لأقوم بواجباتي نحوكم ولأبرىء ذمتي عندما اقف بين يدي الله .

ولكن هناك امراً اساسياً لا بد من تسويته قبل اي شيء آخر . فاذا كانت لدى بعضكم ملامة يوجهها الي فليفعل وليقل دون حرج اذا كان يرغب في بقائي حاكماً او انه يفضل حاكماً سواي . انني لا اتخلى عن سلطتي لأحد يريد انتزاعها عنوة ، ولكنني اضعها من تلقاء نفسي وديعة بين ايديكم اذا كانت تلك هي امنيتكم لأنني لا اريد ان احكم شعباً لا يرغب ان اكون ملكه .

Marfat.com

دونكم آل سعود ، فاختـــاروا رئيساً من بينهم . وايا كان الرجل الذي تختارونه فلسوف اساعده واخدمه بأخلاص .

والآن .... قولوا كلمتكم فأني انتظر قراركم . »

وسكت ابن سعود ليتيح للجماعة مجال التعبير عن رأيها . وعقلت الدهشة ألسنة الجمع فخيم صمت عميق دام برهة ثم علت الهمهمة واتسعت وتصاعدت كالموجة الهادرة وتحولت الى هتاف متواصل صاخب :

ـ نحن معك، يا عبد العزيز ... ولا نريد احداً سواك ملكاً يقودنا ...

رفع ابن سعود ذراعه ليعيد الهدوء وقال :

ـ اني اشكركم على ثقتكم وسأعمل كل ما بوسعي للحفاظ عليهـــا ، ويجب الا يقوم بيننا اي ظل من الريبة والشك ، واريد ان يكون كل شيء واضحاً وصريحاً . ولنذكر جميعاً انكم تذكرون كلمات خليفة رسول الله ابي بكر الصديق رضي الله عنه عندما بايعوه بالخلافة اذ قال :

« ايها الناس ... اني وليت عليكم ، ولست بخيركم ... ان احسنت فاعينوني ، وان اسأت فقوموني ... ألا ان الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ... ألا وان القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ... اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت فلا طاعة لي عليكم »

اني اردد القول نفسه امامكم لمصلحتي ومصلحتكم ، فالزمن يتبدل ولكن التبعات لا تتغير ، فإذا كان بينكم من نالتهم اذية او يكنون ملامة او لديهم شكوى يوجهونها الي فليعبروا عن ذلك في مطلق الصراحة آمنين. فإن الشكاوى ستحال الى قضاة يتولون تمحيصها والتدقيق فيها ، فاذا حكموا بمسؤوليتي او

Marfat.com

بخطأي فلسوف اخضع لأحكام الشرع شأني في ذلك شأن اي فرد من رعـــايا المملكة .

فتكلموا ايها الاخوان وأفصحوا دون تحفظ على ما تنطوي عليه صدوركم . واعلنوا ما تأخذونه على حكامكم ، فأنا المسؤول عنهم لأني انا عينتهم . وانتم ايها العلماء تكلموا وكأنكم في يوم الدينونة عندما تمثلون بين يدي الخالق لتقدموا له الحساب . تكلموا ولا تخشوا احداً مهما كان عظيما او مقتدراً ... »

وتألفت محكمة خاصـــة تولت في الأيام التالية الاستماع الى الشكاوى ، فيما انصرف ابن سعود ورؤساء الوفود الى بحث مختلف وجوه الادارة الملكيـــة وتمحيصها : تطور الهجر الزراعية ، اعمال الري ، العائدات ، تجنيد الاخوان ، الموارد البلدية ، وأمن الطرق . ولكن الملك حظر عليهم التعرض للقضايا الناجمة عن المنازعات القبلية ، فقد كان يعتبر هذه القضايا من اختصاصه وحده ويتمسك بحق البت فيها .

كان لخطاب الملك وقعه الطيب . وازدادت الجماهير اعجاباً به وتقديراً عندما اعلن عن العقوبات التي انزلت ببعض الولاة الذين اساءوا الادارة وتحقق النـاس كمال الامن والحرية للذين كشفوا عن مخبآت صدورهم . فكان ذلك كله الدليل الساطع للشعب على ان ابن سعود رجل يفي بما يتعهد به ويقدس ما يقطع من وعود .

واختتم المؤتمر باحتفال ديني وعسكري كبير . ونودي بابن سعود ملكاً على الجزيرة العربية وحامياً للديار المقدسة .

ولما انتهى الاحتفال في المسجد الكبير ، وظهر حفيد سعود الكبير في باحته يحوطه به ابناؤه ، استقبلته الجماهير بحماسة منقطعة النظير . واعلن ابن سعود بصوت

Marfat.com

جهير ان عهد الممالك المنفصلة في نجـــد والحجاز والاحساء وعسير قد انتهى واصبحت كلها دولة واحدة تحمل اسم « المملكة العربية السعودية » .

ثم انتقل الملك الى ساحة الرياض الكبرى حيث تجمعت فرق الاخوان ووحداتهم على اختلاف انواعها ، فسلم اليهم الرايات الجديدة ، ووزع الهبات على العلماء والولاة والقادة والضباط الذين ابلوا البلاء الحسن في المعارك الاخـــيرة ، فأعطى كلا منهم حسب استحقاقه ورتبته : سيوفاً وخناجر مصقولة وسجاجيد للصلاة ومعاطف مطرزة واسرجة موشاة بالذهب والفضة ، وصقوراً للصيـد وبنادق ، وغنائم متنوعة من مخلفات الحسين في الحجاز ..

وهكذا يسير ابن سعود الى اهدافه مرحلة مرحلة ... وينتقـل من نصر الى نصر ... لقد عقد معاهدة جدة، مـع الانكليز، واعترف بملكته اكثر الدول الاجنبية ، واشترك في التوقيع على ميثاق تحريم الحرب ... لقد وطد الامن في بلاده ، واخمد حركات الثوار المتمردين في مملكته الشاسعة الاطراف ...

لقد اصبح ابن سعود الآن سيد الجزيرة العربية من اطراف سورية الى المحيط الهندي ، ومن البحر الأحمر حتى الخليج العربي .

ان مملكة جديدة قد ارتسمت على خريطة العالم

Marfat.com

الجزء الرابع

المملكة العربية السعودية

(١٩٢٨ - ١٩٤٥)

Marfat.com

Marfat.com

٦٤

خلف الحسين الحجاز في حالة انحطاط يصعب وصفها . فالمـــالية والشرطة والادارة العامة والصحة والشؤون البلدية وانظمة الحج ، كانت كلهـا بحاجة الى اعادة نظر . وكانت مهمة لا اشق منها في هذا البلد حيث يتأثر كل شيء بوجود الاماكن المقدسة ، وحيث تمتزج القضايا السياسية والاقتصادية والدينية امتزاجـاً لا ينفصم .

وبدأت المتاعب غداة يوم الفتح . فقد دعا ابن سعود في حزيران ١٩٢٦ الى مؤتمر اسلامي كبير لبحث الوضع في الديار المقدسة مع ممثلين اختارهم العـــالم الاسلامي .

وكان الملك يعلق امالاً كبيرة على هذا المؤتمر ، وحرص على ان يوفر لاعضاء الوفود افضل جو ممكن للعمل . فجدد ثكنة المدفعية القديمة التي بناها الاتراك فوق هضبة مشرفة على باب المدينة الغربي،وزها البناء بالأعلام النجدية الخضراء، وغرست الاشجار عـــلى جانبي الطريق المؤدية الى الثكنة ، رمزاً الى تجدد الاسلام ومتعة للنظر في ذلك القفر الرمـــلي الموحش ، ووضع اخيراً جدولاً للاعمال تسهيلاً لمهمة المؤتمرين .

وعقدت الجلسة الاولى في قاعة الشرف حيث اقيمت منصة في طرف القاعة تعلوها مظلة كبيرة خضراء .

وكان عدد اعضاء المؤتمر الوافدين من مختلف الاقطـــار الاسلامية حوالي السبعين بينهم المندوب التركي الذي كان يتفرد بين الحاضرين بقبعته الاوربيـة ،

Marfat.com

فلما اتخذ المندوبون مراكزهم ، دخل ابن سعود القاعة وجلس فوق المنصة ، ثم نهض احد مستشاريه فتلا بالنيابة عنه خطاب الترحيب الذي جاء فيه : « لقد دعوتكم ، عندما استولى الاخوان على مكة ، الى الاجتماع لتدارس التدابير المناسبة . وها ان عاماً قد انقضى اتيح لكم فيه التفكير في الأمر ، ولهذادعوتكم الآن للاجتماع ثانية لتطلعوني على النتائج التي توصلتم اليها . انني اتوقع منكم ان تقولوا لي كل ما يمكن ، وما يجب عمله لتحسين اوضاع الحجاز الدينية ، وان تقرروا بأنفسكم ما ترونه صالحاً ، في هذا المجال . لارضاء الله والناس . »

وبعد انتهاء الخطاب غادر الملك عبد العزيز قاعة الاجتماع ليفسح للمندوبين مجال المناقشة الحرة ضمن الحدود التي رسمها لهم .

ولكن المؤتمرين لم يلزموا ، طبعاً ، حدود جدول الاعمال ، واعلنوا ان ابن سعود يحد من اطار مناقشاتهم فتخطوا البرنامج الذي وضعه لهم وتعرضوا لبحث قضايا التنظيم المدني والادارة واقترحوا انشاء خط حديدي يصل بين جدة ومكة . فكلف ابن سعود مستشاره ان يشكرهم على اقتراحهم ، وفي الوقت نفسه لفت انتباههم الى انهم يخرجون عن اطار المؤتمر . وعرض المندبوون بعد ذلك جمع مبالغ هامة من المال في بلادهم وتخصيصها لصيانة الاماكن المقدسة والعناية بها شرط ان تدفع لهم الاموال التي تجبى من رسوم الحج بكاملها ، فاعلن ابن سعود موافقته التامة على بادرتهم الكريمة ولكنه طلب منهم جمع الاموال اولاً ، على ان تبحث مسألة رسوم الحج بعد ذلك . وكان يعلم ان اقتراح المندوبين لن تكون له نتيجة عملية وانهم عاجزون عن جمع المبالغ الضرورية .

وفقد ابن سعود جلسة بعد جلسة ثقته بحصيلة المؤتمر . فالمندوبون يفتقرون الى عقلية بناءة عملية ، وقد اظهروا عجزهم عن حل اية مشكلة . وسيطر الغرور على المؤتمرين وتحولت المناقشات الى منازعات شخصية واحتلت الاهواء الفردية المرتبة الأولى .

Marfat.com

وغضب الهنود كما حدث في العام الماضي ، لانهم لم يمنحوا « المكانة الممتازة » التي يعتبرونها حقاً لهم ، فضاعفوا اثارة المشكلات واقترح احدهم انتخاب « اديب سرفت » مندوب تركيا رئيساً للمؤتمر في حين كان احد الحجازيين يحتل مقعد الرئاسة واصر اخر على التكلم بلغة بلاده او باللغة الانكليزية في حين كان من المتفق عليه ان تكون العربية لغة المؤتمر،واخذوا يوجهون الانتقادات اللاذعة الى كل شيء حتى الى الدعوة الوهابية وادارة مالية الحج ، وتنظيم المؤتمر ، بل ومبدأ عقد المؤتمر الاسلامي السنوي الذي اقترحه ابن سعود .

واخذ المصريون والاتراك بدورهم يضعون العراقيل ويحولون دون انعقاد الجلسات حتى ان اعمال المؤتمر لم تتقدم خطوة واحدة طوال اسبوعين .

واصيب ابن سعود بخيبة شديدة ، اذ كان امله ان يجعل من هذه المؤتمرات السنوية منطلقاً لمجلس تمثيلي اسلامي تبحث فيه الشؤون الدينية التي تهم ٤٠٠ مليون من المؤمنين في جو من التعاطف والاخوة،ولكن المنازعات التافهة التي تخبطت فيها الوفود لم تظهر له كم كان مخطئاً في آماله وحسب ، بل كشفت له بشكل مفجع مدى انقسام العالم الاسلامي وتفسّخه . انه لعالم شاسع ولكنه غير منسجم ، وكأن شعلة ايمانه قد خبت . لقد استدعى الى مكة اولئك الذين ينطقون باسم المسلمين في شتى انحاء العالم معتقداً بانه سيلقى رجالاً عامري النفوس حكمة وتعقلاً ، فاذا به حيال جمع من المدعين المتنافرين ، يحرصون قبل اي شيء على ارضاء مطامحهم الشخصية . واما وحدة العالم الاسلامي فتأتي في المرتبة الثانية في عرفهم . ولم تكن خطبهم ومناهجهم الروحية ، بل وتقواهم نفسها،سوى مظاهر لاخفاء حقيقتهم،ولم يكن وراء كلماتهم الطنانة سوى الفراغ.

وهكذا اختتم المؤتمر اعماله دون الوصول الى اية نتائج ايجابية .

Marfat.com

ولم يكن اعضاء المؤتمر وحدهم في نزاع ، بل ان قوافل الحجاج كانت تحذو حذوهم ، وكانت الخلافات بينهم حادة تؤدي احياناً الى اشتباكات دامية .

وتميز العام ١٩٢٧ بحوادث بالغة الخطورة ، فقد بدأ الحج في مطلع حزيران. واخذت القوافل تتجمع قادمة من ايران وشرقي الاردن ومصر . وكان الحجاج المصريون عملاً بتقليد قديم يجلبون معهم المحمل الشريف رمزاً الى الهودج الذي كان ينقل الملكة المصرية « شجرة الدر » اول ملكة اجنبية اعتنقت الاسلام قبل ٦٠٠ سنة وكانت فصيلة من الجنود المصريين المسلمين تواكب المحمل بقيادة « امير للحج » يختار عادة من الاسرة الخديوية .

وكان من منهاج يوم الوقفة ان ينقل المحمل الى جبل عرفات بطريق وادي « الابطح » مروراً بمنى حيث يتجمع عادة عشرات الالوف من الحجاج في ممر ضيق تحت شمس لاهبة ، مع دوابهم وخيامهم ومؤنهم ومختلف حاجياتهم وقد اعياهم التعب من جراء القيظ ومشقة السفر .

وادرك المصريون منى في ذلك اليوم عند اوائل الغروب، وتوقفوا برهة عند مدخلها ليتيحوا للمتخلفين منهم مجال الالتحاق بالموكب . كان الحر خانقاً وثمة عاصفة على وشك الهبوب ، فقرع الجنود الطبول ليدلوا رفاقهم على مكان وجودهم وسط الحشد الهائل .

وسار كل شيء طبيعياً حتى الآن ، الى ان اشار احد الاخوان فجأة بأصبعه الى المحمل وصاح :

Marfat.com

— انه صنم .. لقد جاءنا المصريون بصنم ، ولقد رأيتهم يعبدونه ويقرعون له الطبول .

واكد نجدي اخر انه شاهد احد الحجـــاج المصريين يدخن التبغ وصرخ :

— انهم قوم لا حرمة للدين الحنيف في قلوبهم ؛ انهم لوثنيون كفرة .

واقترب بعض المتحمسين من المحمل واخذوا يرشقونه بالحجارة ، بينما تحلق حجاج اخرون حوله يطلقون الهتافات العدائية . واستولى الخوف على الضابط المصري الذي يقود الفصيلة، فاصدر امره الى رجاله بأطلاق النار ارهاباً في الفضاء فلم يكن لدوي الطلقات من نتيجة سوى زيادة الانفعال والحمـــاسة فتضاعفت الصيحات والشتائم فخشى الضابط حينذاك ان تطغى عليه النقمة فأمر جنوده بتهيئة المدفع واطلاق النار على المتظاهرين ، فأدى الطلق الى سقوط مئة جريح وخمسة وعشرين قتيلا بينهم عدد من النساء .

علت على الاثر زمجرة غضب من كل الجهات، وهرع الجنود الاخوان، والنجديون الى اسلحتهم ، وماجت التلال المجاورة لوادي الابطح ومن جبل الرحمة بالرجال الساخطين ينفثون الموت للمصريين .

كان ابن سعود في قصره بمكة ، فلما بلغه نبأ الحادث سارع الى امتطاء جواده ودعا حرسه للحاق به وراح ينهب الارض نهباً الى منى. فالامر على جانب كبير من الخطورة ، واذا لم يتمكن من تدارك الموقف ، فلسوف يكون ذلك برهاناً للعالم اجمع على انه غير جدير بادارة الاماكن المقدسة وأثباتا لادعـــاءات اعداء الاخوان بأن وجودهم في مكة خطر على الاسلام .

Marfat.com

وكان الليل قد اسدل سدوله وغرق الوادي في الظلام واكتنفته عاصفة من الغبار يصعب خلالها تمييز الجمهور الصاخب وكان الهواء مفعماً برائحة البارود والدم .

وقفز ابن سعود ارضاً ، ثم شق لنفسه بالسوط طريقاً بين الجموع المتراصة ، وفصل بقسوة بين المصريين والاخوان، ومشى بخطوات واسعة الى حيث كانت تتخبط جثث الضحايا ، وهو يصيح في النجديين مهيباً بهم الى التزام السكينة ، فعرف هؤلاء ملكهم وانسحبوا الى سفوح التلال يرقبون ما سوف يحدث .

أجال ابن سعود بصره في المكان ، فرأى الجثث متناثرة على الارض ممزقة بصورة بشعة ، وخيوطاً من الدم الاسود تلطخ الرمال... فنادى حراسه وامرهم برفع جثث الضحايا ونقل الجرحى الى اقرب مستشفى ، ثم التفت الى الضابط المصري وامره بتجريد رجاله من السلاح ، ثم وضع قوة من الحرس تفصل بينهم وبين الاخوان لتفادي وقوع الاشتباك ، وعاد متمهلاً الى مكة، في حين اخذت الجموع تتفرق في الظلام .

فلما كان اليوم التالي طالب ابن سعود الحكومة المصرية بالترضية ، فتمنعت ولكن الملك لم ينثن ، واصر على ان حفظ الامن في الاماكن المقدسة حق من حقوقه لا يتنازل عنه قيد شعرة، واخيراً لم تجد الحكومة المصرية بداً من الرضوخ ودفعت التعويض لاسر الضحايا .

٦٦

اشتباكات دامية بين الحجاج ومناقشات عاصفة بين المؤتمرين . لقد اثبت ذلك

Marfat.com

لأبن سعود ان عليه ان يعمل دون استشارة احد من الخارج ، فسيوف فرسانه الصارمة اصدق انباء من كتب اصحاب النظريات والجدل ولن يتطهر الحجاز الذي أُسلم طوال عدة سنوات الى الصوص وقطاع الطرق بالخطب الرنانة . فالبناء المتين يحتاج الى قاعدة راسخة ، والقاعدة في الادارة كانت دوما : النظـــام والامن العام .

كانت الحياة في الحجاز قد اضحت، في عهد الحسين ، صعبة لاتحتمل : مئات الحجاج يسلبون او يقتلون كل عام ، وجرائم، القتل يومية مألوفة . كانوا يقتلون طمعاً بكوفية او بضعـة نقود او حفنة تمر ، وكانت السرقة مستشرية كالوباء فما من طريق آمن، وما من قرية في منجى من السالبين . ولما كان الفساد والرشوة سائدين الدولة بكليتها ، فغالباً ما كانت الجرائم على اختـــلافها تظل بغير عقاب .

وادرك ابن سعود سريعاً، ان التدابير القاسية وحدها هي التي ستؤدي الى القضاء على الفوضى، فعهد الى حرسه الخاص بمهمات الشرطة في مكة، واقام مفارز صغيرة ثابتة من الاخوان في القرى والمدن وسير دوريات متنقلة تتألف كل منهـــا من عدد من الفرسان في شتى انحاء البلاد .

قامت مفارز الامن هذه بتطبيق احكام الشرع بصرامة لا هوادة فيها، فكان القتلة والمجرمون يساقون الى محكمة عرفية مؤلفة من ثلاثة من الاخوان، وكانت الاجراءات سريعة ، فحياة الصحراء البدائية لا تتحمل العقوبات الطويلة الامد ، كما كانت الاحكام بسيطة ورادعة . فالقاتل يقطع رأسه ، بينما تقطع اليد اليمنى للسارق الذي يقبض عليه بالجرم المشهود، فإذا لم يرتدع، قطعت الثانية ، ثم القدم اليمنى ، فالقدم اليسرى . ومن وجد مخموراً ضرب ثمانين جلدة ، واما الزناة فيطمرون حتى منتصف اجسامهم في الرمل ، ويرجمون حتى الموت .

Marfat.com

يروي احد الصحفيين ان بدويا جاء الشرطة وابلغ انه عثر على كيس من الارز ملقى في الطريق ...

فسأله الضابط :

– وكيف عرفت انه ارز ؟

فأجاب الاعرابي :

– لقد جسسته .

وفقد الاعرابي سبابته التي جس بها الكيس [1] .

كان الجنود الاخوان يطاردون الخارجين على القانون باندفاع لا حد له ، ويصمون آذانهم عن التوسلات والتهديدات ، فلا تأخذهم رحمة او شفقة ، وكانت تربيتهم الدينية حصناً لهم ضد الفساد، لا فرق عندهم بين كبير او صغير، فالعقاب نفسه ينزل بالرجل الذي تثبت ادانته ، سواء اكان موظفاً كبيراً ام راعياً بسيطاً . كانوا لا يتساهلون في امر ولا يعفون عن شخص ، بل ينفذون مهماتهم بصلابة لا تلين . وكان شعورهم بأنهم عادلون في الحق يحول دون تسرب الكلل الى سواعدهم ، ويملأ افئدتهم الزاهدة راحة واطمئناناً .

وجاءت النتائج بعد ذلك سارة مرضية . فقد ساد النظام والامن انحاء الحجاز خلال وقت قصير الى حد ان وجه البلاد كله قد تبدل تبدلاً عميقاً .

انقطعت الجرائم الدنيئة عموماً ، وطهرت الطرق من عصابات النهب والسلب

---

١ - « باري ماتش » ٦ - ١٣ اذار ١٩٥٤ تحقيق في ديار ابن سعود بقلم جان بول بينيز وموريس جارنو .

Marfat.com

واصبحت آمنة حتى للمسافرين المنفردين . وكان الاتراك قـــد زرعوا في طول البلاة وعرضها ، حصوناً صغيرة لايواء رجال الشرطة ،فأمر ابن سعود بهدمها اذ لم تعد ثمة حاجة اليها . واصبح في وسع التاجر ان يترك امتعته واموله على جانب الطريق ، ويعود ليأخذها بعد اسابيع ، لان المارة يفضلون ان يبتعدوا عنهـا ويدوروا من حولها على ان يلمسوها ولو خطأ . لقد شاعت الرهبة في القـلوب حتى بات ثلاثة من الجنود الاخوان بقيادة صف ضابط يكفون لحفظ النظام في اقليم بكامله .

يحدثنا احد الكتاب عن هـذه الحقبة فيقول : [1]

« انه ليصعب علينا ان نتخيل تبدلاً جزرياً يتحقق في مثل ذلك الوقت القصير حتى ليمكن القول بكل ثقة : لو ان قافلة اسقطت كيساً من البن في الصحراء فلا بدّ من العثور عليه ، بعد ستة اشهر ، في الموضع نفسه . فـالامن في العربية السعودية مدهش ، اكثر شمولاً منه في اي بلد اوروبي. فالعوامل الضرورية لفرض النظام بين القبائل الرحل تتلخص في نقاط اربع : ١ ـ معلومـــات سريعة ٢ ـ تعاون وثيق بين الحكام وقوات الامن ٣ ـ سرعة في الحركة والتنقل تفوق سرعة القبائل ٤ ـ تفهم كامل للعادات والتقاليد المحلية . وكانت هذه العوامل الاربعة متوافرة للحكام السعوديين ، وهي التي كانت سبب نجاحهم . »

ويحدثنا « موريس جارنو » في كتابه « تحقيق حول ابن سعود » فيقول : « اذا كان ابن سعود قد نجح في لم شعث الجزيرة العربية تحت لوائه ،واذا كان قد جعل من بلد مضطرب آهل بالعصابات البلد الاكثر امناً في العالم ،فمرد ذلك ليس

---

١ ـ « جيرالد دوغوري » في كتابه : « الجزيرة العربية فريدة عصرها » .

Marfat.com

للقوة والسيف فحسب ، بل لانه سكب في اعماق الامة الناشئة اقوى عوامل التراص والتماسك ، اي التقيد الشديد باحكام القرآن .

فالجرائم التي ترتكب حالياً في العربية السعودية خلال عام كامل ، اقل مما يرتكب في باريس خلال يوم واحد . ويعود السبب في ذلك الى ان الحياة كلها تسيّر بسرعة استتباب القرآن ، والقرآن مجموعة شرائع تحسبت لكل شيء » .

اهتم ابن سعود بتحسين احوال الادارة المدنية وشؤون الحج ، بعد استتباب النظام والامن .

فان عدداً كبيراً من القبائل ، تعودت استيفاء « رسم مرور » من القوافل التي تعبر اراضيها وهي في طريقها الى مكة ، فمنع ابن سعود ذلك الاستغلال وكل الوسائل المشابهة المتوارثة من عهد السلاطين .

وكان الاستغلال التجاري للاماكن المقدسة قد بلغ خلال القرن التاسع حداً لا يطاق ، فلجأ بعض المكيين الى الشراسة او الى الحيلة ليكسبوا في خلال بضعة ايام معيشتهم للسنة كلها : ادلاء، مؤجرو دواب ، مؤجرو بيوت وغرف ، باعة تمائم وتعاويذ وماء من زمزم ، وحلاقون وحراس بيوت « تاريخية » . بجميع الاصناف والانواع ، بارعون في تنظيف خرج كل حاج .

وعمل ابن سعود بكل طاقته لمكافحة هذه الاساليب الاستغلالية دون ان يتمكن مع ذلك من القضاء عليها قضاء مبرماً . فانشا جهازاً للنقل المنتظم

Marfat.com

بين موانىء الساحل ومكة والمدينة، وامر ببناء احواض كبيرة للمياه في عرفات وعلى مقربة من الطرق التي تسلكها القوافل ، كما اقيمت مراكز صحية، واخرى لاسعاف الجرحى في اعقاب حادث المحمل .

وعنيت الحكومة السعودية عناية خاصة بتطوير وسائل المعالجة الطبية ومكافحة الاوبئة التي كانت تنتشر عادة بعد موسم الحج . واستعانت على مهمتها هذه ببعض الاتفاقات الدولية التي مكنتها من تعميم العيادات الطبية والمفارز الصحية التي تسهر على نظافة الشوارع وتعبيد الطرق وازالة الاقذار ، ومد المجارير. وشكلت لجان كلفت تطبيق تعاليم القرآن فتفرض الغرامة على من يتخلف عن عبادة الله وعن تأدية الفروض الدينية في اوقاتها، وقطع دابر الدعارة، ومنع الربا ، وكوفح البذخ وحظر على اي انسان التحلي بالذهب او لبس الحرير او التدخين في دائرة الحرم وقضي على اي شكل من اشكال العبادة الشخصية .

واعاد ابن سعود تنظيم المجالس البلدية في مكة والمدينة وجدة وينبع والطائف وسواها ومنحها مخصصات وسلطات واسعة ، وكان نصف اعضائها يتألف من الأعيان الذين يختارهم الملك والنصف الاخر ينتخبه الشعب .

ولما اصبحت موارد المملكة كافية ، فيما بعد ، الغى الملك رسوم الحج التي كانت تدر على الخزانة حوالي سبعة ملايين دولار لانه لا يريد — كما كان يقول — ان يجني اية ارباح مادية من حكمه الديار المقدسة ، ولقد دشنت هذه التدابير عهداً جديداً ليس بالنسبة الى السعودية فحسب ، وانما بالنسبة الى الحج نفسه اذ اعطته المظهر اللائق به .

اصبحت الضرورة تحتم انشاء جهاز اداري متين بعد اتساع رقعة المملكة وانضمام المزيد من الاقاليم اليها . وكان الملك ، في البدء يستند لتسيير دفة الحكم

Marfat.com

على خبرة والده وعدد قليل من « المستشارين » . لقد كان يشرف بنفسه على كل شاردة وواردة ويلاحق المقرارات التي يصدرها حتى يطمئن الى تنفيذها . اما اليوم فقد اصبحت ادارة البلاد تتجاوز ما يملكه رجل واحد من الطاقات ، واصبح توحيد المناطق وتنظيم استثمار موارد المملكة يتطلب قيام اجهزة ثابتة ، اي : حكومة ودولة .

قرر ابن سعود توزيع الممل بين وزراء مسؤولين يعينون على رأس المصالح المختصة : الداخلية ، والمالية ، والشؤون الخارجية ، والزراعة ، والدفاع الوطني وسواها . وكانت العربية السعودية ، في ذلك الوقت ، بلداً قليل السكان ، وكان معظم شعبها فقيراً جاهلاً ، باستثناء المشايخ ولكن عددهم كان محدوداً وكانت كفاءتهم تبرز في ميادين القتال . لقد تغيب الملك عامين فعمت الشعب موجة من الاستياء ، مما اثبت بشكل قاطع ان الذين عهد اليهم بزمام الامور ما كانوا على مستوى المهمة ، لذلك اضطر ابن سعود لدى عودته من الحجاز الى اتخاذ تدابير زجرية بحق بعضهم . وادرك كم هم قلة اصحاب الجدارة والكفاءة لحل المشكلات التي تواجههم والسير بالبلاد في طريق التقدم ، ذلك ان ابن سعود قد اخذ على عاتقه تحقيق اهداف ثلاثة : توحيد شبه الجزيرة العربية وبعث الايمان الصحيح وتحويل شعب الجزيرة الى مستوى امة عصرية . لقد تحقق الهدف الأول تقريباً وكان الثاني في طريق التحقيق . واما الثالث فكان لا يزال في عالم الأمل .

توصل ابن سعود بحنكته المعروفة الى حلٍ لهذه الازمة — ازمة البحث عن الكفاءات — فولى وجهه شطر البلاد العربية الاخرى ليغرف من معين الوطن العربي الكبير ، فلم يكن يهمه ان يكون وزراؤه من « جنسيات » غريبة ما داموا عرباً مؤمنين ومن ارومة نقية . السنا نتكلم لغة واحدة ؟ ان انعدام النزعة الاقليمية لم يكن وليد الصدف، انما كان ينبع من اعتقاد راسخ لدى الملك عبد العزيز ، فالعربي ، في نظره ، سواء أكان من دمشق او القاهرة ، من

Marfat.com

البصرة او بغداد ، ليس غريباً ابداً ، لكنه عضو في مجتمع قومي وديني واحد وان هذا المجتمع المتفكك المجزأ الان سوف يستعيد يوماً ما ، وحدته في ظل علم واحـد .

فعبد الله الفضل رئيس المجلس البلدي بمكة ، كان من مواليد « عنيزة » في « القصيم » . وحافظ وهبة المستشار الاول للملك كان مصريا ، ويوسف ياسين مستشاره الخاص كان من اللاذقية من شمال سورية ، ورشدي ملحس معاون رئيس الديوان الملكي كان فلسطينياً ، وفؤاد حمزة ، احد الادمغة البارزة ، الذي اشرف على تنظيم وزارة الخارجية وشغل منصب وزير مفوض في باريس في فترة ما ، كان درزياً من لبنان ، والدكتور رشاد فرعون سفير العربية السعودية الحالي في باريس والذي يعود الفضـل الى منشأه السوري ، في تفهمه العميق لعقلية الفرنسيين وتفكيرهم .

واما الموظفون المعاونون فقد اختيروا من بين التجار والمدرسين من مختلف البلاد العربية بما في ذلك شرقي الاردن والعراق .

وكان قرار الملك في هذا الصدد من افضـل القرارات اذ اتاح له ان يجمع حوله رجالاً متطورين اكفاء . ان ذلك الاختيار يفسر لنا النتائج المدهشة التي توصل اليها سواء في سياسته الداخلية ام في سياسته الخارجية .

لقد عكف ابن سعود على تثقيف نفسه بنفسه ، لان هجرته من الرياض في الحادية عشرة حالت دون ارتياده المدرسة في انتظام ، وكم كان يتضايق عندما كان يعي حاجته الى بعض المعارف التاريخية والدينية خصوصاً في مناقشاته مع

Marfat.com

العلماء الذين يكثرون في احاديثهم من ايراد الامثلة القديمة والآيات والاحاديث ، لذلك حرص الملك على تثقيف ابنائه وعلى العناية بتعليمهم عناية فائقة على ايدي اساتذة خاصين .

وغني عن القول ان اسرة كبيرة كأسرة ابن سعود ، كان لا بد لهـا من دفع ضريبة باهظة للموت، ولا سيما في بلد ترتفع فيه نسبة الوفيات ، ولم تكن القواعد الصحية الحديثة معروفة فيه بعد . ففي العـــام ١٩١٩ توفيت زوجته من آل الشيخ بالحمى الاسبانية التي اجتاحت الجزيرة العربية ، فتـــألم الملك لذلك الماً شديداً .

وزاد في فداحة المصاب ان الوباء نفسه قضى على نجله البكر الامير تركي ، وهو بعد في العشرين من عمره فكانت هذه الفجيعة الثانية بعـد فجيعته الاولى اعظم من ان تحتمل حتى خيل لابن سعود انه لن يستطيع الصمود حيالها .

تركي الطافح جاذبية وشجـــاعة ، تركي الذي عز نظيرهُ في الصيد ، تركي الذي كان يضع فيه كل اماله وامانيه لن يكون هنا في اليوم الموعود ليكمـــل المهمة ويحمل الرسالة . فما جدوى هذه المعارك اذن ، وذلك الكفاح ما دام ابنه البكر المفضل قد توارى ولن يصيبنه شيء من هذا كله ؟ لقـد فكر ابن سعود باعتزال العالم ، وهد الحزن المزدوج قواه وصحته .

وهكذا عاش الاعوام ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٢ منزويـــاً في قصره ، لا يستقبل الا نادراً، ولا يتكلم الا قليلاً، مكرساً ايامه كلها للابتهال والصلاة وترتيل القرآن ، ودراسة التاريخ الاسلامي .

ومرت المملكة في فترة ركود فيما كانت بريطانيا منصرفة الى محاولة اقامـة الممالك الهاشمية .

Marfat.com

ولكن صحـــة الملك تحسنت مع الزمن وتغلبت قوة بنيته وحيويته على الحزن واليأس ، وبدا « فهد الصحراء » يشعر بأن جراحه قد التأمت وعاد يستطيب شيئاً فشيئاً طعم الحياة ، واستأنف الصيد والقنص ، واخذ يوزع حبه وحنانه اللذين كان يكنهما لتركي على ابنائه الاخرين .

واصبح الامير سعود بن عبد العزيز ، بعد وفاة اخيه ولياً للعهد . وقد ولد في الكويت في شهر ربيع الأول للعام الهجري ١٣١٩ (١٩٠١) .

وعين ابن سعود نجله الثاني الامير فيصل نائباً للملك في الحجاز ، وهو يختلف اختلافاً كبيراً عن اخيه سعود، فليس له سوى زوجة واحدة وهو يتكلم الفرنسية والانكليزية بطلاقة ويمثل الاتجاه العصري والحيوي في المملكة . ولم يطل الوقت حتى اصبح وزيراً للخارجية ، ثم رئيساً لمجلس الوزراء،وسرعان ما اشتهر بمعرفته واطلاعه على شؤون العالم .

وعين ابن سعود بعد ذلك بسنوات نجله السادس الامير منصور مراقباً عاماً للعسكرات ووزيراً للدفاع الوطني . واما بقية ابنائه فكانوا لا يزالون في سن لا تمكنهم من تولي المهام .

واحتفظ الملك لنفسه شخصياً ببعض المهام التي كان يوليها عناية خاصة ،وفي مقدمتها تطوير « الاخوان » وتحويلهم الى جيش عصري . وكان الاخوان قد حققوا تقدماً باهراً منذ الفترة التي استقرت فيها اول فرقة من المتطوعين منهم بقيادة « متعب » في « الاورطاوية » . واصبح جيش الاخوان يضم خيرة المحاربين ، واضحى مع الزمن قوة مرهوبة الجـانب اثبتت قيمتها في « تربة »

Marfat.com

و « الطائف » وفتحت مكـة وجدة والمدينة وفرضت النظام في الحجاز ، ونجحت بسرعة في ضم « عسير » الى المملكة .

ولكن ابن سعود كان واقعياً جداً فـــلم يغال في تقدير قوته ، فإن جيش « الاخوان » الذي نشأ ونما جيشاً « صحراوياً » لم يكن كافيـــاً لضمان سلامة الدولة السعودية وامنها . فانصرف الملك الى مضاعفة عـــدد افراده وتطوير اسلحته وتدريبه وانظمته .

لم يكن في استطاعة الاخوان ان يواجهوا جيشاً اوروبياً ، وهذا ما كان يعرفه ابن سعود ، وما جعله يتحاشى اصطدامهم بالقوات البريطانيـة . فنسبة عدد السكان في الجزيرة العربية ، لا تتيح ، قبل زمن طويل ، تعبئة عسكرية كثيفة . ولكن من الممكن تطوير الجيش السعودي ليكون افضـل جيش في العالم العربي ، يستطيـع ان يفرض احترام حدود بلاده ، وان يصد اي عدوان من الدول المجاورة ، بل وان ينزل خسائر هامة بأية قوة اجنبية تحاول احتلال البلاد عسكرياً ، وذلك بفضل سرعة تحرك القوات السعودية وتمرسها بحرب العصابات .

ان فضلى ميزات الاخوان ، تلك التي ضمنت لهم النصر ، كانت سرعة الانتقال ، والاكتفاء بالقليل ، والقدرة على التحرك دون اي اعتبار للمسافة التي تفصل بين قاعدتهم وارض المعركة. وكان لا بد من المحافظة على هذه الميزات عند تحويلهم الى جيش عصري . ولهذا كان ابن سعود يسعى الى تنمية قوتهم دون ان يرهقهم بمعدات ثقيلة لا جدوى منها ، او يختصر دائرة اعمالهم الحربية .

اشترى ابن سعود بنادق رشاشة وعدة سيارات مصفحة ومدفعيـة خفيفة واستدعى بعض الخبراء البريطانيين والاميركيين لتدريب جنوده على استعمالها ،

Marfat.com

واسس مدرسة للتدريب العسكري ، ونظم اركان حرب دائمة ، وأوفد كبار الضباط للتدريب في مصر والولايات المتحدة .

ولم تمض عملية التطوير دون متاعب ، إذ اصطدمت بتيار معاد قوي كان لا بد من التغلب عليه . فقد اعتبر خيالة الاخوان المخترعات الاجنبية الحديثة عملاً شيطانياً ورفضوا التخلي عن السيف والجمل واستبدالهما بالرشاش والسيارة قائلين : ان قوه الاخوان لا تعظم بالاسلحة الحديثة بل بترسيخ العقيدة وتقوى الله . وكان شأن الملك في ذلك ، شأنه في مشاريعه الاصلاحية كلها .

وما كان من السهل افهامهم بأن تقديرهم خاطيء ، ولكن ابن سعود تمكن كعادته وبطريقته الفذة من اجتياز هذه العقبة الى ما كان يرى فيه الخير والمصلحة .

وقسم ابن سعود بعد ذلك جيشه الى فئتين : فئة الاخوان العاملين ، وفئة الاخوان الاحتياطيين . وكانت التشكيلات العاملة مؤلفة من ستين الف، رجل يجندون من بين مليون ونصف مليون بدوي صالحين للخدمة العسكرية ويشكلون قوة دائمة حسنة التجهيز والتنظيم ، تتولى حفظ الامن الداخلي . واما القوات الاحتياطية فتقيم في « الهجر » ولا تعبأ الا في حالة الحرب .

وهكذا صارت للدولة السعودية الحديثة بعد الحرب العالمية الثانية ، قوة عسكرية جديرة بالاعتبار يمكن ان يرتفع عدد افرادها لدى الحاجة الى ثلاثمئة وخمسين الف رجل ، مجهزة بمعدات اميركية توفرت لها خلال الحرب بموجب قانون الاعارة والتأجير ، او من فائض الاسلحة التي خلفتها الولايات المتحدة في البصرة ، وكانت مشحونة في الاصل الى الاتحاد السوفياتي . كذلك زود الجيش السعودي بسلاح جوي مؤلف من عدة اسراب من الطائرات يقودها طيارون

Marfat.com

من شبيبة البلاد ، بحيث اصبح هذا الجيش الذي يستعمل اللاسلكي والاسلحة الاوتوماتيكية والمصفحات قـــادراً كما يقول المعلق الحربي البريطـــاني « ليدل هارت » [1] على مواجهة اي اعتداء خارجي محتمل .

كانت العقبات تعترض ابن سعود في كل عمل من اعماله الاصلاحيـة الكبرى وفي طليعتها تحويل الجزيرة العربية الى دولة حديثة . فقد كان امن البـــلاد والدفاع عنها منوطين بتطور « الاخوان » وكان هذا التطور رهنـــاً بتضاعف « الهجر » الزراعية غير ان هذه « الهجر » نفسها كانت مرتبطة ، بدورها من حيث وجودها وازديادها « بمشكلة المياه » .

أمـ ليس من الغرابة تأسيس قوة وامن بلد ما على الزراعة ، في حين ان هذا البـــلد صحراوي في معظم مساحته ، ليس من نهر يرويه ولا يتلقى سوى سبعة سنتيمترات من المطر في العـــام ؟ .. فالجفاف كان يقف حجر عثرة في طريق ابن سعود ، ويشكل عقبة من شأنها انتحطم ارادته . أمن المعقول تحدي الطبيعة ، ومحاولة تحوير المصير الذي خطـه القدر للجزيرة العربية منذ الآف السنين ؟ انه لعمل اشبه بمحاولة وقف سير الشمس ..

ومع ذلك ورغم النصائح التي كان يسديها اليه المحيطون به ، فقـد رفض الملك الاستسلام للهزيمة . ان البـــدو يتداولون طائفة من الروايات الغريبة عن

---

١ – مجلة « باري ماتش » في ٢ حزيران ١٩٥١ .

Marfat.com

المياه ويتوارثونها ابا عن جد منذ اجيال . فهم يتحدثون عن حقبة بعيـــدة من الزمن كانت الجزيرة العربية خلالها مكسوة بالحدائق والغـابات ، فيهز معظم الناس اكتافهم ويصفون تلك الروايات بالاساطير .ولكن ابن سعود كان مقتنعاً بأن تلك الاساطير لا بد ان تنطوي على شيء من الحقيقة .

ان عرب الصحراء مصرون على الاعتقاد بأن موارد مياههم وآبارهم متصـلة فيما بينها بمسالك في جوف الارض ، ومما يروون عن ذلك ، حكايات كرة خشبية سقطت في احدى الابار ثم عثر عليها في بئر اخرى تبعدمئات الكيلومترات،وهم على اعتقادبأن ارتفاع مستوى المياه في آبار الاقليم الذي يقطنونه دليل على ان السماء تمطر في اقاليم اخرى بعيدة، وكان الصيادون على سواحل الخليج العربي يغوصون بحثاً عن المياه العذبة ، تحت طبقة المياه المالحة ويخرجون من قاع البحر خصلات من وبر الخرفان او الجمال . اليس في ذلك الدليل على ان منابع قعر البحر متصلة باقنية جوفية بمنابع الداخل ؟ الا يحجب جفاف الرمال طبقة وسيعة من المياه تكمن في الاعماق .

كانت هذه المعتقدات الشعبية تحث الملك على مواصلة جهوده ، واقترح عليه الشيخ حافظ وهبة استدعاء خبراء مائيين اميركيين ، وابتسم الحظ مرة اخرى لابن سعود . وجاء المهندسون المائيون من الولايات المتحدة يستكشفون البلاد ويؤكدون صحة حدس البدو البديهي ، وعثروا على كميات غزيرة من المياه ليس في بعض الآبار وحسب، بل دفينة تحت الرمال في اماكن لم يكن يخطر ببال احد من قبل ان هناك مياهاً .

ان للبدو نوعاً من الحاسة السادسة التي تمكنهم من تحديد المكان الذي يجب ان يحفروا فيه ليجدوا المياه . انها لحاسة فيهم لا تخطىء يستحيل على الاجنبي الحصول عليها مهما فعل ، وذلك ما جعلهم يؤكدون غالباً وجود المياه حتى في

Marfat.com

اما كن لم يأت منها سبر الاغوار بواسطة الخبراء الاوروبيين والاميركيين بنتيجة ايجابية، فما كان ينقصهم سوى الوسائل الآلية الحديثة لاختراق جوف الارض والوصول الى اعماقها البعيدة ، فلما وفّرها لهم المهندسون الاميركيون بلغوا طبقات مائية جوفية ، كانوا يحسون وجودها ولا يستطيعون بعثها الى النور بسبب نقص الوسائل الفنية .

كان هناك في الرياض حتى ذلك الحين عدد من الابار الشحيحة . فحفرت بئر جديدة على عمق هائل بلغ مئة وعشرين متراً بعرض ثلاثين متراً .

« لن انسى ابداً ذلك اليوم الذي جاء فيه الملك لزيارة ورشتنا » .

ذلك ما قاله المهندس « كنيث ادواردز » الذي كان يشرف على اعمال الحفر ، ثم يتابع قائلاً :

لقد انحنى على حافة البئر وحدّق في طبقة المياه التي كانت تتألق في الحفرة القاتمة ، فالماء هنا اثمن من الذهب ، انه عصب الحياة الذي يمكنه من تحقيق مشاريعه وتبديل وجه مملكته شيئاً فشيئاً . ولما انتصب الملك كان وجهه الصارم عادة بادي َ الانفعال،و كانت عيناه مغرورقتين بالدمع، فربت على كتفي وقال لي بصوت متهدج :

– لقد حققت عملا باهراً يا « ادواردز » فابق هنا بضع سنين فنقهر الصحراء ونحولها الى رياض غناء [1] .

---

١ – « المجلة الاميركية » تشرين الاول ١٩٤٧ .

Marfat.com

واكتشفت على بعد اربعين كيلو مـــتراً من جدة طبقة من المياه الجوفية اتاحت ـ بالاضافة الى مياه وادي فاطمة ـ تزويد المدينة والمناطق المجاورة بالمياه الجارية فسالت المياه في بـلد لم تع ذاكرة الانسان رؤيةالماء فيه من قبل ، الا مباعاً في قرب او مخزوناً في صهاريج .

واثارت هذه الاكتشافات حمى العمل فأمر ابن سعود بترميم الابار المهجورة (اعيد ترميم وتعميق اكثر من مئة بئر في منطقة نجـــد وحدها) ثم انشئت الاقنية والمجاري عبر الصحراء ، بإشراف وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان ، وبنيت السدود لحصر مياه « جبل الطويق » ،اي سلسلة الجبال التي تعتبر العمود الفقري لأواسط شبه الجزيرة العربيـــة . ثم حفرت شبكة من الابار الارتوازية بلغ عمق بعضها مئتين وخمسين متراً ، وكانت حصيـلة هذه الابار كافية لارواء ٤٠٠ الف شخص واكثر من مليوني رأس من الماشية في كل عام .

وسرى نبأ حفر آبار مياه جديدة سريان النار في الهشيم بين قبائل الصحراء فاذا بمئة الف بدوي يدفعون امامهم مئة وخمسين الف جمل ، ومئة الف عنزة ، ومئتي الف خروف ، يظهرون فجأة وينحدرون نحو موارد المياه في موكب حافل بالبهجة ،لارواء مواشيهم . فلما ارتووا وسقوا مواشيهم وملأوا قربهم عاد معظمهم الى النجود التي هبط منها ، ولكن بعضهم بقي حيث الماء واستقر في الاودية [1] .

لقد اصبح بالامكان ، بفضل المياه المتدفقة ان تنتشر الحدائق وواحات النخيل والمزارع ، وان يتبدل وجه الحياة كلياً في تلك المنطقة من العالم .

---

١ – « القلق في العالم العربي » جريدة « الاورور » باريس ٢٨ اب ١٩٥١ .

Marfat.com

٧٢

واستقدم الملك بعد ذلك مهندسين زراعيين من الولايات المتحدة وطلب منهم اعداد تقرير شامل عن امكانات الزراعة في البلاد . فطاف هؤلاء الخبراء مختلف ارجاء المملكة لاستكشاف مواردها وتحديد طاقات الانتاج فيها ، ثم قدموا لابن سعود بعد ستة اشهر تقريراً ساراً . وكان التقرير يقع في مئة صفحة كل واحدة منها اشد تفاؤلا من الاخرى . ومما قاله الخبراء مثلاً ان في وسعهم تحويل ٢٦ الف هكتار في اقليم الاحساء وحده الى اراض زراعية ومضاعفة هذه المساحة خلال ثلاث سنوات . واما موسم الفاكهة فيمكن ان يزاد في سرعة حتى ثلاثة او اربعة اضعاف ، وكذلك انتاج العلف . وينتهي التقرير بتأكيد جازم : « ليس في الواقع حدود للامكانات الزراعية في شبه الجزيرة العربية » .

وكانت هذه النتائج ابعد مما كان يحلم به الملك ، فقرر الانتقال فوراً الى التحقيق وركز هدفه الأول على الاكثار من عدد المزارع وزيادة قدرتها على الاستيعاب ووصل بعضها ببعض بسلسلة من الحدائق والبساتين .

ولا عجب اذا كانت بساتين الرياض موضع عنايته الخاصة . ويقول الكاتب « جيرالد دوغوري » الذي زارها في العام ١٩٣٥ انه دهش ، منذ تلك الحقبة ، بعظمتها النادرة . كان هناك ، على طول مجرى المياه المتدفقة في وادي حنيفة جنائن من اشجار المشمش والرمان ، تفصل بينها خمائل مخضوضرة نضرة . وكانت الحمائم تتطاير من هنا وهناك ، تسبح في اشعة النور ، او ترسم الدوائر حول ذرى النخل المذهبة [١] . ولم تكن هذه الحدائق المزهرة على مدار العام الوحيدة

---

١ — ذي اميركان ماغازين ـ المجلة الاميركية ـ تشرين الارل ١٩٤٧ .

Marfat.com

من نوعها ، بل كان هناك نظيرها في « السلايل » و« مقرن و« سلمى » و « ليلى » و « الدلم » و « منفوحه » و « الحوطة » و « المجمع » و « الجلاجل » المترامية على سفوح جبل الطويق تحت اقدام القصور المحصنة القديمة التي فتحها عبد العزيز في عهد شبابه ، والتي يرجع بعضها الى عهد سعود الكبير .

وانشأ ابن سعود مزرعة نموذجية ، في « الخرج » يقضي فيها معظم اوقات فراغه بعيداً عن مشاغل الدولة ،وهي واحة طبيعية تبلغ مساحتها ١٢ كيلومتراً مربعاً وتقع على مسافة خمسين كيلو متراً من الرياض وكان الملك قد اسكن في هذه المزرعة فريقاً من قدماء « الاخوان » مع عيالهم فعهد الى احد الخبراء الاميركيين (ادواردز) بإدارتها وتحويلها الى حقل تجارب تسير على هديها مزارع مماثلة اخرى .

استقدم « ادواردز » اربعة اختصائيين من تكساس ، وانشأ قناة للري من الاسمنت يبلغ طولها ١٨ كيلو متراً تغذيها اربع مضخات بدفق من المياه يقدر بخمسة وثلاثين الف ليتر في الدقيقة ، مما اتاح ري مساحة تبلغ ثلاثة الاف هكتار بصورة دورية . وفاقت النتائج كل تقديرات الخبراء . فما ان رويت الارض الظمأى منذ قرون ، حتى انتفضت من سباتها الطويل وتفجرت من احشائها محاصيل عزّ نظيرها .

ويصف « ادوارد » كيف ان كل شيء كان ينبت بوفرة ، وكأنما بشكل عفوي رغم العواصف الرملية والريح السموم : الحلفاء والقمح والشعير والبندورة ، والجزر والثوم والبطيخ ، والباذنجان ، واذا بحقول القمح تعطي ١٧ قنطاراً في كل هكتار مقابل اربعة قناطير ونصف القنطار في تكساس ويمكن للمزارع ان يعمل المنجل في حقول القطاني للعلف الأخضر عشرين يوماً بعد الزرع مما يوفر ١٨ موسماً في العام ، فيما لا تعرف مزارعنا سوى اربعة او خمسة مواسم في العام .

Marfat.com

ولما بلغ المركز الزراعي في « الخرج » ذروة النجاح ، طلب الملك الى الخبير الاميركي وضع مخطط لانشاء وزارة للزراعة في البلاد فكانت اول مؤسسة من هذا النوع عرفتها الجزيرة العربية عبر تاريخها المديد .

وراح الملك ، بلا كلل ، يدفع الجزيرة العربية في طريق التقدم مثيراً حماسة البعض ، معرضاً عن انتقادات البعض الآخر ، وباعثاً النشاط في نفوس المحيطين به محاولاً ان يعكس على نفوسهم الحيوية التي تفيض في نفسه الوثابة .

ولكن هذا الاندفاع الخلاق كان بعيداً عن ان يحظى بالتأييد الجماعي .وكان المتزمتون يتساءلون : ماذا يريد الملك ؟ الا يمكنه ان يكتفي سعيداً هانئاً بحكم المناطق التي اخضعها لسلطانه ، وما الفائدة من هذه البدع التي يريد فرضها على الجزيرة العربية : السيارة ، والطائرة ، والهـــاتف ، واللاسلكي ؟ وانطلقت الالسن بالهجاء ، ولم يطل الوقت بهم حتى بدأوا يتهامسون فيما بينهم مستغربين متوهمين بان الملك يسوق البلاد الى الضياع .

ولكن هذه المعارضة ، لم تكن في الواقـع ، لتقلق ابن سعود ، فلقد اندفع في سبيله وما من عقبة يمكن ان تعترض هذا السبيل ، ولم يأبه لانتقـادات المنتقدين بل استعمل دهاءه للتغلب على كل معارضةلاقناع اولئك المنتقدين .

وكان الملك يحلم بانشاء شبكة من الخطوط الحديدية ، ولكن الحـــلم شيء وتحقيقه شيء آخر اذ لم يلبث ان اصطدم بعقبة صعبة التخطي اكثر من عقبـة شح المياه : اين يجد الاموال اللازمة ، فموارد الدولة تعتمد بالدرجة الاولى على الرسوم التي تجبى من الحجاج والتي لم يكن ابن سعود مرتاحاً لجبايتها لانها تضفي

Marfat.com

على حماية الديار المقدسة طابعاً تجارياً يأنفه . ولم يكن وارداً بحث زيادتها وتكرار السابقة التي عمد اليها الحسين . ومع ذلك فقد كانت عائدات الحجاز كافية لتأمين احتياجات الحجاز، ولكنها كانت بعيدة عن تغطية موازنة الدولة السعودية ،فكم بالاحرى مستلزمات مخطط انشائي كبير . فمن اين يأتي بالمبالغ الضخمة لشراء الاسمنت ، والفولاذ ، والمعدات والآلات، وكل ما يتطلبه تحويل الجزيرة العربية الى دولة حديثة في بلاد لا تصنع شيئاً ، ولا تملك اية طاقة ويسيطر عليها البؤس بشكل رهيب .

ومرة اخرى احسَّ ابن سعود انه حيال حاجز لا يخترق ، وحدود لا يمكن تخطيها .

ولكن الحظ لم يفارقه . وفاجأه بعطاء اين من وفرته اغرب ما في حكايات الف ليلة وليلة .

حوالي خريف العام ١٩٢٠ كان « ماجور » بريطاني يدعى « فرانك هولمز » يقوم بسبر الاغوار في منطقة « البحرين » لحساب احدى الشركات البحرية البريطانية ، فتوصل الى اكتشاف غير متوقع اذ وجد نفسه امام طبقة صغيرة من النفط . والبحرين مجموعة من الجزر في جنوبي الخليج العربي على بعد ٢٢ كيلومتراً من ساحل الاحساء يحكمها شيخ تربطه بالامبراطورية البريطانية معاهدة حماية شأن سائر الامارات الصغيرة المجاورة .

تقدم « هولمز » من شيخ البحرين بطلب امتياز للتنقيب في تلك المنطقة

Marfat.com

فحصل عليه مكتمل الشروط القانونية وعاد الى لندن فعرض الامتياز على عدد من شركات النفط ولكن هذه الشركات وجدت القضية غير جديرة بأن تثير اهتمامها . فنفط الجزيرة العربية لم يكن سوى اسطورة ، ان لدى بريطانيا في كل الاحوال ، ما يكفي من نفط ايران والعراق فلا داعي للبحث عن موارد جديدة .

ولم يدر « هولمز » ماذا يفعل فباع امتيازه بأبخس الاثمان من شركة اميركية صغيرة « غولف اويل كومباني » – شركة نفط الخليج – التي كانت تستثمر بعض الابار على سواحل الخليج العربي (ربيع ١٩٢٥) وتوقفت القضية عند هذا الحد ، ولم تعد موضع بحث . غير ان هذا لم يمنع بعض الاوساط المالية من الاهتمام بها .

ففي اواسط حزيران ١٩٣٠ نزل في ميناء الهفوف ، في الاحساء ، فريق من البدو في مظهر غريب ، يرتدون العباءة ويعتمرون بالعقال ولكنهم ما كانوا ينطقون بكلمة عربية واحدة ، ويبذلون قصارى جهدهم حتى لا يثيروا اي انتباه ... فأي نشاط سري يمارسون اذن ؟ لقد اصدر الملك اوامره عندما أُبلغ نبأ وجودهم بفتح تحقيق في الأمر .

فجاء جواب شرطة الاحساء يؤكد انهم عملاء سريون لدولة أجنبية ، وان مظهرهم يخفي طبيعة مهمتهم . فقرر الملك القاء القبض عليهم والتحقيق معهم ثم علم فجأة انهم ليسوا في الواقع الا جماعة من الخبراء الاميركيين جاؤوا يستكشفون ما اذا كانت منطقة الاحساء تنطوي ، هي الاخرى، على النفط. فأعاد ابن سعود النظر في قراره وكتب الى حاكم الاحساء ان يدع اولئك الشبان وشأنهم لينقبوا كما يحلو لهم . وكان هذا القرار من اسعد القرارات التي اتخذها الملك في حياته [1] .

---

١ – يدعي البعض ، وهو امر غير مستبعد ، ان الملك ابن سعود بدل رأيه بشأن هؤلاء =

Marfat.com

قام « البدو المزيفون » بسلسلة من اعمـــال سبر الاغوار اثبتت لهم بالنتيجة ان الطبقة النفطية التي تمتد من القفقاس الى الخليج العربي مارة بايران والعراق ، تجتاز البحر حتى تصل الى قلب شبه الجزيرة العربية . ما هى كمية الذهب الاسود الكامنة تحت رمال الصحراء ؟ كان يتعذر الجواب على هذا السؤال بالتدقيق في ذلك الحين. ولكن مما لا ريب فيه انها كميات ضخمة ،وكانت العينات المستخرجة من اجود الانواع .

وكان لهذا النبأ – كما هو متوقع – ضجة في اوساط الغرب المالية اعنف من الضجة التي اثارها اكتشاف « هولمز » قبل سنوات . « يبدو انـــه تم العثور على النفط في الجزيرة العربية » وتطايرت هذه العبارة على الالسن وترددت في لندن ، امستردام ونيويورك وباريس ، وهرع الى الرياض موفدو اعظم شركات النفط امثـــال « رويال دوتش » و « شل » و « ستاندارد اويل » و « المفوضية السوفياتية للمحروقات السائـــلة » اميركيون ، وانكليز ، وهولنديون ، وارمن والمان وروس ويابانيون ، كانوا يتسابقون في اروقة القصر ويلحون في طلب المقابلات . وتراكمت الطلبات لدى وزير المال . كل يريد الوصول اولاً ليقطـــع الطريق على منافسيه ، والجميع – حسب قولهم – ما كانوا يحلمون الا بسعادة الشعب العربي ، وقد أُخذوا فجأة بحب خـالص للجزيرة العربية . ولكن ابن سعود لم يكن بالذي يخدع بأقوالهم المعسولة ، فأبقاهم ينتظرون عدة اسابيع . ولمّا لفت بعض المقربين نظره الى ان هذا التصرف مخالف لما اشتهر به الملك من حسن ضيافة قال لهم باسماً :

– دعوني اتصرف . اني رئيس ديني ، واعرف كيف يجب ان يعامل هذا النوع من الحجاج .

= بناء على تدخل المهندس كنيث ادوارد الذي كان يشرف على المركز الزراعي في الخرج والذي كان ابن سعود يوده كثيراً . كان ادوارد من ولاية تكساس ، وكذلك المنقبون .

Marfat.com

ورفض الملك رغم العروض المسرفة في الاغراء ان يبيع اية قطعة من اراضي المملكة ، فهو يعتبر بلاده ملكاً لشعبه مثلما هي ملك له ، وان ليس له الحق في التفريط بأي جزء منها . ولم يوافق الا على التأجير ، لمدة محدودة ايضاً، وبشرط ان تؤول اليه كل المنشآت والمعدات بعد انتهاء امد الاتفاقية .

كان ابن سعود بحاجة ماسة الى المال لمتابعة برنامجه الاصلاحي ، ويمكن ان تصبح قضية النفط هذه مورداً هاماً، ولكنه ظل شديد الحذر – وشديد الريبة ايضاً – بحيث لا يقيد نفسه قبل ان يلمّ بالامور من جميع نواحيها .

وقرر في النهاية التعامل مع شركة صغيرة « غولف اوف كومباني » وهي نفسها التي كانت قد اشترت امتياز « هولمز » الذي اتينا على ذكره .

وعندما سئل الملك عن السبب الذي جعله يفضل هذه الشركة الاميركية على سواها أجاب :

– ان الشركات الاميركية تتمتع باستقلال كبير ازاء حكومتها ، كما ان الولايات المتحدة بعيدة عن البلاد العربية ، وليست لها كالدول الاوربية اهداف سياسية فيها . ثم ان بعض المواطنين الاميركيين ادوا لي حتى الآن خدمات لا تقدر ، وآمل ان يفعل هؤلاء مثل ذلك .

٧٥

ورثت شركات النفط عهد السادة الاقطاعيين من الفرنجة الذين استقروا في الشرق زمن الحروب الصليبية ، واصبحت هذه الشركات كخلايا النحل تحوم حول الخليج العربي : الشركة الايرانية – البريطانية ، شركة نفط العراق ،

Marfat.com

شركة شل ، شركة نفط الكويت ، شركة ارامكو وستاندر اويـــل في نيو جرسي وكاليفورنيا ، وشركة نفط تكساس ، وسوكوني فاكوم ، تضاف اليها شركات اخرى تغرف « الذهب الاسود » دون ملل من اعماق الارض . وكانت عظمة هذه الشركات صارخة في آبارها العميقة ، ومصافيهـــا البراقة في وهج الشمس واسطول ناقلاتها الذي يزرع ، ليل نهار ، الطريق المـــائي الذاهب من شط العرب الى المحيط الهندي .

هذه الشركات العملاقـة اليوم لم تكن في مستهل عهدها كذلك . بل كانت متواضعة تعاني المتاعب ثم تطورت خلال سلسلة من الازمـــات والمنافسات والمنازعات التي دارت صامتة مقنعّة في مجالس الادارة ، وبين مكاتب الوزارات احياناً ، او دامية مفجعة احياناً اخرى .

ولقد عرفت « حرب البترول » الدائرة الرحى منذ نصف قرن في هـــذه المنطقة من العالم بعض فترات من الهدنة ، ولكنها لم تعرف السلم ابداً ، ولا بد من عودة الى الوراء لاستكشاف اسباب تصادم هذه المصالح والمطامع .

حوالي عام ١٩٠٦ اكتشف احد رجال الاعمال البريطانيين « ارسي » النفط في ايران فحصل من الشاه على امتياز لاستثماره وأسس برؤوس اموال بريطانية « شركة النفط الايرانية ـ البريطانية » . ثم حصلت شركة « رويال دوتش » بشخص رئيسها « سير هنري ديتيردينغ » من السلطان عبد الحميـــد وبواسطة شخص ارمني يدعى « كالوست كولبانكيان » على حق استثمار البترول في منطقة الموصل ، وتأسست في اعقاب ذلك شركة عالمية لاستخراج النفط باسم « شركة النفط التركية » التي حصلت الشركة الايرانيـــة على خمسين بالمئة من اسهمها وحصل المصرف الالماني « دوتش بنك » على خمسة وعشرين . واما الربع الباقي فكان من حصة جمـــاعة من المتمولين البريطانيين والهولنديين والارمني

Marfat.com

كولبانكيان ، وهكذا وضعت بريطانيا ، بفضل هذا التنظيم ، يدها على بترول الشرق كله .

ولكن تغير الاوضاع السياسية والاقليمية التي نجمت عن انتصار الحلفاء في الحرب العالمية وعن انهيار الامبراطورية العثمانية في العام ١٩١٨ آلت الى تبديل جذري في هذا التنظيم ، فحصلت فرنسا بموجب معـــاهدة « سان ريمو » سنة ١٩٢٠ ، على حصة الالمان في شركة النفط التركية اي ٢٥ ٪ ، وبقيت بريطانيا مسيطرة على الثلاثة الارباع الاخرى .

ولم يشأ رجال الاعمال البريطانيون ان يتركوا دفة الامور للصدف ، فعقدوا سلسلة من المؤتمرات مـــع ابرز شركات النفط في الولايات المتحدة الاميركية ، اسفرت عن موافقة هذه الشركات على الا تتدخل في قطاع الشرق الاوسط ، وزيادةً في الاطمئنان اخذت وزارة الخارجية البريطانية ، ذات النفوذ القوي في البلاد العربية ، وعوداً تعهد بموجبها حكام العرب ، من هاشميين وشيوخ ساحل الخليج العربي ، الا يمنحوا اية امتيازات بترولية لشركات او حكومـــات غير بريطانية . وظل ابن سعود ، الذي يحكم صحراء قاحـــلة .. بعيداً عن هذه المفاوضات .

ولما ركن البريطانيون الى سلامة مركزهم الاحتكاري بالنسبة الى الاميركيين والعرب ، اتجهوا صوب شركائهم الفرنسيين والهولنديين وحملوا حكومتي فرنسا وهولندا على توقيع اتفاق تقران فيه بأنه لا يحق – الا بناء على اتفاق جماعي – لأية دولة اشتركت في اقتسام الامبراطورية العثمانية ، ان تنشىء حقولاً جديدة للنفط ، او تزيد من استثمار الآبار القائمة في محيط يشمل الجزيرة العربية والعراق وسورية وفلسطين وشرقي الاردن .

ولم تكتف الشركات البريطانية بهذا القدر من الاطمئنان ، بل انشأت هيأة

Marfat.com

لها فيها اكثرية الاصوات ، لتحديد بعض اوضاع النفط ولا سيما تلك التي تتعلق باسعار المبيع وكميات الانتاج ، بشكل لا يمكن تعديله الا باجماع اعضاء الهيأة ، وبالتالي فالكفة البريطانية هي الراجحة دومـاً .

المصلحة البريطانية في دنيا البترول ، حسب اربابها ، بعد هذه التـــدابير والاحتياطات ، انها اصبحت قلعة محصنة ! .. هذا ما جعـل الانكليز ينتفضون غضباً لدى سماعهم سنة ١٩٢٦ بان الامتياز الذي منحه شيخ البحرين للمـــاجور « هولمز » قد انتقل الى شركة اميركية – شركة نفط الخليج – وهي نفسها التي حصلت فيما بعد على امتياز مماثـــل من ابن سعود . فعلت الضجة في الاوساط المالية اللندنية . ولكن حاكم البحرين رد على اعتراضـــات حكومة صاحب الجلالة البريطانيـة بحجة معقولة : فهو لم ينكث بالعهد لانه تعامل مع شركة مسجلة في كندا ، وقـــد كانت او لا تزال جزءاً لا يتجزأ من الكومنولث البريطاني .

واتخذت الشركات البريطانية على الاثر سلسلة من التدابير الاحتياطية للحد من خطورة ذلك التسرب الى منطقة نفوذها فحملت « شركة نفط الخليج » على الانضمام الى الهيأة البريطانية والتقيد بانظمتها ، فلما طلبت هـذه الشركة الى مجلس « الهيأة » الاعلى منحها حصة اكبر من الانتاج لتتمكن من استثمار نفط الاحساء (التي كانت اخذت امتيازه رأساً من ابن سعود) ، اصطدم طلبهـــا بالرفض القطعي من قبل المجلس لأن الشركة البريطانية كانت تريد ان تتفادى باي ثمن – مزاحمة تؤدي الى انخفاض سعر النفط في الاسواق العالميـة . وكانت تنوي تجميد نفط الجزيرة العربية .

لقد قررت بأن نفط الاحساء محكوم عليه بأنه لن يبصر النور .

ولم يكن باستطاعة الاميركيين ان يبقوا في موقف اللامبالاة حيـــال هذا

Marfat.com

الوضع ، فاحتجوا ضد هذا الاحتكار وضد هذا الحق الذي يدعيه البريطانيون في وضع يدهم على بترول الشرق باجمعه . وبعد مفاوضات شاقة توصلوا في سنة ١٩٢٨ الى عقد اتفاق سري بتعديل الاتفاقية التركية للبترول ، واصبح اسمها شركة نفط العراق . فحصلت اميركا بموجب هذا التعديل على ٢٣،٥٪ من اسهم الشركة الجديدة واخذت فرنسا النسبة ذاتها واحتفظت بريطانيا بنسبة ٤٨٪ وبقيت الخمسة الاخيرة من نصيب الارمني (كولبنكيان) الذي اصبح مواطناً انكليزياً .

غير ان هذا التعديل ، في الحقيقة، لم يحمل اي تغيير لسياسة بريطانيا الاحتكارية وتجميد بترول الجزيرة .

ولما اشتد الضغط البريطاني على عنق « شركة نفط الخليج » وعجزت عن تغطية نفقاتها ، ولم تتوصل الى استثمار نفط الاحساء، استسلمت لليأس ولم تجد مفراً من بيع امتيازها سنة ١٩٣٣ الى شركة اميركية اخرى هي « شركة ستاندر اويل اوف كاليفورنيا » بمبلغ خمسين الف دولار .

ولما مثل مبعوث شركة كاليفورنيا امام مجلس ادارة شركته سأله الرئيس بلهجة كلها ريبة :

– ما هي حصيلة هذه الاتفاقية ؟

فأجاب :

– كتلة هائلة من الرمال والذباب والحرارة ، وكتلة تماثلها من الثقة .

وفي عام ١٩٤٣ اي بعد ذلك بعشر سنوات ، صرح السيد « هارولد ايكز » ناظر الداخلية في حكومة روزفلت امام الكونغراس الاميركي :

Marfat.com

– ان شراء شركة ستاندر اويل اوف كاليفورنيا لامتيـــاز استثمار بترول الجزيرة العربية ، هو اعظم صفقة تجارية في العصر الحديث .

كان ذلك هو الصدع الثاني في السياسة البترولية البريطانية ... صدع لم يلبث ان تحول سريعاً الى ثغرة مفتوحة .

ذلك لأن « شركة نفط كاليفورنيا » لم تكن مقيدة بقوانين الهيأة البترولية ولا خاضعة للقيود التي فرضها الانكليز ، بل كانت متحررة من حدود «الكوتا» ومن « فيتو » المسيطرين على شركتي نفط العراق وايران ، فكانت لها المبادرة في حفر آبار جديدة في الاحساء وتطوير هذه الآبار والسعي لايجاد اسواق لتصريف انتاجها في الشرق الاقصى [1] .

ولم يكن هنالك في الواقع سوى شركة اميركيةواحدة تمتلك سوقاًلتصريف البترول في الهند هي « شركة نفط التكساس » فاتفقت مع شركة كاليفورنيا على تأسيس شركة جديدة سنة ١٩٣٦ باسم « شركة نفط كاليفورنيا العربية » (ارامكو) اخذت على عاتقها استثمار نفط الاحساء ودخلت في منافسة جديدة مع الشركة الايرانية وشركة « شل » ، على الاسواق الاسياوية .

واحتجت الحكومة البريطانية لدى واشنطن على ما وصفته بالخرق الفاضح لاتفاق ١٩٢٨ واقنعت الحكومة الفرنسية بدعم احتجاجها ، ولكن نظـــارة الخارجية الاميركية اصمت اذنيها دون سماع الاحتجاج .

وكان ذلك بدء تحرير النفط العربي من طوق الهيأة فارتفع الانتاج السنوي من ١٧٤ الف طن في العام ١٩٣٥ الى ٦٤٠ الف طن في ١٩٣٦ ثم بلغ مليونـــاً

---

١ – تفاديا للاصطدام بالشركات الاميركبة الاخرى التي كانت تبيـع انتاجها في اوروبا .

Marfat.com

ومئة الف في العام ١٩٣٧ ومليوني طن في العام ١٩٣٩ ، وثلاثة مـــلايين في ١٩٤١ . وانتصب عدد من المصافي على طول الساحل ، وانشئت كيلو مترات من الارصفة ، وعدد من المضخات والخزانات والاحواض ، وضجت الحيـاة في منطقة من العالم كانت تعيش في صمت لا تعكره سوى اناشيد صيادي اللؤلؤ . واجتذبت الاجور العالية في صناعة البترول قسماً هامـــاً من السكان فأصبحوا يعملون في تصفية وتخزين وتعبئة السيول غير المنقطعة من الذهب الاسود المتدفق في الصحراء . وارتفعت تبعاً لذلك موارد الدولة السعودية .

ان عهد الرفاهية لم يبدأ بعد ، ولكن طلائعه بدأت ... لقد اصبح بالامكان تخطي حدود الفاقة والحرمان .

*

* *

وكما كانت الحلفاء والحنطة تنبتان على خطوط المياه، كذلك كانت شبكة الطرق الحديدية ، والطرق الاخرى تتطور في جوار البترول ، فامتدت الطرق الفسيحة المعبدة على طول الساحل واخترقت شيئاً فشيئاً اواسط البلاد .

وجاء الى الجزيرة العربية خبراء اخرون ، ليؤكدوا ان جوف الصحراء ينطوي على اغنى الثروات، فهو لا يحوي النفط فحسب ، بل الحديد والنحاس والفضة والكروم والذهب ايضاً ، واسست جماعة من المتمولين من اهل نيويورك في العام ١٩٣٧ شركة اطلقت على نفسها اسم « رابطة المناجم في العربيـــة السعودية »لاستغلال ثروات الحجاز المعدنية . واستؤنف العمل في منجم «البحران» الذي ظل مهجوراً طوال قرون ، والذي يعتبر اقدم منجم في العام اذ كان يستغل منذ عهد الملك سليمان ، فأصبح مصدر الذهب لوزارة المالية السعودية .

Marfat.com

وكان الملك حريصاً على ان تؤول هذه الثروات كلها الى البلاد عندما ينتهي مفعول الاتفاقات والمعاهدات المعقودة مع الشركات الاجنبية حوالي عام ٢٠٠٠.

وعني الملك عناية خاصة بتثقيف الشعب . فالارض بكر في هذا المجـــال . غير انه لقي استعداداً وتجاوباً ليسا غريبين على امة بنت قصوراً كقصور بغداد وقرطبة ، وانجبت قادة حروب امثـــال ابي عبيدة وموسى بن نصير ،وشعراء كالمتنبي ، ورياضيين كثابت بن قرة والخوارزمي ، وائمة في العلوم والفلك كابن سينا وابن رشد .

وما خفي على الملك انه لن يصل بالشعب طفرة واحـدة الى المستوى الذي بلغه اسلافه بل كان همه بالدرجة الاولى تزويد الجيل الجديد بالعلم والمعارف الفنية والمهنية الكافية لتحمل المهام التي يعدها له المستقبل القريب . وما تبقى فيتحقق بعد ذلك بمعونة الله .

وكان الملك قد خص مركز البحوث الاسلامية في مكة بمبالغ هامة تأتيه من موارد الحج، فحول قسما من موارده الجديدة لانشاء المدارس الابتدائية ومراكز التدريب المهني ، واصبح تطوير الثقافة العامة شغله الشاغل، ولم يدع فرصة تمر الا وشدد فيها على اهمية ذلك التطور . فاذا لم يستطع العرب ان ينشئوا مجتمعاً على مستوى كافٍ من العلم والرقي ، فإن ورثته سيجدون انفسهم مرغمين على تجديد امتيازات الشركات الاجنبية فتظل سيطرتها بشكل يهدد استقلال البلاد ويجعله حلماً من الاحلام .

ففي الخطاب الذي القاه الملك في تشرين الثاني ١٩٣٨ في المركز الزراعي في « الخرج » بمناسبة الذكرى الخامسة لتأسيسه ،قال : « ان التطور الفني والصناعي في الجزيرة العربية يجب ان يسيرا جنباً الى جنب مع الثقافة المهنية للشعب ، والا

Marfat.com

فسنكون دائماً مرغمين على الاستعانة بالاجانب » واوضح الملك كيف ان الحرية السياسية مرتبطة بالحرية الاقتصادية . »

وقال ايضاً : « ان الشعب العربي كان دائم الحذر من الاجنبي ، لان الاجنبي كان دوماً عنصر ضرر له ، وقد سرني ان الاحظ منذ بعض الوقت تبدلا في هذه العقلية ، وان اشهد نشوء علاقات جديدة بين النخبة المثقفة من ابناء البلاد وبين الخبراء الاجانب ، ومـــا ذلك الا لانهم يرون فيهم اليوم مرشدين يحررونهم من الجهل ويشقون لهم طريق مستقبل افضل . وليعلم اصدقاؤنا الغربيون ان بقـاء صداقتنا منوطة باحترامهم تقاليدنا وعاداتنا ومعتقداتنا . لقد فتحنا لهم ابواب بلادنا بوصفهم مدرسين لا اسياداً ، وضيوفاً لا غزاة . فالجزيرة العربية شاسعـة بحمد الله ، وكافية لارضاء اي مطمح ما خلا واحداً هو النيل من سيادتها ... هذه السيادة التي كلفتنا غالياً جداً والتي نعتز بها ونفضل ان نموت فقراء على التفريط بشيء منها » .

لقد بيّن الملك في هذا الخطاب نهجه الوطني حيال الدول الاجنبية التي حظيت بامتيازات للعمل في بلاده . وهو نهج لم يقابـله الاميركيون الذين استمعوا اليه بأي استياء . انهم ليقدرون هذه النزعة الاستقلالية التي لازمت جهودهم في بناء العالم الجديد . وكم من وجوه الشبه بين معركة الحياة التي يخوضها البـــدو اليوم وماضيهم . فقد كانوا ، هم انفسهم ، في الماضي رواداً بؤساء لا رأس مال لديهم سوى قوة سواعدهم وايمانهم بالله . وقد اضطروا هم ايضاً للدفـــاع عن حريتهم الناشئة ضد مطامع الدول الاكثر ثراء وتطوراً .

وهكذا التقى في بناء المملكة الحديثة في الجزيرة العربية عالمان مختلفان .

Marfat.com

٧٦

وفي خلال ذلك ، كانت السحب القاتمة تتجمع في سمـــاء اوروبا ، حتى اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية قبل نهاية العام ١٩٣٩ .

لقد دهمت الاحداث ابن سعود على حين غرة سنة ١٩١٤ . اما هـــذه المرة فكان على اتم استعداد . عام ١٩١٤ كان فقيراً اعزل ، واما اليوم فـــلا سبيل للمقارنة بين ما هو عليه من بأس وثراء ، وبين ما كان عليه عند نشوب الحرب العالمية الاولى . لم يكن في العام ١٩١٤ سوى امير قليل الاهمية ذي سلطةمحدودة مغلولة برمال الصحراء الوسطى ، اما هذه المرة فانه ملك يبسط سلطـــانه على قسم من سواحل البحر الاحمر والخليج العربي ، وذو سلطة اعترفت بها رسميـاً الدول الكبرى وله بعثات دبلوماسية في ابرز عواصم العالم .

عبأ الملك جيش « الاخوان » وحشد قواته باتجاه الشمال والغرب ، بشكل يمكنه من التدخل في عدة اتجاهات في وقت واحد، وراح يرقب مجرى الاحداث بدقة وانتباه. لقد كانت الحرب العالمية الاولى الضربة القاضية على الامبراطورية العثمانية ، فهل تكون الحرب العالمية الثانية بداية انهيار الامبراطورية البريطانية؟

وكما حدث في العام ١٩١٤ فإن الحرب التي اندلعت في بولونيـــا وسهول « الفـــلاندر » الفرنسية لم تلبث ان لفت الشرق . فقد احتل الالمـان على التوالي في العام ١٩٤١ كلا من سالونيك واثينـا وكريت ، وزحف من برقة الى الاسكندرية فيلق الماني – ايطـالي . وبدأت انكلترة تتلقى اقسى ما عرفته في تاريخها من ضربات ، فقـــد طردت من اليونان واصبحت مهددة في مصر وفي

Marfat.com

ظهرها ايران المعادية وافغانستان والهند اللتان تغلي فيهما مراجل الثورة . واما الجزيرة البريطانية فقد كانت تحت رحمة قاذفات القنـــابل الهتلرية ، ورحمة القوات الالمانية المتمركزة على سواحل المانش وبحر الشمال . ان بريطانيا كما قال تشرشل ، كانت تبذل المستحيل للمحافظة على رأسها طافياً فوق سطح المياه .

كان الامير عبد الله لا يزال يحكم شرقي الاردن ، امـا في العراق فقد تبدلت الحال اذ توفي الملك فيصل الأول فجأة في جنيف عام ١٩٣٣ خـــلال احدى دورات عصبـــة الامم وخلفه على العرش غازي الذي توفي بدوره اثر حادث اصطدام سيارته بعمود كهربائي في نيسان ١٩٣٩ ، فآل الملك الى فيصل الثاني وهو في الخامسة من عمره بوصاية خاله الامير عبد الاله شقيق زوجة غازي وحفيد الحسين .

وخشي تشرشل على مصالح الامبراطورية البريطانيـة في تلك المنطقة وهي نبعة الجزء الاعظم من الوقود الذي يسيّر بحريتها وطيرانها ، فأصدر اوامره الى احدى الكتائب الهندية بالنزول في البصرة (١٨ نيسان) وكان ذلك خرقـاً فاضحاً لاتفاق الحماية الذي يربط البلدين [١] .

فثارت نقمة الضباط الوطنيين في الجيش العراقي وقوامه اربعون الف جندي فتوجهوا لمقابلة رشيد عـــالي الكيلاني احد الساسة المعروفين بعدائهم للانكليز واعلنوا تأييدهم له اذا قام بحركة انقلاب .

---

١ – اقيم نظام الحكم في العراق في العام ١٩٢١ وفق الخطوط الكبرى التي وضعها لورنس عندما كان تشرشل وزيراً للمستعمرات ولورنس مستشاراً للوزارة . وقد عقدت معـاهدة بين العراق وبريطانيا تؤمن للعراق الحماية البريطانية لقاء حق الانتداب ويقضي الاتفاق بأن تكون القوات البرية تابعة للحكومة الوطنية وكذلك الشرطة وان تكون لبريطانيا قاعـدة جوية في مطار الحبانية .

Marfat.com

ولم يتردد رشيد عالي في قبول المهمة ، ولم تلق حركته سوى مقاومة شكلية من الوصي عبد الاله الذى خشي على حياته ففر من بغداد وانتقل الى القاعدة الجوية في الحبانية حيث وضع نفسه تحت حماية الانكليز .

ولما اصبحت السلطة في يد رشيد عالي الكيلاني ، امر بحل مجلس النواب ، والغاء الانتداب البريطاني ، واعلن العراق دولة مستقلة ، وقامت قوات الشرطة العراقية بتطويق السفارة البريطانية ووجه الانقلابيون انذاراً الى السفير بالقضاء على جميع افراد الجالية البريطانية اذا القت الطائرات البريطانية قنبلة واحدة على بغداد .

وبدا لشاه ايران رضا بهلوي ان ايام الامبراطورية البريطانية الاخيرة قد دنت ، فمزق بدوره المعاهدات التي تربطه ببريطانيا وتهيأ لضم جهوده الى جهود رشيد عالي الكيلاني .

لقد كان الانكليز محاصرين في جزيرتهم ولكنهم مع ذلك ، ظلوا متمسكين بمصالحهم الاستعمارية . فإن نكسة العراق وايران تعتبر بالنسبة الى الكومنولث خطراً يوازي خطر غارات الطائرات الالمانية على بريطانيا ، فبادر تشرشل الى اتخاذ سلسلة من التدابير المعاكسة وعهد الى الجنرال « كلارك » بإدارة العمليات الحربية في الشرق الاوسط وعزز الحامية الجوية في الحبانية بعدة اسراب من قاذفات القنابل ، وامر الجنرال « اوشينلك » بالنزول على رأس قوة بريطانية في شط العرب والزحف بمحاذاة مجرى النهر الى بغداد . ثم طلب اخيراً من الجنرال كينضتون ان يجهز قوة مصفحة ويسير بها الى عاصمة العباسيين لانقاذ السفير وافراد الجالية البريطانية .

وفوجيء رشيد عالي الكيلاني برد الفعل العنيف الذي لم يكن يتوقعه ، وعندما رأى طائرات سلاح الجو الملكي تمزق صفوف قواته وجه نداءً الى حكومة

Marfat.com

الرايخ يطلب النجدة . ولكن حكومة الرايخ كانت ابعد من ان تستطيع تقديم العون ، فاكتفت بتزويده ببعض الاسلحة من مخلفات جيش المشرق الفرنسي ، وباعت منه مئة طائرة مطاردة لم ينجح سوى ٤٠ منها في الوصول الى هدفهـــا حتى ان طائرة قائد السرب الماجور « بلومبرغ» اسقطها الانكليز قبل ان تهبط على ارض العراق .

وكان ابن سعود يتابع بانتباه مراحل الصراع من وراء حدوده . اجـــل ، كانت رغبته ان ينتصر العراقيون ، ولكنه لم يشأ محاربة الانـكليز ولا التعرض لغارات سلاح الجو الملكي الكاسحة .

وحشد الكولونيل « كينغستون » او « كينغول » قواته في الرطبـــة على على طريق خطوط انابيب النفط بين الموصل وحيفا ثم عززهـــا بمدد من بدو « الجيش العربي » الذين جندهم الماجور « كلوب » .

كلوب ، رجل مربوع القامة ، ذو شاربين اغبرين ، في وجهه ندبة عميقـــة جعلت البدو يلقبونه بـ « ابو حنيك » . كان واحداً من اولئك المغـامرين الذين تبعث بهم انـكلترا الى الشرق بين حين وآخر لخدمة مصالحها ولا تتردد في التخلي عنهم كلما ورطوها في متاعب تجد نفسها في غنى عنها .

انه رجل ثقة في نظر البعض ، ولغز محير في نظر البعض الآخر ، وقد هيأ نفسه ليلعب في هذه الحرب الدور الذي لعبه لورنس في الحرب العالمية الاولى .

ادرك كلوب باشا سريعاً ان اول شروط النجاح في الشرق هو ان يستوعب

Marfat.com

المرء اساطيره ويعيشها ... لقد جاء الى البلاد العربية قبل عشرين عاماً فجعل من نفسه بتأييد من وزارة الخارجية البريطانية مستشاراً عسكرياً للأمير عبدالله وتولى مهمة تنظيم جيش شرقي الاردن . نشيط، طموح ، ذو شخصية جذابة . لقد عرف مؤسس « دوريات الصحراء » كيف يستولي على قلوب جنوده . انه اقل شاعرية من « لورنس » ولكنه كان يتفوق عليه بميزة لاتنكر، هي واقعيته. يقول « سومرست دوشير الذي اشترك في حملة العراق في جيش « كينغستون »: « كنت اذكر اسم « لورنس » في حلقات البدو وفي قلب القرى الجاثمة على بعض الذرى والتي لا يمكن ان يبلغها سوى المشاة والخيالة وكنت ارى تلك الوجوه تصغي الي وتتبادل نظرات ذات مغزى ، ولكن شهرة لورنس لم تنتشر الا بالتواتر بفضل ترويج كتاب او صحيفة او فيلم سينمائي . ان اسمه هو واحد من الاسماء التي يحسن بالانسان ادعاءها لنفسه في الشرق . واما كلوب باشا ، ابو حنيك ، فهو قطعة من الشرق نفسه . »

ولما انهى جيش « كينغستون » استعداداته الاخيرة بدأ الزحف نحو الشرق بحماية قوات كلوب باشا ، وشق لنفسه بصعوبة كلية طريقاً عبر الرمال (٥ ايار ١٩٤١) . وكان تقدم تلك الحفنة التائهة من الرجال امراً شاقاً في ذلك القفر الشاسع ، فقد كان الفصل رديئاً واصيبت العناصر الآلية بمختلف انواع العطب، وغشيت اعين الجنود من وهج الشمس ، وتعرضوا لغزوات البدو ولقصف متكرر من طائرات تحمل العلم العراقي . كانت هذه العناصر الامامية مرهقة من التعب عندما ادركت بعدخمسة عشر يوماً مصب دجلة ولاح لها في الافق، الجانب المشرق من عاصمة العباسيين .

وكان متفقاً على ان تلتقي الحملة التي يقودها الجنرال « اوشيلنك » بحملة « كينغول » في هذا المكان . ولكنها لم تصل في الموعد المحدد ، بل كانت لا تزال في مدينة الناصرية على نهر الفرات الى الجنوب .

Marfat.com

غير ان وصول « كينغول» اثار الاضطراب في صفوف العراقيين، فهم ما كانوا يتوقعون ظهور العدو في هذا الموقع واعتقدوا بأن الآليات والسيارات المصفحة ما هى الا طلائع قوة كبيرة ، فقرر الجنرال « كينغستون » استغـــلال عامل المفاجأة ولم يتمهل بأنتظار وصول حملة « اوشينلك » فاتجه نحو الحبانيـة حيث تجمع اكثر من ٩ الاف مدني بريطانى واقتحم القاعدة الجوية فاضطر العراقيون المدافعون عن القاعدة والذين ارهقتهم الغارات الجويـة الى الانسحاب ، مخلفين وراءهم قتلاهم وجرحاهم .

وبقيت مهمة فك الحصار عن السفارة البريطانية ، ولكنهـا كانت عملية دقيقة تستوجب التوغل الى قلب بغداد وسط رأي عام ناقم مما يعتبر مغـامرة جنونية بالنسبة الى القوة البريطانية المحدودة .

ولكن « كلوب باشا » « صديق العرب » كان هناك ليثبت في مثـل هذه الظروف ، انه عضد لا يقدر بثمن وتمكنت القيـادة العليا بواسطته من اجراء بعض الاتصالات في العاصمة العراقية وعاد الرسل يبلغون القيادة ان بالامكان ايفاد بعض المبعوثين البريطانيين فجر الثامن والعشرين من ايار .

ولكن ... اي فرق شاسع بين الاستقبال الحماسي الحافل لقوات « اللنبي » عند دخولها دمشق قبل ربع قرن ، وبين دخول ممثـلي صاحب الجلالة اليوم عاصمة هارون الرشيد .

لقد اقتيد المبعوثان البريطانيان معصوبي الاعين عبر مراكز الحراسة العراقية ولم ترفع العصابتان حتى وصولهما الى ضواحي المدينة ، وكانت شوارعها شبـه مقفرة ، فيما عدا دوريات الجنود العراقيين الذين كانت تأخذهم الدهشة لدى رؤيتهم هذين الضابطين البريطانيين .

Marfat.com

ولما عاد موكب السيارات يجتاز شوارع بغداد في طريقه الى الحبانية تقل السفير وحاشيته كانت المدينة قد استيقظت وازدحم الناس في الشوارع وتزايد عدد الجنود وشيع الموكب بنظرات الحقد والكراهية .

وحطت في اليوم نفسه في الحبانية طائرة ضخمة وهبط منهـا شاب يرتدي اللباس العسكري الاميركي ، انه الضابط جيمس روزفلت ، احد ابناء الرئيس الاميركي جاء يدرس الموقف عن كثب، فرحب به الضباط البريطانيون ترحيباً حاراً لأنهم كانوا في حاجة ماسة إلى مؤازرة الولايات المتحدة ، الا انهم ما كانوا في قرارة نفوسهم مغتبطين كثيراً لوصول هذا المراقب في ظرف بمثـل هذه الدقة .

وكانت لزيارة جيمس ، في الواقع ، نتائج هامة . فقد لفت لدى عودته الى واشنطن نظر والده الى اهمية الشرق الاوسط العسكرية والاقتصادية ، والى مـا لاحظه في الوقت نفسه من تدني مكانة بريطانيا في المنطقة .

وتوجهت في التاسع والعشرين من ايار بعثة من الوجهاء العراقيين المعروفين بصداقتهم للانكليز الى قاعدة الحبانية حيث قابلوا الجنرال « كلارك » واعلنوا عن رغبتهم في عقد الهدنة .

وتم الاتفـــاق بسرعة ، بفضل المساعي الحميدة التي بذلهـــا كلوب باشا ، واصبحت الهدنة نافذة المفعول ابتداء من منتصف ليل ٣٠ ايار .

واجلي الجيش العراقي عن بغداد في صبيحة اول حزيران ،وعهد بصيانة الامن الى قوات مختلطة من الشرطة العراقية والبريطانية ، وفر رشيد عالي الكيلاني الى إيران وجرت حركة «تطهير» شملت جميع الذين اشتركوا في الثورة ،وعاد الامير عبد الإله الى بغداد بحماية القوات البريطانيه والف حكومة جديدة اخذت على

Marfat.com

عاتقها تسهيل مهمة الجيش البريطاني في حربه ضد المانيا وايطاليا ، « بكل الوسائل الممكنة » . وحكم على رشيد عالي الكيلاني بالاعدام . وانتهت « حرب الثلاثين يوماً » التي لم تكن في الوقع سوى ثورة محلية تفتقر الى السلاح والتنظيم ، ولكنها اثارت ، مع ذلك ، الكثير من المتاعب للحكومة البريطانية ، وصرح تشرشل في مجلس العموم « لقد عاد كل شيء الى مجراه الطبيعي ولكن بوسعي ان اعترف لكم بأن الهزة كانت حامية » [1].

وما ان تمت تصفية القضية العراقية حتى صدرت الاوامر من لندن بطرد الفرنسيين « الفيشيين » من سورية ولبنان .

وبدأ الهجوم على سورية من قبل القوات البريطانية ـ الدوغولية ، تدعمها فرق هندية واوسترالية ، بعد غارات جوية عنيفة على مدينة بيروت ومطار النيرب ، فأصدر الجنرال دانتز ، المفوض السامي الفرنسي في المشرق ، اوامره بالمقاومة حتى الرمق الاخير .

ودارت معارك دامية في البر والبحر والجو ، وقاوم الفرنسيون كالمجانين على طول الجبهة ، وصمدت حامية تدمر في معركة يائسة ضد قوة مهاجمة تفوقها عشرة اضعاف مدة ثلاثة عشر يوماً .

واضطرت القوات الفرنسية التي تقاتل على الساحل في الجنوب ، والتى تعرضت لقصف شديد من البحرية البريطانية الى الانسحاب من صيدا في الخامس عشر من حزيران ، ودخلت القوات البريطانية ـ الدوغولية ، دمشق بعد ذلك باسبوع (٢٢ حزيران) .

---

١ ـ خطاب تشرشل في مجلس العموم ٩ ايلول ١٩٤١ .

Marfat.com

وكانت حامية تدمر التي تقلصت الى حفنة من الرجال ما تزال تقاوم بمعدل واحد ضد مئة ، ثم اضطرت الى الاستسلام بعد نفـــاد الذخيرة والمياه (٣ تموز) .

وفي العاشر من تموز اصدر المرشال بيتان اوامر الى المفوض السامي الفرنسي في بيروت بالقاء السلاح بعد ان خسر الفرنسيون ١٨١٩ قتيلاً ومفقوداً مقابل ٤٥٠٠ قتيل وجريح من القوات البريطانية .

وبدأ الجنرال كاترو بتحقيق ما اعتبره تنفيذ الوعد الذي قطعه من اذاعة القاهرة بإنهاء الانتداب الفرنسي ، فتألفت في دمشق حكومة برئاسة الشيخ تاج الدين الحسني وعكف الجنرال سبيرز على مهمته الرامية الى تصفية الوجود الفرنسي في الشرق .

ولما انتهت الامور في سورية الى هذا الوضع وشعر الانكليز بانهم سادة الموقف اتجهوا نحو ايران التي لاحت عليهـــا بوادر تأييد الثورة الاستقلالية في العراق ، فاجتاحت القوات البريطانية والسوفياتية الحدود الايرانيه في الخامس والعشرين من آب ١٩٤١ ثم احتلت طهران وارغمت الامبراطور رضا شاه بهلوي على التخلي عن العرش بعد ان اتهمته باتباع سياسة موالية لالمانيا على غرار سياسة رشيد عالي الكيلاني ، وعقدت في الثامن والعشرين من كانون الاول ، بعد نفي الامبراطور رضا الى جزيرة موريس ، معاهدة تحالف ثلاثية بين الاتحاد السوفياتي وبريطانيا والحكومة الايرانية الجديدة قضت باحتلال شامل للبلاد حتى نهـــاية الحرب [١]

---

١ – لقد نصت تلك المعاهدة ايضاً على تقسيم ايران الى منطقتي نفوذ : شمالية تابعة للاتحاد السوفياتي وجنوبية تابعة لبريطانيا . وكانت المعاهدة من بعض النواحي تجديداً للمعاهدة الانكلو – روسية في ٣١ اب ١٩٠٧ . وقد ادى التنازل البريطاني للاتحاد السوفياتي في ايران الى نتائج خطيرة بالنسبة لبريطانيا في ازمة تأميم البترول الايراني في عهد الدكتور مصدق .

Marfat.com

وهكذا فان بريطانيا رغم حراجة موقفها في اوروبا كانت لاتزال قادرة على فرض ارادتها في الشرق الاوسط .

كانت كل هذه الاحداث تجري وابن سعود يتابع تطوراتهـــا بحذر وحنكة بعيداً عن ان يجر بلاده الى اية تجربة من هذا النوع .

وكان على حق في ما فعل . فالحرب ليست قائمة وحسب ، بل ان الشرق الاوسط ستكون له في العام ١٩٤٢ أهمية تفوق كثيراً تلك التي كانت له في بداية الحرب .

فإن الصراع الذي كان مقتصراً على اوروبا وشمالي افريقيا ، قد شمل العالم بأسره وجرف اليابان والولايات المتحدة ، بعد الاتحاد السوفياتي . واصبح الخليج العربي والبصرة ، مرة اخرى ، نقاطاً تلتقي عندها دروب القوات المتصارعة .

لقد عرض «رومل» منذ تموز ١٩٤١ على رئاسة اركان حرب القوات الالمانية خطة ترمي الى احتلال قناة السويس ، ولكن اهدافه الشخصية كانت تذهب الى ابعد من ذلك ... الى احتلال البصرة لقطع الطريق على المعدات الاميركية التي كانت قد بدأت ترد الى الاتحـــاد السوفياتي عبر الخليج العربي .

يقول الجنرال البريطاني « يونغ » في هذا الصدد : « انه لمن المفيد ان نعود الى تقرير الجنرال « اوشينلك » عما طرأ من احداث على الشرق الاوسط بين اوائل تشرين الثاني ١٩٤١ و ١٥ آب ١٩٤٢ ، لنعلم كم كان لدينا من القوات في سورية

Marfat.com

للمحافظة عليها بعد ذهاب الفيشيين ؟ وكم كان لدينا في العراق وايران ؟ وكم كان سهلاً في اي وقت قبل نهاية صيف ١٩٤٢ الاستيلاء على قبرص ؟ واخيراً كم كان الجنرال « اوشينلك » ، منشغلاً بالتهديدات الجاثمة على جناحه الشمالي ؟ فهو لم يكن يجهل المخاطر التي يتعرض لها من احتمال قيام هجوم ألماني عبر القفقاس فحسب ، بل كان يتخوف من اي هجوم ، فإن قواتنا الهزيلة لم تكن تسمح لنا بمواجهة اي هجوم مهما كان ضعيفاً [١] . »

لقد استبعدت القيادة الالمانية العليا خطة « رومل » ولكن « هتلر » تمسك بخطوطها الكبرى وقال لسفيره في باريس « اوتواوبتز » في الخامس من كانون الثاني ١٩٤٢ : « لو عرف الانكليز ما ينتظرهم في الشرق لما كان لهم ان يهللوا فإن اليابانيين سيصبحون سادة خليج البنغال عندما تسقط سنغافورة – وقد سقطت فعلاً بعد قليل – وستظهر غواصاتهم في الخليج العربي في نهاية الربيع . واكون في ذلك الوقت قد استأنفت الهجوم على الجبهة الروسية بجيش اقوى من جيش ١٩٤١ ، فتتقدم فرقي المصفحة باتجاه القفقاس ثم تنحدر حتى الخليج العربي ، ويكون لقاؤنا مع اليابانيين في البصرة [٢] . »

اما في الجبهة المعاكسة ، فكان الجنرال « اوشينلك » واركان حربه يستعدون لمواجهة العاصفة ويعيدون النظر في ما يملكون من قوة .

ذلك ، ليس لأن القوافل البحرية قد انقطعت بسبب تعرضها لقذائف الغواصات وحسب ، بل لأن القيادة البريطانية العليا قد اضطرت الى سحب بعض

---

١ – الجنرال ديزموند في كتابه : « رومل » .
٢ – تقرير الاميرال دارلان في ٩ كانون الثاني ١٩٤٢ .

Marfat.com

وحداتها المرابطة فى مصر وفلسطين لارسالها الى الشرق الاقصى . وتم تقريباً اجلاء القوات المعسكرة فى العراق وسورية وايران لنقلها الى ضفـاف النيل ، فالجيش الثامن المدافع عن مصر اضحى في موقف حرج بعد ان تعرض لسلسلةمن الهزائم الخطيرة ، وقد ابيد نصف الفرقة الاولى الافريقية الجنوبية في « سيدي رزق ؛ واما الفرقة النيوزيلندية فلم يبق منهـا سوى الثلث ، وتقلصت الفرق المصفحة الثلاث التي كانت عصب الجيش الثامن الى تشكيلة واحدة مختلطة ، اي انه لم يبق هنالك شيء هام للصمود في وجه الاندفاع المتزايد الذي يقوم به « رومل » وجيشه الافريقي .

ورأت هيئة الدفاع عن الشرق الاوسط انها بحاجة الى ثماني فرق على الاقل – منها ثلاث فرق مصفحة – لتستطيع الدفاع عن المناطق التي عهد بها اليها ، بغض النظر عن احتمال هجوم الماني من الشمال ... من القفقاس او تركيا .

وابرق « اوشينلك » الى وزارة الحربية في لندن : « لن يكون في وسعنا الصمود حيث نحن قبل ثلاثة اشهر على اقل تقدير . ارسلوا الي على جناح السرعة مدافع ودبابات وطائرات وجنوداً . ولا بد من تعزيز الدفاع عن جزيرتي مالطة وقبرص بالمدافع المضادة للطائرات ، فإن سقوط مالطة يجعل ضياع مصر وارداً في الحسبان » .

وكان جواب الحكومة الانكليزيه مخيباً للآمال . فهي في وضع لا يمكنها من ارسال اي شيء ، وان عليه الصمود بالامكانات التي لديه ، وقد اعلمته علاوة على ذلك انها تنوي سحب قوات اخرى من الشرق الاوسط لنقلها الى سنغافورة حيث كان الموقف مفجعاً . فرد الجنرال « اوشينلك » قـائلاً « : لن يكون في وسعي ، في هذه الحالة ، ان استأنف الهجوم قبل ستة اشهر على اقل تقدير » .

Marfat.com

وفي اثناء هذا الحوار بين القاهرة ولندن ، كانت طلائع قوات المرشال « فون بوك » قد ادركت مدينة «مايكوب »في القفقاس وكانت فرق «رومل» المصفحة قد تخطت طبرق واندفعت في زحف خاطف الى العلمين، وكانت القطع البحرية اليابانيه، اخيراً ، قد شوهدت في المحيط الهندي . وهنا يقول المارشال « كيتل » : « لم نكن يوماً اقرب الى النصر منا في هذا اليوم ، ولم يبق سوى القليل حتى ندخل الاسكندرية ونتقدم حتى السويس وفلسطين [1] » .

ولكن عقدة ستالينغراد وحدها هي التي كانت تحول بين القوات النازية ، والمناطق شبه الخاوية في الشرق الاوسط [2] .

الطرق المؤدية الى الهند كانت كلها مهددة بالانقطاع : الطريق البحرية المارة بقناة السويس وعدن وسيلان ، والطريق البرية المارة بحيفا وبغداد والبصرة ، وكذلك طريق ثالثة ، لا تقل عنهما اهمية ، كانت قد فتحت اخيراً في الخليج العربي .

تلك الطريق الثالثة ... هي التي كانت تتدفق منها، عبر ايران ، الشحنات المتزايدة من المواد الغذائية والمعدات والاسلحة من الولايات المتحدة الى الاتحاد السوفياتي لدعم مجهوده الحربي . فصمود ستالينغراد والحؤول دون نزول القوات الالمانيةصوب البلاد العربيــة كانا منوطين باستمرار الاشراف على هذه الطريق .

---

١ ــ الجنرال ديزموند في كتابه « رومل » .
٢ ــ تقرير الجنرال « اوشينلك » .

Marfat.com

لقد طلب الروس الى الانكليز بعد احتلال ايران في آب ١٩٤١ تزويدهم بالمواد الاولية ، وعقد اتفاق بين البلدين كان على الاتحاد السوفياتي بموجبه ان ينقل البضائع من طهران الى بلاده ، في حين يتحمل الانكليز عبء نقل البضائع من مصدرها حتى الخليج العربي ثم تفريغها ونقلها براً عبر جنوبي ايران حتى حدود المنطقة التي يشرف عليها الروس .

لم يكن لدى الانكليز في بداية العمل سوى مرفأ واحد على طول ساحل الخليج ، هو البصرة ، على شط العرب . وكان بحكم وجوده في العراق مرتبطاً بخطوط حديدية مع تركياوسورية وفلسطين، بينما لميكنيتصل بإيران الا بواسطة طريق صحراوية . امـا « كرمنشاه » القائم على الضفة المقابلة فلم يكن جديراً باسم مرفأ ، ويمكن القول نفسه عن « بندر شاهبور » المحطة النهـــائية للخط الحديدي العراقي – الايراني الواقعة ابعد الى الشرق على الخليج العربي .

ولم ينشأ هذا الخط الحديدي في الاصـــل الا لنقل البضائع الخفيفة ، ولم يكن ثمةسوى بضع مئات الشاحنات وكانت القاطرات محدودة القوة لاتستطيع جر معدات ثقيلة في منزلقات خطرة ومنعطفات حادة . وكان الخط في اتجاه واحد يمر فوق مئات الجسور في اواسط ايران ويعبر نفقاً كل ثلاثة كيلومترات في المناطق الجبلية المرتفعة . وكانت هنالك طرقات برية تتجه شمالاً نحو طهران وبحر قزوين ، ولكنها لم تكن في الواقع سوى ممرات لا تصلح الا للحمير والجمال [١] .

ونجح الانكليز رغم هذه الظروف العسيرة ، في ان يسلموا الروس خلال الاشهر الستة الاخيرة من العام ١٩٤١ ثمانية وثلاثين الف طنمن مطاط سنغافورة

---

١ ـ ادوارد ستيتينيوس في كتابه : «الاعارة والتأجير سلاح النصر » (نيويورك ١٩٤٤)

Marfat.com

و١٣ الف طن من القنب الهندي ، و٨ آلاف طن من قصدير ماليزيا ، و١٨ الف طن من رصاص برمانيا واستراليا . وبدا واضحاً حيال الحاح ستالين المتزايد ، بأن الانكليز لن يتمكنوا وحدهم ابداً من القيام بمهمتي تأمين احتياجات السوفيات الهائلة ، وتجهيز المرافىء والطرق في ايران ، فمالت لندن الى واشنطن وطلبت اليها المساعدة .

وكان المسؤولون في الولايات المتحدة في انتظار اشارة كهذه . فوصلت في نهاية خريف ١٩٤١ بعثة برئاسة الجنرال « ويلر » الى ايران لدعم جهود الانكليز ، وركز المهندسون الاميركيون جهودهم على « كرمنشاه » تاركين للانكليز ، البصرة وبندر عباس ، فبنوا فيها ارصفة جديدة واحواضاً ، وعمقوا مجرى شط العرب ليتسع لمرور السفن الكبيرة ، ونصبوا الرافعات لتفريغ المعدات الثقيلة ، وتعهدت الهندسة الاميركية طريقاً بدائية تمتد من « كرمنشاه » الى « الاهواز » على مسافة ثمانين كيلومتراً فحولتها الى طريق رائعة ، واقيمت ورشات لصنع المراكب الصالحة لنقل المعدات الثقيلة في مياه النهر بين « الاهواز وكرمنشاه » .

وبدأ المهندسون الاميركيون اخيراً في ربيع ١٩٤٢ بتأسيس مصنع في « ابيدجيان » لقاذفات القنابل التي كان السوفيات بحاجة اليها بكميات كبيرة ، ومهد مطار قرب المصنع لتجربة الطائرات قبل تسليمها الى الروس .

وهكذا تزايد حجم البضائع المنقولة شهريا بواسطة سكة حديد العراق ـ ايران ، الى ثلاثة اضعاف ، ودب النشاط على طول الساحل الشمالي للخليج العربي ، فاصبحت الشاحنات الانكليزية والقاطرات الهندية تسير بين قاطرات « كروب » والشاحنات التي اشتراها الشاه السابق المخلوع . ومد العمال الايرانيون باشراف المهندسين البريطانيين والاميركيين مئات الكيلومترات من الخطوط

Marfat.com

الحديدية المستوردة من الولايات المتحدة . وبدأت القاطرات والشاحنات تصل من اميركا،ثم تلاها بعد ذلك قوافل من سيارات الشحن وشقت الطرق الجديدة وانتصبت ورش التصليح على طول مراكز المواصلات الحيوية . وتضخم طوال العام ١٩٤٢ حجم البضائع التي تجتاز ايران في طريقها الى روسيا بنسبة تضخم قوافل المعدات الاميركية ، في حين كانت اعمال بناء المرافىء وشق الطرق ، بإشراف الجنرال « ويلر » تسير بشكل جنوني .

وبدرت عن الرئيس روزفلت في العام ١٩٤٢ ـ دون استشارة الكونغرس ـ بادرة سخية ، فاعلن « ان جيش الولايات المتحدة سيرفع عن كاهل بريطانيابعد الآن عبء مسؤولية نقل المعدات الى الاتحاد السوفياتي بطريق ايران ».ونتيجة لهذا القرار اتيح للادارة الاميركية ان تحل شيئاً فشيئاً محل الادارة البريطانية في تلك المنطقة من العالم.وما هي الا خمسة عشر يوماً حتى تولى الجنرال الاميركي « كونوللي » قيادة مصالح الحلفاء كلها في الخليج العربي .

وقفز حجم المؤن المنقولة الى روسيا بطريق ايران حتى بلغ في ايار ١٩٤٣ مئة الف طن ، اي عشرة اضعاف ما كان عليه في آب ١٩٤١ .

وفي عام واحد ، بين تموز ١٩٤٢ وحزيران ١٩٤٣ ، بلغ حجم المواد المشحونة الى روسيا ثلاثة ملايين طن ثم تزايد خلال العام التالي . وانه يدهشنا حتى اليوم استعراض ما تم نقله والجهد الذي بذلته الولايات المتحدة وتنوع البضائع المقدمة الى الاتحاد السوفياتي : ٤١٠٠ طائرة ، ١٣٨٠٠٠ سيارة شحن وجيب ، ٩١٢٠٠٠ طن من الفولاذ على اختلافه وكميات من الالمنيوم والنحاس، و ١٠٠٠٠٠ طن من البارود ، ومئات الكيلومترات من الخطوط الحديدية ، وما تبلغ قيمته اكثر من مئة وخمسين مليون دولار من التجهيزات الصناعية ، امثال الساحقات والكسارات والادوات القاطعة والافران والمحركات الكهربائية.

Marfat.com

وكل ما يلزم لحفر آبار النفط لمساعدة الاتحاد السوفياتي على زيادة انتاجه ، ست مصاف للنفط جاهزة للتركيب معبأة في صناديق، مصنع للمطاط كافٍ لصنع مليون اطار سيارة شحن في العام ، مولدات كهربائية لزيادة الطاقة الكهربائية السوفياتية واجهزة هاتف واذاعة، ومليون و ٥٠٠ الف طن من المواد الغذائية، بالاضافة الى تسعة آلاف طن من البذور والنباتات المختارة .

قال روزفلت: «علينا ان نقدم للروس كل ما يحتاجون اليه وليس عليهم الا ان يقولوا لنا كيف وبماذا يريدون ان نساعدهم.» اما الفرق الاميركية المكلفة بالتسليم والفرق السوفياتية المكلفة بالاستلام فقد نشأت بينهما منافسة حمية ، اذ كان الجنود الاميركيون يبذلون جهدهم لايصال الشحنات الى مراكز النقل بأسرع مما يستطيع السوفيات نقلها .

وما هو الا وقت قصير حتى ازدحمت المرافىء المستحدثة بذلك الفيض من الشحنات وعجز الساحل الشمالي الصخري المهدد بالرياح عن استيعاب القوافل وتموينها وكان لا بد من تعميق مرفأي «البصرة» و«كرمنشاه» باستمرار لتجنب الوحول التي تحملها مياه شط العرب، ولم يكن هنالك بد من اللجوء الى الساحل الجنوبي من الخليج العربي المحصن بصورة افضل ضد الرياح . ولكن مرافىء ذلك الساحل وأرصفته وطرقاته كانت كلها تحت سيطرة ابن سعود .

وكان الملك في ذلك الحين يعاني ازمة مالية ، فلقد انقطعت موارد الحج بسبب الحرب . واما المبلغ الذي حصل عليه على حساب حصصه من شركة ارامكو وقدره ستة ملايين وثمانمائة الف دولار ، فقد انفق على تسليح الاخوان وتجهيزهم . وكان الجيش في حالة تعبئة منذ ثلاث سنوات مما ادى الى انخفاض الانتاج الزراعي . وكان لا بد من إيجاد عشرة ملايين دولار .

Marfat.com

وكان ابن سعود يردد بينه وبين نفسه : « يريـد الانكليز ان يحتفظوا بطريق الهند مفتوحة ، ويريد الاميركيون الاحتفاظ بطريق الى الاتحاد السوفياتي ،وهم فوق ذلك يبحثون عن مكان أمين لاصلاح بواخرهم وافراغ حمولتها . ان لدي ما يريدون في موانيء الاحساء ، فهنالك الرافعـــات والمستودعات والارصفة والمنشآت المرفئية المختلفة التي بنتها شركات النفط الاميركية . ولما كانت هذه المنشآت قد اقيمت كلها في الاراضي السعودية لأغراض مدنية وتجارية فلا يمكن استخدامها لأغراض عسكرية الا بعد موافقتي . واني لمستعد للموافقة ما دمت أؤيد الحلفاء واعتقد بأنهم سينتصرون بالنهاية ... اذن لا بأس من ان استغل هذه المساعدات التي سأقدمها لهم لمصلحة بلدي وشعبي » .

٨٠

لقد اقرضت الولايات المتحدة الحكومة البريطانية مؤخراً ، مبلغ ٤٥٠ مليون دولار ، وطلب الرئيس روزفلت من وزير خارجيته ان يبلغ الانكليز ما يلي :

« ان الرئيس سيكون سعيداً اذا جرت مفاوضات بريطانية مـع ابن سعود وهو يرغب كذلك ان تدفعوا له جزءاً من المال الذي اقترضتموه منـا »[1] . وكلف المسؤولون في شركة نفط كاليفيورنيا ابلاغ الملك سراً ، أن الذي سيتلقاه من الانكليز ليس مصدره كرم لندن وسخاؤها .

وقبل الانكليز «بالنصيحة» فقدلعب ابن سعودخلال الحرب العالمية الاولى اللعبة

---

١ ــ مجلة « لايف » ٢٩ حزيران ١٩٤٩ .

Marfat.com

البريطانية ضدالاتراك فهل هو يحاول اليوم ان يلعب اللعبة الاميركية ضدبريطانيا، وكان من رأي ساسة لندن ان الحرب المقنعة التي شنهـــا الرئيس روزفلت ضد الامبراطورية البريطانية تحت ستار مساعدة الشعوب المتخلفة « سلاح ذو حدين لا بد ان ينقلب على صاحبه » . كما ان دبلوماسيي وزارة الشؤون الخارجية لم ترق لهم هذه الطريقة الاميركية في العطاء بيد والاخذ باليد الأخرى . ولكن العالم، بالتـــأكيد ، قد تبدل كثيراً منذ عهد اللورد « كرومر » والملكة فكتوريا ، عندما كان يكفي ان تقطب بريطانيا حاجبها حتى يهلع العالم وينحني امـــام ارادتها .

ودارت مفاوضات بين الانكليز ومندوبي ابن سعود في القاهرة انتهت بأن رفض ابن سعود القرض « البريطاني » لان المفاوضين الانكليز وضعوا مقابل القروض شروطاً سياسية .

وقرر الرئيس روزفلت ان يعالج القضية بنفسه، وقد دفعته الى ذلك عوامل عديدة . فان ابنه جيمس قدم له تقريراً عن مهمته في العراق اشار فيه الى العداء الشديد الذي تكنه الشعوب العربية للبريطـــانيين ، كما ان الجنرالين « ويلر » و « كونوللي » اطلعاه على الثروات الهائلة الكامنة حول الخليج، وكانت « شركة كاليفورينا للنفط » لاتني تلفت نظره الى الموارد غير المحدودة في العربية السعودية ، ففي خلال رحلته الى طهران في تشرين الثاني ١٩٤٣ توقف في القـــاهرة حيث استقبل عدداً من شخصيات العالم الاسلامي التي عبرت عن رغبتها في التقرب من الولايات المتحدة وعرضت عليه مشكلاتها بطريقة جعلته ينظر الى النزاعات القائمة بين الدول من عل ، كما ان اساليب الشرق بدأت تفعل فعلها في نفسه رغم الذهنية الواقعية التي يعيشها .

Marfat.com

وزاده استعداداً للاهتمام بما جرى في هذه المنطقة تقرير كان قد تلقاه اخيراً من السناتور « لنديس »، اصبح بعد ذلك دستور البيت الابيض في سياسته في الشرق الاوسط . فقد اقترح كاتب التقرير نسف « الكتلة الاسترلينية » بعد ان اوضح دورها كوسيلة بالية للسيطرة البريطانية، واقامة اتصال وتبادل مباشرين بين الولايات المتحدة والبلاد العربية .

وابتسم روزفلت عندما بلغه ان الانكليز يحـــاولون التوصل الى مكاسب سياسية لقاء القرض المالي ،وانهم يبحثون ايضاً وايضاً فيتوسيع منطقة نفوذهم . انهم في الحقيقة متحجرو العقلية . ولكن من الحماقة ان يعتقدوا بأن الولايات المتحدة على استعداد لدفع الثمن ، وان دولارات العم سام يمكن ان تستخدم لهذه الغاية .

وكان رد فعل الرئيس الاميركي سريعاً ، فأدرج المملكة العربية السعودية ، دون استشارة احد ، في لائحة الدول المستفيدة من قانون الاعارة والتأجير، بحيث يتاح للولايات المتحدة ان تقدم لها المعدات وتسلفها الاموال دون وسيط. وصدق القرار باكثرية كبيرة في الكونغرس .

وسعى روزفلت بعد هذه « البادرة الودية » الى تمتين العلاقـــات التي تربط بين الولايات المتحدة والعربية السعودية ، وجاءته الفرصة لدى توقفه في مصر – شباط ١٩٤٥ – وهو في طريق العودة من مؤتمر يالطـــة . فأبرق الى الملك العربي بواسطة القنصل الاميركي في جدة قائلاً : « سأكون سعيداً جداً بالتعرف اليكم خلال مروري بالاسكندرية » .

امتعض الانكليز عندما بلغهم نبأ هذه الدعوة التي وجهت بمعزل عنهم. ففي عشية اليوم الاخير من مؤتمر يالطة قال روزفلت لتشرشل ، انه عازم على التوجه

Marfat.com

بالطائرة غدا الى مصر لانه اعد العدة لاجراء مباحثات هناك مع ملك مصر ، وابن سعود ، وهيلا سلاسي امبراطور الحبشة على متن طراده في « البحيرة المرة الكبرى » .

وبدا أثر المفاجأة جلياً على تشرشل ، ولم يتسع امامه مجال استيضاح الرئيس سرا عن فحوى المحادثات ، لان روزفلت احتاط للامر وتعمد ابلاغه النبأ امام جمع من الحضور . وكان تشرشل يزداد عصبية كلما امتدت السهرة . اخيراً ، لم يعد يملك نفسه فانتحى جانباً «بهاري هوبكنز» وراح يستوضحه عن نوايا الرئيس حيال رؤساء الدول الثلاثة .

يقول « هارى هوبكنز »، رجل البيت الابيض، في مذكراته : « لقد اجبت تشرشل باني اجهل تماماً هذه النوايا ولكن اعلم ان الرئيس يرغب في بحث الحالة في فلسطين مع ابن سعود . غير ان حديثي مع تشرشل لم يشفِ غليله وظل مقتنعاً بأننا سلكنا سبيل المؤامرة لنسف الامبراطورية البريطانية في تلك لمناطق » .

وقال رئيس الوزراء البريطاني لروزفلت في اليوم التالي : « انه سيذهب هو الآخر الى مصر بعد اقامة قصيرة في اليونان، وانه سيقابل الملوك الثلاثة ايضاً وقد ارسل اليهم يرجوهم البقاء في مصر لأنه يرغب في اجراء مباحثات معهم بعد سفر الرئيس الاميركي » .

اثار هذا الحديث ابتسامة روزفلت ولكنه ظل على تحفظه ولم يقل شيئاً . لقد كان غضب تشرشل شيئاً بسيطاً امام ما حدث من غليان لدى الدوائر البريطانية في لندن . ولم لا والشرق الادنى منذ قرن ونصف منطقة صيد محرمة ، لايجوز دخولها الا لصاحب الجلالة البريطانية ، وها هو الآن منافس

Marfat.com

قوي يريد ان يدخل هذه المنطقة باستهتار غريب ! نعم انه اليوم صديق حليف، ولكنه في الغد ، قد يصبح عدواً عنيداً .

لقد عامل الاميركيون ابن سعود باحترام زائد ، وارسلوا مدمرة خاصة الى جدة لتكون تحت تصرفه في هذه الرحلة .

وتمت المقابلة في ١٤ شباط ١٩٤٥ ، عند مدخـــل البحر الاحمر ، على ظهر الطراد « كوينسي » حيث احيط الملك بكل مـا يستطاع من اكرام واحترام .

وقال الرئيس الاميركي وهو يمد يده باشا مرحبا: «انني سعيد برؤيتكم فما الذي يمكنني ان افعله في سبيلكم ؟ »

اجاب ابن سعود :

— لقد سعدت باستقبالكم الودي ! ولكن ليس لي اي مطلب اتقدم به . فانتم الذين رغبتم في رؤيتي ، ولهذا افترض ان لديكم ما تقولونه لي !

كانت لهجة ابن سعود مختلفة عن لهجة الشخصيات العربية التي قابلها روزفلت، فقد اسرفت في تملقه . واستعان الرئيس الاميركي بكل براعته في التأثير ، تلك البراعة التي فعلت فعلها في الكثيرين من زعماء العالم ، ومنهم ستالين .

ولكن بشاشة الرئيس الاميركي لم يكن لها اي اثر على زائره . وكان من عادة الملك الا يبخل بالكلام ، وان يدعم خطبه او احاديثه بأمثال شعبية او او بآيات من القرآن ، ويسلسل رغباته بكثير من المنطق حتى يصل بها بشكل بارع الى الهدف المنشود، فيتوقف اذ ذاك ويبتسم ابتسامة ذات مغزى كمن يقول

Marfat.com

لمحدثه : « ألسنا على وفاق » ؟ . ولكنه لجأ ، هذه المرة ، الى طريقة اخرى . لقد بدا متحفظاً وصامتاً ليحمل محدثه على ان يكشف اوراقه اولاً .

وذلك ما حدث في النهاية . فقد تعب روزفلت من الانتظار واندفع في الموضوع الذي كان يشغله بوجه خاص وهو مستقبل اليهود في فلسطين .

ويقول « هاري هوبكنز » في مذكراته : « لا ريب في ان الرئيس كان يجهل تماماً حقيقة الرجل الذي دعاه لزيارته . انه ملك مهيب ، ذو سلطة كبيرة ، جندي بالفطرة وعربي صميم اولاً . لقد طلب اليه الرئيس ان يوافق على مجيء مهاجرين جدد من اليهود الى فلسطين، واشار الى ان عددهم لن يشكل سوى نسبة ضئيلة من مجموع شعوب العالم العربي . فاصيب روزفلت بصدمة عندما سمع ابن سعود يجيب دون اي تردد : لا !»

وشدد ابن سعود علي امر واقع وهو ان اليهود اذا كانوا قد نجحوا في تحويل التربة الفلسطينية الى اراض خصبة، فالفضل في ذلك لرؤوس الاموال الاميركية والبريطانية التي تدفقت عليهم بمئات ملايين الدولارات والجنيهات، وان هذه الاموال ، لو اعطيت العرب ، لكان في وسعهم ان يفعلوا بالمثل . وقال ان هناك جيشاً يهودياً كامل التسليح لا تبدو عليه اية رغبة في محاربة الالمان ، بل يشكل تهديداً دائماً للعرب .

واعلن الملك بصراحة ان العالم العربي لن يسمح بدخول افواج جديدة من المهاجرين اليهود الى فلسطين ، وان العرب سيحملون السلاح، وانه سيكون ، بصفته الدينية والسياسية ، في طليعة المحاربين الى جانب اخوانه في فلسطين . ويبدو ان روزفلت لم يفهم تماماً ما قاله ابن سعود ، فأعاد مراراً طرح القضية على بساط البحث . وكان الملك كل مرة ، يبدو اكثر صلابة في الرفض .

Marfat.com

لا ريب في ان الملك كان له اثر عميق في نفس الرئيس . فبات على يقين بأن العرب لا يلقون الكلام على عواهنه [1] .

وفي هذا يقول روزفلت في حديث له مع برنار باروش ، بعـــد اجتماعه بابن سعود :

« بين جميع الاشخاص الذين تعاملت معهم في حياتي ، ما وجدت واحـداً حصلت منه اقلّ مما حصلت عليه من هذا الملك العربي ذي الارادة الحديدية [2] . »

وتناقش الرئيس والملك طوال ساعات في ظلال المدافع البحرية الضخمة ، فلما يئس روزفلت اخيراً من زحزحة الملك عن موقفه حيال قضية فلسطين انتقـل الى موضوع آخر ، فعرض رغبات القيادة الاميركية العليـــا في الخليج العربي لاستخدام ساحل الاحساء وموانئه لايواء القوافل وتموينها بالوقود واقامة قاعدة جوية كبرى .

دارت المناقشات هنا في جو اكثر صفاء . فالبحث يدور حول قضـايا تخص العربية السعودية دون سواها ، واظهر ابن سعود استعداداً للتفاهم فوافق مبدئياً على رغبات روزفلت ، ولكنه اشترط ان تتعهد الولايات المتحدة بما يلي :

١ – الا تتعرض العربية السعودية ، بأي حـــال من الاحوال ، لاحتلال عسكري على غرار ما حدث في سورية والعراق وايران .

٢ – الا يقتطع اي جزء من ارض الوطن ، والاماكن التي سوف يستخدمها

---

١ - روبرت شيروود : « في ذكري روزفلت » .
٢ – اليوت روزفلت في كتابه : «ابي .. قال لي » .

Marfat.com

الجيش الاميركي تكون على سبيل الايجار لمدة خمس سنين. ومتى انقضت السنوات الخمس تعود للدولة السعودية بكل ما عليها من ابنية ومنشآت .

٣ ـ تكون للمملكة العربيـــة السعودية الافضلية في الحصول على المعدات الحربية المودعة في « كرمنشاه » لاستخدامها في تطوير تسليح « الاخوان » . ويتعهد ابن سعود ، مقابل ذلك ، بالايهاجم الحلفاء وبأن يصد اي اعتداء تقوم به قوات المحور .

٤ ـ تؤيد الولايات المتحدة وفقاً للحريات الاربع ، المنصوص عليها في ميثاق الاطلسي ، كل المبادرات التي تتخذها الدولة السعودية اسهاماً في تحرير الشعوب العربية الرازحة تحت نير الاحتلال الاجنبي .

لقد ضمن ابن سعود في البند الأول ، من هذه الشروط ، استقـلال الجزيرة العربية ، بينما اكد في البند الرابع حرصه وتمسكه باستقلال البلاد العربية .

قال روزفلت بشأن البند الأول : لن اسمح بأية بادرة عدائيـة من جانب الولايات المتحدة ضد الشعوب العربية . وأما البند الرابع فليس موضع بحث لأنه داخل في صلب سياستي ، فإن عهد الاستعمار قدولى وكذلك عصر الامبراطوريات. وان من بين مكاسب هذه الحرب توجيه الضربة القاضية للاستعمار .

وضرب روزفلت بسورية ولبنان مثلاً على ذلك ، فقال ان لديه تعهداً خطياً من لجنة الجزائر بمنح هذين البلدين استقلالهما الكامل ، وان بوسعه ان يكتب في اي وقت الى الحكومة الافرنسية مطالباً باحترام وعدها .

واضاف الى ذلك انه سيساند السوريين واللبنانيين بجميع ما لديه من وسائل ـ باستثناء القوة المسلحة ـ ويأمل في ان يفعل بالمثل بالنسبة الى بقية الاقطار العربية عندما تطالب باستقلالها .

Marfat.com

اما فيما يتعلق بالبندين الثاني والثالث – ولا سيما حيال مدة ايجار الاراضي السعودية للجيش الاميركي – فقد حاول روزفلت الحصول على شروط افضل ، ولكن دون جدوى اذ اصر الملك على موقفه حتى اقتنع الرئيس الاميركي بوجهة نظره، غير انه ابدى تحفظاً واحداً يعود الى توضيح بعض التفاصيل بواسطة لجنة من الخبراء .

ثم استبق الرئيس الاميركي الزمن واثار قضية النفط . فطلب الى الملك منح الولايات المتحدة حق استثمار نفط المملكة العربية السعودية. واحتدمت المناقشة هنا مرة اخرى ، الى ان توصل رئيسا الدولتين الى اتفـــاق يرتكز على الاسس التالية :

١ – لا يتخلى ابن سعود عن اي جزء من اراضيه ، بل تكون الشركات المستثمرة مستأجرة للأراضي .

٢ – مدة الاستثمار ستون عامـــاً – اي انها تنتهي في العام ٢٠٠٥ وتعود بعدها الآبار ومنشآت البترول كلها الى الدولة السعودية .

٣ – يرفع الرسم المدفوع للملك عن كل برميل من البترول المصدر من ١٨ الى ٢١ بنس اميركي .

٤ – توسع المنطقة التي تستثمرها شركة « ارامكو » الى مساحة تبلغ مليون و ٥٠٠ الف كيلومتر مربع .

وعرض روزفلت بعـد ذلك مشروع انشاء خط من الانابيب بطول ١٧٥٠ كيلو متراً يصـــل بين الاحساء وأحـد مرافىء شرقي البحر الابيض المتوسط – حيفا او صيدا – (لم يكن مكان المصب قد حدد بعد) ، فأجاب الملك ان

Marfat.com

هذا المشروع ينسجم مع اهدافه، وانه سيفعل كل مـا بوسعه لتسهيل تحقيقه . ولكنه ابدى رغبته في ان يتم المشروع بواسطة شركة خاصة وليس بإشراف الحكومة الاميركية ، كما كانت ، على ما يظهر رغبة الرئيس الاميركي .

ومع ان جو المحادثات بين الرجلين لم يكن فى البداية صافياً ، فقد افترق الملك والرئيس الاميركي وكل منهما مسرور بالآخر ، ولديه انطبـاع بانه حقق عملية رائعة . واهدى الرئيس الاميركي كرسيه الخاص الذي كان جالساً عليه للملك السعودي ، تعبيراً عن امتنانه .

اما الانكليز فكانوا اقل سروراً ، اذ بلغهم خبر ما دفع من ثمن لقاء حياد ابن سعود . ولم يكن بوسعهم الا الرضوخ للامر الواقع .

ففي الخفاء ، ودون ان يبدو اي شيء يلفت انتباه الرأي العام العـالمي ، وجهت الى السيطرة البريطانية في الشرق ضربةاليمة، وتخلصت بواسطتهاالعربية السعودية من دائرة النفوذ البريطاني ..

وهكذا ... في يوم واحد ، تم لابن سعود ان يثأر لحقبة طويـلة دامت عشرين عاماً .

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الخامس

المملكة العربية السعودية في مضمار التقدم

(١٩٤٥ - ١٩٥٣)

Marfat.com

Marfat.com

٨١

بدأ فوراً تنفيذ الاتفاق المعقود على ظهر المدمرة « كوينسي » بين ابن سعود وروزفلت، ومنذ شهر اذار ١٩٤٥ شرع خبراء « ارامكو » ينقبون في اعماق المساحات الجديدة من الاراضي التي نالت الشركة امتياز استثمارها. ودلت اعمال التنقيب على ان طبقة المحروقات الراكدة تحت الصحراء ترتفع الى مليارى طن، فقد كانت المملكة العربية السعودية اغنى منجم للذهب الاسود اذ ان فيها وحدها ٤٢ بالمئة من البترول المكتشف في العالم بأسره حتى ذلك الحين .

واصيبت الاوساط البترولية الاميركية بما يشبه الدوار عندما نشرت هذه الارقام في « وول ستريت » بنيويورك ، فقد ضمنت الولايات المتحدة حق استثمار هذه الثروات الضخمة حتى العام ٢٠٠٥ بفضل بعد نظر الرئيس . فكم كانت صفقة « شركة نفط كاليفورنيا » عظيمة عندما اشترت امتياز الاستثمار بمبلغ خمسين الف دولار !

غير ان ملوك النفط ما كانوا جميعاً يشاطرون مدراء شركة « ارامكو » ابتهاجهم . فقد كانوا يخشون ان تعمد هذه الاخيرة بالطاقات الهائلة التي لها الى خنق الشركات الاخرى التي تجني اضخم ارباحها من تصدير البترول الاميركي الى الخارج امثال « ستاندرد اويل اوف جرسي » و « سوكوني فاكوم اويل كومباني » .

كذلك أخذ القلق يسيطر على الانكليز من جراء الثغرة التي فتحها الاميركيون، واصبحت تهدد سياسة التوازن النفطي بنتائج مفجعة . فأي مصير ينتظر شركة

Marfat.com

نفط العراق وشركة نفط إيران امام سيول المحروقات التي لن تتأخر شركة « ارامكو » في اغراق الاسواق بها ؟ واضحى العالم على شفير صراع اقتصادي حادّ تجمعت عناصره حول البترول. ولن يطول الأمر بتماسيح النفط حتى يفترس بعضها البعض الآخر .

ولكن الحكومة الاميركية تدخلت في الوقت المناسب لمـــا بلغت الأزمة ذروتها ، واستطاعت ان تعقد عدداً من الاتفاقات للحيلولة دون تفجر الحرب بـــين شركات البترول . وادرك المشرفون على « ارامكو » انهم لن يتمكنوا وحدهم من استثمار كمية من البترول بلغت هذا الحد ، فاعلنوا في ١١ كانون الاول ١٩٤٦ ان الشركتين المؤسستين « لآرامكو » وهما : « ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا» و «تكساس اويل» وافقتا على منح ٤٠ بالمئة من حصتهما في الامتياز الى شركتين هما « ستاندارد اويل اوف نيوجرسي »و« سوكوني فاكوم » . وتم توقيع الاتفاق بعد ١٥ يومـــاً . وسويت بذلك ازمة البترول الاميركية الداخلية .

وفي اليوم نفسه (٢٦ كانون الاول ١٩٤٦) اذيـع نبأ اخر كان له وقع القنبلة في نيويورك ولندن ، واخذ النـــاس علماً بأن « ستاندارد اويل اوف نيوجرسي » و « سوكوني فاكوم » قد اشترتا من الاميرالية البريطانية ٤٠ بالمئة من انتاج شركة النفط الايرانية وذلك لمدة عشرين سنة . ولما كانت شركتا « ستاندارد » و « سوكوني فاكوم » تملـكان ٢٣ ١/٢ بالمئة من اسهم شركة نفط العراق فقد امتد نشاطهما بذلك الى انحاء الشرق الاوسط كلها .

ثم عقدت ثلاثة اتفاقات اقل اهمية جـــاءت تكمل ذلك « التجمع » ، فقد تقاسمت شركة « سوكوني فاكوم » مع شركة النفط « الانكليزية المصرية » استثمار النفط في منطقتي السويس وشبه جزيرة سيناء . وتشاركت «نفط الخليج» و«شركة النفط الإيرانية » في الكويت وانبثقت عنهما «شركة نفط الكويت»،

Marfat.com

وعقد اتفاق مشابه في إمارة قطر . وعهد اخيراً الى شركة ذات اكثرية اميركية ساحقة بمد انابيب البترول لحساب الانكليز والاميركيين على السواء .

وتم في المقابل توقيع اتفاق بين لندن وواشنطن يقسم بموجبه الشرق الاوسط الى منطقتين بتروليتين :

الاولى بريطانية تضم إيران والعراق .

والثانية اميركية وتشمل شبه الجزيرة العربية كلها .

وهكذا استبعد النزاع وتوافرت لشركة النفط العربية – الاميركية (التي تضم اقوى العناصر المالية في الولايات المتحدة : روكفلر ومورغان وميلون) رؤوس الاموال والخبرة الفنية والمعدات الضرورية لاستثمار نفط الاحساء . لقد تلقى الانكليز درساً قاسياً ، واصبحت سيـــادتهم المطلقة على بترول الشرق الاوسط محض ذكرى من ذكريات الماضي الغابر .

واحتج تشرشل في مجلس العموم بعد ان اقصته انتخابات ما بعد الحرب عن الحكم على ما وصفه بـ : « سياسة الهزيمة والتراجع » فرد « ستافورد كريبس » باسم حكومة العمال بأن السير ونستون يتحمل هو نفسه اكبر جـــانب من المسؤولية في هذه القضية ، وان اوضاع بريطانيا المالية المثقلة بديون الحرب لا تسمح لها بالتوصل الى حلول اخرى .

ولما بدأ « التجمع » البترولي نشاطه ، جاءت النتائج بسرعة تدهش جميـع المراقبين وتفوق كل الاحتمالات .

Marfat.com

فقد استثمرت اربعة حقول للنفط في آن واحد ، احدها في جزيرة البحرين، وثلاثة منها على الساحل السعودي في « القطيف » ، « الدمام » ، « بقيق » تصل فيها بينها شبكة من الانابيب مربعة المجاري يبلغ طولهـــا ١٥٥ كيلو متراً بالإضافة الى انبوب تحت سطح البحر يصل بين منشآت الساحل وميناء البحرين .

وانشأت المصافي الجبارة في البحرين « و بقيق و الدمام »اهمها مصفـاة رأس تنورة شمالي القطيف حيث قام ميناء مجهز بأحدث الوسائل ، وانتصبت خزانات ممتدة على طول الرصيف هي الاكبر والاضخم من نوعها في العالم ويتسع بعضها لـ ١٨٠ الف برميل وتملأ يومياً ما يتراوح بين ٨٠ ومئة ناقلة بترول اي حوالي ٢٦ الف ناقلة في العام .

وانبثقت الظهران — عاصمة النفط — كالاعجوبـة ، خلال خمس سنوات وسط الرمال ، بكل ماتحتوي عليه المدن الحديثة من ابنية وشوارع واحواض للسباحة وحدائق تروى بأثمان تضاهي الذهب .

وأصبحت الظهران تلك البلدة الصغيرة التائهة في الصحراء ، بين يوم وآخر، محط اهتمام رجال الاقتصاد في العالم وارتفع عدد سكانهـا بين العامين ١٩٣٣ و ١٩٥٣ من سبعة آلاف الى تسعة وستين الف نسمة . وقامت الى جانب الأحياء الاميركية الصرف أحياء ذات طابع عربي بمساجدها واسواقها وحماماتها العامة حيث يقيم الامير بن جلوي حاكم المنطقة والرجل الرهيب الذي طهر الاحساء من عصابات اللصوص التي كانت تسيطر عليها قبل ثلاثين عاماً .

Marfat.com

ارتفعت الرسوم التي تدفعها « ارامكو » الى ابن سعود في السنوات الاخيرة من حيـاته الى ٤٤٠ الف دولار في اليوم اي الى حوالي ١٦٠ مليون دولار في السنة ، فخصص الملك هذه الاموال لتحقيق الاهداف التالية :

١ ـ استيراد المواد الغذائية والاقمشة التي لا غنى عنها (الارز والسكر ، والشاي والقهوة ، والاقمشة القطنية) .

٢ ـ شراء السيارات الكبيرة والصغيرة .

٣ ـ تحقيق المرحلـة الاولى من تحويل المملكة العربية السعودية الى دولة حديثة :

آ ـ كهربة الرياض واهم مدن الحجـاز (مكة والمدينة وجدة والطائف) .

ب ـ انشاء شبكة من الخطوط البرية والحديدية والجوية .

ج ـ تطوير الثقافة العامة .

د ـ اتباع سياسة خارجية تفرض اعتبار المملكة العربية السعودية في الاقطار العربية ، وتقاوم النفوذ الاجنبي في تلك الاقطار .

اما فيما يتعلق بالطرق البرية فقد وضع الملك مشروعاً لشق وتعبيد ٤٣ الف كيلومتر من الطرق الفسيحة خلال عشرين عاماً ، وما هي الا فترة قصـيرة حتى

Marfat.com

بدأت السيارات الضخمة تهدر على الطرقات المعبدة ، ويملأ ضجيجها وهاد نجد . وما كاد يمضي شهر او شهران حتى تعبد طريق جديدة وتصل يد العمران الى مناطق كانت شبه مجهولة حتى ذلك الحين . واصبح من السهل اجتياز الجزيرة العربية من الساحل الى الساحل — عبر الرياض — على طريق معبدة طولها الف كيلو متر ، يجتازها السائقون وكأنهم في نزهة ، كما اصبح بالامكان الانتقال بالسيارة من عدن الى بغداد (٣٤٠٠ كيلو متر) .

ولكن اهتمام الملك كان منصرفاً بالدرجة الاولى الى الخطوط الحديدية رغم التطور المدهش في تعبيد الطرق البرية ، وكان المهندسون الاميركيون يصفون ابن سعود « بالملك الهاجس بالخطوط الحديدية » . فقد استدعى ممثلي احدى الشركات في نيويورك وطلب منهم وضع مخطط لمد خط حديدي بين الرياض والظهران كان لا بد له من اجتياز ٦٠٠ كيلو متر وسط رمال الصحراء .

وجاء الخبراء يحملون الى الملك اكداس الخرائط والدراسات ليثبتوا ان المناطق الرملية لا تصلح لمد خط حديدي ، فأزاح ابن سعود الخرائط كلها بيده وقال بلهجة حاسمة : « اريد خطاً حديدياً ، لقد احضرتكم لانشائه ؟ فأما ان تفعلوا، واما ان استدعي شركة اخرى ، ان كنتم عاجزين » .

ولم يمض شهران حتى كانت اول وصلة من الخط الحديدي تثبت في الرمال ، وظل الفا عامل يشتغلون ليل نهار طوال اربع سنوات ، وصبت الآف الاطنان من الاسمنت حيث لا تتحمل الارض وطأة القطارات ، او سكبت انهار من النفط الخام الذي يمتزج بالرمل فيحوله الى كتلة متجمدة تمد عليها الخطوط .

واصبح الخط الحديدي بين الرياض والظهران حقيقة راهنة في ٢٥ من تشرين الاول ١٩٥١ .

Marfat.com

وزاد هذا النجاح في حماسة ابن سعود فأمر حالاً بتحقيق المشاريع التالية :

١ – مد خط حديدي طوله ٢٢٠٠ كيلومتر يصـــل البحر الاحمر بالخليج العربي عبر الرياض .

٢ – تمديد خط دمشق – المدينة ، عبر مكة حتى عدن .

٣ – اصلاح شبكة الخطوط الحديدية في الحجاز .

اما في حقل المواصلات الجوية فقد اصبحت المملكة السعودية ملتقى مختلف الخطوط الجوية العالمية . ووصلت بين اهم مدنها خطوط جوية منتظمة .

ولكن ابن سعود لم يبـدل شيئاً من طريقة عيشه بالرغم من ذهب البترول المتدفق على خزائن المملكة . لقد ظل يمارس حياة البداوة الخشنة التي اعتادهـا منذ كان طفلاً ، والتي مكنته من المقاومة عندما كان منفياً في الربع الخالي . كان يأنف الاسرّة الناعمة ، ويفضل النوم على مرتبة متواضعة ويهجر القصور الفخمة ليعيش تحت خيمة كلما سنحت له الظروف بذلك . وكان غذاؤه اليومي العادي يتألف من حليب النوق وقليـل من اللحم والارز ، ومن حفنة من التمر ، ولم يكن يشرب سوى الماء والقهوة والشاي، حتى انه طبع حياة الحاشية بالتقشف الذي يعيشه هو .

اما الرياض فمـا عادت تلك القرية الكبيرة التي عرفهـــا الملك في صباه بل اصبحت مدينة تضم مئة الف نسمة ويعيش سكانها جميعـــاً على حساب الملك ، ويغدو كل من دخلها ضيفاً على الملك يجلس الى مائدته المفتوحة للجميع . وكان

Marfat.com

موعد الغداء عند ظهر كل يوم، فيجتمع الوزراء والامراء والمستشارون والضيوف البارزون حول مائدة الملك فيبدأون حديثهم اليه بقولهم: « حياك الله ... » وينادونه باسمه مجرداً من كل لقب بشكل ينطوي على كل معاني البساطة والتواضع ... والعظمة في آن واحد .

وكان خلال الاجتماعات يتوجه بالحديث الى الجميع ، ويعرف الجميع، ويهتم بأصغر المشكلات التي يعانيها كل فرد . وكان بوسع اي مواطن ان يشكو اليه ظلامته فينصفه ، وكان يهوى الشعر ، ويستطيب النكتة الحلوة ، ويضحك لها من اعماق قلبه .

كان الملك يردد : « اني لا ابخس ارامكو قيمتها بل اقدرها حق قدرها» ، وهو لا يعني بذلك ما يدره عليه البترول من عائدات وحسب ، بل كان يفكر بالفوائد التي يجنيها الشعب كله .

فالعامل الاميركي الذي يؤتى به من الولايات المتحدة كان يكلف مبلغ ثلاثة الاف دولار قبل ان يباشر عمله ، فرأى المسؤولون في الشركة ان يقللوا ما استطاعوا من الايدي العاملة الاميركية ، فتقتصر على الادارة العليا والاجهزة الفنية ، وان يستعينوا باليد العاملة المحلية على اوسع مدى .

ولكن استخدام اليد العاملة المحلية كان يستلزم اولاً ايجاد مساكن للعمال ، فرصدت الشركة لذلك مبلغ ٢٦ مليون دولار ينفق لمدة خمس سنوات ابتداء من ١٩٤٥ لبناء بيوت سكن للعمال تتوافر فيها المياه الجارية والمطابخ الكهربائية وآلات تكييف الهواء .

Marfat.com

وكان لا بد من تثقيف العمال وتدريبهم، ففتحت لذلك مدارس لتعليم العربية والانكليزية وتدريس الرياضيات ومبادىء استخدام الآلة ، وانشئت مراكز صحية مجانية لمعالجة الامراض السارية . وسرعان ما اثبت الموظفون والعمال العرب كفاءتهم وأتقنوا مختلف المهن ، وكان البعض منهم عندما يتوفر له رأس المال يتخلى عن عمله لينصرف الى تجارة حرة ، كما ان المتمولين السعوديين اقدموا على توظيف اموالهم في مشاريع والتزامات بدلا من خزنها في الصناديق .

كان ابن سعود مخلصاً في تقدير الخدمات التي تؤديها « ارامكو » في مختلف المجالات ، ولكنه كان حريصاً على ان يحترم « الاساتذة الاجانب » عادات البلاد وتقاليدها .

لقد حمل البترول وما تبعه من ارتفاع الاجور ، الى العرب كل ما في الغرب من مغريات . « ان مجتمعاً بكامله ، لم يبدل طريقة حياته منذ قرون ، اصبح الآن وجهاً لوجه امام المدنية الحديثة التي تهدده بالانهيار [1]. »

كان ابن سعود يرحب بمحاسن الحضارة الغربية ، ولكنه كان يأبى ان تتسرب معها مساوئها الهدامة التي يمكن ان تلقي برعاياه في خضم من الفوضى اين منها تلك التي عاشها اسلافهم .

وكان القرآن هو سند الملك الاقوى والفعال الذي اتاح له استبعاد تلك المساوىء ، مثلما مكنه من تأسيس الاخوان وتوحيد القبائل المتنافرة .

كان ابن سعود حريصاً على ان يبقى العرب متصلين بماضيهم ، محافظين على تقاليدهم، لتكون لهم درعاً يقيهم من سموم المدنية العصرية، فلم يسمح للاجانب

---

١ – موريس جارتو .

Marfat.com

بانتهاك الشرائع الاسلامية في بـــلاده ، وحظر على ارامكو استخدام اي اميركي او غير اميركي يدين باليهودية ، واصدر عام ١٩٥٢ قراراً يمنع فيه ارامكو والبعثات الاجنبية من استيراد الخمر وقاية لشعبه من اخطار الكحول .

اجل ، لقد ادت « ارامكو » للسعودية خدمات جـــلى ، ولكن المملكة العربية السعودية ادت بدورها للولايات المتحدة خدمات لم يكن روزفلت بنفسه يتصورها عندما دعا ابن سعود الى زيارته على ظهر المدمرة « كوينسي » .

فقد بدأت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٦ تعـــاني ازمة نفط ، وراحت الشائعات حول انخفاض الطاقة الانتاجية في ميدان المحروقـات تقلق الاوساط الاقتصادية . وتعددت ظاهرات التقنين في استهلاك البترول سواء في مجـــالات السير أو التدفئة المركزية بالرغم من قسوة الشتاء في ذلك العام . فمـــا الذي حدث ؟... قيل ان احتياطي النفط في العام الجديد اوشك على النفاد نتيجة الاستهلاك الزائد زمن الحرب ، فاذا صح ذلك فإنه يعني ان الولايات المتحدة على وشك ان تنتابها كارثة رهيبة .

اما في الواقع ، فلم تكن اسباب الازمة ، لحسن الحظ ، خطيرة الى هـــذا الحد . وجل ما في الامر ان الاستهلاك العام للنفط بين العامين ١٩٣٥ و ١٩٤٦ في الولايات المتحدة قد زاد بنسبة ٩٦ بالمئة ، في حين لم ترتفع نسبة الانتاج الى اكثر من ٣١ بالمئة . اي ان عجزاً مقداره ٦٥ بالمئة قد استمر طوال ايام الحرب ، ولم يكن سببه شح الآبار بل سوء حالة المصافي التي ارهقهـــا العمل ، بلا هوادة او رعاية كافية او اصلاح طوال مدة الحرب ، واصبح من الضروري استبدالها ممـــا

Marfat.com

يستلزم كميـــات من الفولاذ غير متوفرة لدى الولايات المتحدة في ذلك الحين ، للازمة التي كانت تعانيها في انتاج هذه المادة .

كان يعسر على الولايات المتحدة اجتياز الازمة لولاوجود البترول السعودي. وحدث لاول مرة في التاريخ ان توجهت ناقلات البترول الاميركيـة لتتموّن بالنفط من الشرق الاوسط . ذلك واقع لا يـــكاد يصدق ، ان يتحول مصدرو البترول الاميركيون الى مستوردين ، وان تجد نيويورك وشيكاغو في الظهران والبحرين وسيلة الخلاص من ازمة خانقة في مجالات الوقود .

٨٧

اذا كان البترول العربي حيوياً الى هذا الحد في زمن السلم بالنسبة الى الولايات المتحدة ، فما عساه يكون الحال في زمن الحرب عندمـا يزيد الاستهلاك عشرة أضعاف .

وهكذا وجدت الولايات المتحدة نفسها مرتبطة ، اكثر فأكثر ، بشؤون الشرقين الادنى والأوسط .

كانت الخطوة الاولى في هذا المجال كما ذكرنا في تشرين الأول من العام ١٩٤٢ عندما تولى الجنرال « كونوللي » الاشراف على مصالح الحلفاء في الخليج العربي ، « واعفى البريطانيين من عبء مسؤولية تزويد الاتحاد السوفياتي بالمعدات والمؤن عبر ايران » .

ثم حقق ترومان الخطوة التالية في ١٢ اذار ١٩٤٧ عندما ابلغ الكونغرس : « ان بريطانيا لم تعد في وضع يمكنها من تحمل تبعاتها في تركيـا واليونان ، وان

Marfat.com

الولايات المتحدة اخذت على عاتقها ان تقوم بالمسؤوليات البريطانيـــة في شرقي البحر الأبيض المتوسط وفي الشرق الأوسط » .

ولم تبق هناك سوى مرحلة اخيرة ، اجتازهـــا « جون فورستال » وزير الدفاع عندما اعلن في المؤتمر المشترك لرؤساء اركان الحرب المنعقد في ميـــامي (٢٣ حزيران ١٩٤٨) «ان الدفاع عن المملكة العربية السعودية يدخل في نطاق الدفاع عن العالم الحر » .

ولكن الشيء الذي اكتشفه الاميركيون رويداً رويداً ، كان الروس على علم به منذ زمن بعيد ، ولم تكن سياستهم ، في هذا المجال ، غير امتـــداد لسياسة التوسع القيصرية . الم يشترط مولوتوف لدى اجتماعـه بهتلر في اذار ١٩٤١ لعقد الحلف العسكري الالماني – الروسي ان تطلق يد موسكو في العراق وايران ، وان تستولي على جزء هام من المملكة العربية السعودية لتأمين الاشراف السوفياتي على الخليج العربي وخليج عدن ؟ وقد عرف ذلك من بعض وثائق ابرزت في محاكمات « نورمبرغ » [1] » .

ولبث ساسة الكرملين على مبدئهم منذ ذلك الحين . فقـــد عرض الجنرال تيموشنكو – على ما يقال – في المؤتمر الذي عقدته هيئة اركان الحرب السوفياتية العليا في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٤٨ ، وحضره الاعضاء النافذون في المكتب السياسي للحزب الشيوعي ، خطة شاملة لعمليات عسكرية تتضمن « شن هجوم صاعق على الخليج العربي بواسطة جيش قوامه خمسون فرقة مصفحة [2] » .

وبعد ذلك بعامين اي في تشرين الثاني ١٩٥٠ عقـد الروس مؤتمراً في باطوم خاصاً بالشرق الأوسط ودرسوا فيه بحضور مندوبين عن الأوساط الشيوعية في

---

١ – نيويورك تايمس ١٩ اذار ١٩٤٩ .

٢ – « سامدي سوار » ٨ تشرين الاول ١٩٤٩ .

Marfat.com

تركيا وفلسطين وايران والعراق وسورية ولبنان وشرقي الاردن ومصر وسائل حماية منطقة النفط في الاتحاد السوفياتي . « والتوصل في الوقت نفسه ، الى موارد اخرى من المحروقات في البلاد المتاخمة »[1].

كلها ظاهرات تدل بشكل حاسم على ان السياسة الروسية لم تتبدل، وان اهدافها بقيت هي نفسها تدور دوماً حول المضائق والمتوسط والخليج العربي .

فالصراع الروسي – الاميركي على الخليج العربي لابد منه، لأنه من منطق الأشياء . فالولايات المتحدة والدول الغربية تشرف على ٩٠ بالمئة من انتاج النفط في العالم وعلى ٧٥ بالمئة من الاحتياطي المعروف ... فاي موقف ، ترى ،يكون للاتحاد السوفياتي في حالة حرب ، وانتاجه يبلغ عشرة بالمئة ، والاحتياطي لديه خمسة وعشرون بالمئة . وماذا تشكل ٣٧ مليوناً من الاطنان سنوياً بالنسبة الى ٥٢٢ مليوناً يملكها تجمع الاطلسي [1] .

ان على روسيا اذن معالجة هذا النقص .

وكيف يتأتى لها ذلك، بغير الاستيلاء على آبار جديدة ؟ ولكن اين هذه الآبار الاكثر قرباً منها ؟ أليست هي ايران والعراق والجزيرة العربية ؟ !

وازداد الاميركيون قناعة باهمية المنطقة ، وادركوا ان العربية السعودية ليست نبعة للمحروقات فحسب بل القاعدة الكبرى المرنة التي يمكن ان ينطلق منها هجوم جوي ضد منابع النفط السوفياتي في « باكو » و « باطوم » .

ولم تضع وزارة الدفاع الاميركية شيئاً من الوقت في سباق القواعد الحربية

---

١ – مجلة « اللوستراسيون » ٩ كانون الاول ١٩٥٠ .
٢ – هذه الاحصاءات خاصة بالعام ١٩٤٤ . (المترجم)

Marfat.com

مع الاتحاد السوفياتي ، فأجرت محادثات مع ابن سعود سعياً الى تجديد اتفاقيـة الظهران التي تنتهي في شباط ١٩٥٠ . وجدد الاتفاق لمدة خمس سنوات اخرى في ١٥ تموز ١٩٥١ .

اهمية الشرق الاوسط في مخططات السيطرة العالمية ، من المعطيات السياسية التي اتخذتها بريطانيا قاعدة منذ ان انطلقت من جزيرتها تشيد امبراطوريتهـا الواسعة . هذه الاهمية وعتها روسيا منذ زمن بعيد ، غير ان الولايات المتحـدة ما عرفتها الا مؤخراً ، واحتلت في الشرق الأوسط مركزاً هامـاً على حساب بريطانيا ، غير ان العناد البريطاني اشهر من ان يجهل ، ولن تتلقى بريطانيا الصفعة دون ردة فعل !

ذلك ان لها بعد في المنطقة مواقع قوية جداً بفضل رؤوس الاموال البريطانية الموظفة في استثمارات نفط العراق وايران [1] والنفوذ البريطـاني رغم تقلصه يرتكز على هذه القواعد المالية وعلى شبكة خطوط الأنابيب العراقيـة – الفلسطينية الممتدة من كركوك الى حيفا ومن بغداد الى طهران . وبالتـالي ، فسياسة البترول البريطانية والسياسة الاميركية تتعارضان مباشرة .

كانت السياسة الاميركية غاية في البساطة ، فان احتياطي النفط في الغرب قد استنفد في تغذية حربين عالميتين وقدر المسؤولون عن الاقتصاد الاميركي ، الذين كانت أزمة ١٩٤٧ بمثابة انذار لهم ، ان من الضروري الاقتصاد في استهلاك النفط الأميركي الذي لن يدوم الى الأبد ، وكانت أفضل وسيلة لذلك اغراق

---

١ ـ لا بد من التذكير بأن بريطانيا كانت تملك ٤٨ بالمئة من نفط العراق و ٥١ بالمئة من النفط الايراني .

Marfat.com

أوروبا بفيض من النفط السعودي بسعر منخفض يجعل تصدير النفط الأميركي الى الخارج عملية خاسرة للشركات المنتجة .

اما سياسة بريطانيا فكانت تقوم ـ للأسباب نفسها ـ على الاقتصاد في استخراج نفط الامبراطورية وعلى استهلاك النفط الاجنبي ـ اي النفط الاميركي، ذلك ما حمل حكومة لندن على تسعير نفط ايران والعراق بشكل يجعله اغلى من النفط الأميركي المستورد بطريق البحر .

وقد توصلت الى ذلك عن طريق فرض « حد أعلى » للإنتاج على شركات النفط في الشرق الأدنى، ومنعت بالتالى شركة نفط العراق من استخراج كميات سنوية تزيد على أربعة ملايين وسبعمائة الف طن ومن استثمار ابار جديدة .

وقد مرّ بنا ان ثغرة فتحت في هذا النظام يوم عمدت شركة نفط الخليج الى بيع امتيازها من شركة « ستاندارد اويل اوف » ويوم قررت « ارامكو » تخطي الفيتو البريطاني والتوسع في استخراج آبار الاحساء . ولكن ملوك المال في لندن لم يهزموا بهذا القرار ، فقد كانت لديهم وسيلة اخرى للتحكم في تحديد الاسعار .

فالنفط المستخرج من الظهران او البحرين يجب ان يدور حول شبه الجزيرة العربية ليسلك صعداً طريق البحر الأحمر ، ثم يعبر قناة السويس ومنها الى الأسواق الأوروبية، مما يشكّل مسافة تبلغ ٤٧٠٠ كيلومتر . وكانت «ارامكو» لا تملك وسائل النقل الضرورية في حين انزلت بريطانيا الى البحر ناقلات نفط جديدة صنعت زمن الحرب عندما كانت الولايات المتحدة منشغلة بصنع بوارج حربية بكميات كبيرة. وكانت مضطرة الى استعمال ناقلاتها في خطوطها الداخلية ، وهكذا فان قسماً كبيراً من نفط الاحساء كان ينقل بواسطة شركات بريطانية.

يضاف الى ذلك ان بريطانيا كانت تفرض رسماً يتراوح بين ١٥ و ٢٠ سنتاً

Marfat.com

اميركياً على كل برميل يعبر قناة السويس .ولنا ان نتصور مقدار المبالغ المدفوعة عندما اصبحت ناقلات النفط تشكل ٥٨ بالمئة من الملاحة عبر قناة السويس عام ١٩٤٨ مقابل ٤٣٠٩ عام ١٩٤٧ و ١٧ بالمئة عام ١٩٣٨

فقد واصلت بريطانيا ، اذن ، فرض ارادتها في تسعير النفط العربي :

اولاً ـ بتحديد غير مباشر لانتاج ارامكو التي كان باستطاعتها ان تطرح في السوق مقدار خمسين مليون طن في العام او ـ اكثر ـ لولا عرقلة انتاجها من جراء ضآلة وسائل النقل الموضوعة تحت تصرفها من قبل الشركات البريطانية .

ثانياً ـ برفع او تخفيض اسعار النقل .

ثالثاً ـ برفع او تخفيض رسوم المرور عبر قناة السويس .

ان الانتاج البترولي العربي كله كان لا بد من ان يعبر قنـــاة السويس التي كانت بريطانيا تشرف عليها وتتحكم بواسطتها بأسعار الكلفة .

وكان طبيعياً ان يسعى الأميركيون، الى التحرر من هذه السيطره . وكانت لديهم وسيلتان لذلك : الاولى بناء عشرين ناقلة نفط كبرى كافية لاستيعـــاب ٥٠٠ الف طن ،فتحل بذلك مشكلة اجور النقل دون ان تحل مشكلة رسوم القناة.

والثانية كانت تقضي بمد خط من الانابيب ـ تابلاين ـ عبر البلاد العربيـــة يصل الظهران مباشرة بالبحر الابيض المتوسط ، وهو مشروع كان قيد الدرس منذ عام ١٩٤٣ وجرى بحثه بين روزفلت وابن سعـــود على ظهر « كوينسي » وكان من شأن هذه الأنابيب التي ستمتد على مسافة ١٧٥٠ كيلومتراً اختصـار المسافة الى الثلثين واتاحة صب ٤١ مليون ليتر من النفط يومياً في حوض المتوسط.

Marfat.com

كان هذا المشروع ضربة أليمة لبريطانيا .ُترى هل تستطيع شركة النفط الانكليزية الايرانيةالصمود طويلاًامام المزاحمةالاميركية؟والبلدان التي تعتمد عليها بريطانيا لاستمرار نفوذها في الشرق الادنى ؟ هل تصبح بين عشية وضحاها عرضة للضياع والانهيار ؟ لقد قام وجود العراقعلى نفطه ، وشرقي الاردنعلى حراسة خط انابيب النفط العراقي . وهكذا فان الحرب الخفية الناشبة بين « بترول الاسترليني » و « بترول الدولار»قد تحولت الى نزاع حاد بين الانابيب وناقلات البترول .

لم تعترض مد خط الانابيب في الاراضي السعودية اية عقبة . ولكن الامر كان على غير ذلك في المرحلة الثانية بين الحدود الشرقية الشمالية للعربية السعودية وساحل المتوسط ، اذ كان لا بد للخط هنا من اجتياز مناطق خاضعة للنفوذ البريطاني ـ شرقي الاردن وفلسطين ـ وكانت لندن مصممة على ان تحول بكل ما لديها من وسائل ، دون التابلين وبلوغ البحر .

وبدأ الاميركيون مرحلة مفاوضات متعبة وطويلة ، مع كل من شرقي الاردن وسورية ولبنان لمد الانابيب من الظهران الى صيدا .

وكانت الحكومة السورية تؤجل باستمرار اتخاذ قرار بهذا الشأن ، وتتذرع بمختلف الاعذار للتهرب من الموافقة على المشروع .

وتعثرت المحادثات سنوات طويلة، حتى ان الانابيب التي كان مقرراً الانتهاء من مدها عام ١٩٤٦ لم تكن قد ظهرت الى حيز الوجود عام ١٩٤٩ .

كان الانكليز يقاومون وهم على ثقة بأنهم لن يصمدوا الى النهاية في وجه المنافسة الاميركية . فسيأتي يوم تصبح فيه « لبترول الدولار » ناقلاته التي تمكنه من الاستغناء عن الناقلات البريطانية ،وسينتهي الامر بالتابلاين الى الوصول

Marfat.com

الى البحر . غير ان مـا كان يهدف اليه البريطـانيون هو ارهاق الشركات الاميركية حتى توافق على عقد اتفاقات جديدة ، وعلى قيام تشارك اميركي بريطاني على استثمار ثروة الشرق الاوسط النفطيـة يكون اكثر « عدالة » و« مساواة » من اتفاق عام ١٩٤٦ .

لقد عرض الانكليز في مناسبات عدة اقتراحات بهذا الشأن على واشنطن ، فرفضها الاميركيون . اما اليوم فان المشرفين على « ارامكو » بدأوا يفقدون شجاعتهم ، وراح بعضهم يتساءل : « اليس من الافضل التفـــاهم مع الانكليز والدخول في مفاوضات لهذه الغاية مع لندن ، فكان الانكليز على وشك اقتطاف ثمرة جهودهم عندما ظهرت على المسرح في سورية شخصية جديدة ما كان احد يتوقع بروزها : الزعيم حسني الزعيم .

لقد بدل استيلاؤه على السلطة في سورية قضية البترول من جميع وجوهها .

فمن هو ذلك الرجل الذي دفعت به الأحداث الى مقدمة الصفوف ؟

ولد حسني الزعيم في حلب عام ١٨٩٧ وكان ضابطاً محترفاً تلقى جزءاً من دروسه العسكرية في فرنسا ، وخـدم في الجيش التركي بين العامين ١٨١٧ و١٩١٨ وشارك في عملية الانسحاب من سورية بقيادة مصطفى كمال. وكان اول ضابط سوري تولى قيـادة وحدة فرنسية بعد وصول الجنرال « غورو » الى بيروت. وفي عام ١٩٤١ عهد اليه الجنرال « دانتز » بقيادة احدى الفرق والدفاع عن دمشق ضد القوات البريطانية . ثم حكم عليه بالسجن بعد ان عقدت الهدنة ودخلت القوات الفرنسية الحرة والقوات البريطانية سورية . فلما اطلق سراحه عام ١٩٤٣ عين مفتشاً عاماً لقوى الأمن ثم قائداً عاما للقوات السورية المسلحة.

كان حسني الزعيم في مطلع عام ١٩٤٩ يسيطر على الجيش وقوى الأمن ،

Marfat.com

فقرر مع ثلاثة من اصدقائه ضباط القيادة العليا : بهيج كلاس ، سامي الحنـاوي وأديب الشيشكلي ، قلب الحكم في سورية واقصـاء الرئيس شكري القوتلي وحكومته .

وهكذا ارتد الجيش السوري العائد من فلسطين بقيادة حسني الزعيم على دمشق فاعتقل رئيس الدولة ورئيس الحكومة وابرز الوزراء دون اراقة نقطةمن الدماء . واستقبل الشعب السوري الانقلاب بحماسة ، واعلنت استقالة الرئيس شكري القوتلي في السادس من نيسان، وتـلاه رئيس الحكومة خالد العظم في اليوم الثاني . وانتخب حسني الزعيم في الثامن والعشرين من ايار عـام ١٩٤٩ رئيساً للجمهورية بأكثرية ٧٢٦١١٦ صوتاً من اصل / ٧٣٠٧٣١ / ناخباً ، فمنح نفسه رتبة مشير وعهد الى محسن البرازي بتأليف حكومة جديدة .

وكان حسني الزعيم يفكر باصلاح اجتماعي واقتصادي على غرار ما قام به مصطفى كمال في تركيا .

ولم تكن مشاريعه الاصلاحية هذه لتروق لجميع الناس . فسرعان ما قامت في وجهه معارضة شديدة ، كما اثارت ميوله نحو فرنسا ، وعداؤه للملك عبد الله نقمة الاوساط الهاشمية التي كانت تعمل لانشاء حلف سوري – عراقي ـ اردني تابع للنفوذ البريطاني . ولكن هذه المعارضة لم تقلق حسني الزعيم وكان يشعر بقدرته على مواجهتها .

وما هي الا ايام حتى مهر حسني الزعيم بتوقيعه الاتفاق الذي يجيز لشركة « التابلاين » مد انابيبها عبر الاراضي السورية .[1]

---

١ – لقد قام حسني الزعيم بتوقيع ثلاثة اتفاقات وهي اتفاق الهدنة مع «اسرائيل » واتفاق التابلاين واتفاق النقد مع فرنسا . (المترجم)

Marfat.com

وربح الدولار معركة النفط !

٩٠

كان لهذا النبأ وقع مثير في لندن ولم تخف الحكومة البريطانية قلقهـــا من توقيع الاتفـاق . وتقول جريدة « لوموند » ان جميع خبراء الشرق الأوسط الانكليز قد استدعوا لعقد اجتماع في وزارة الخارجية في الرابع والعشرين من حزيران عام ١٩٤٩ لتدارس كيفية مواجهة تدهور الموقف البريطاني في الشرق العربي . لقد خسرت حكومة العمال معظم اوراقها منذ تولت الحكم قبل خمس سنوات . وقلب حسني الزعيم مخططات بريطانيا التي عكفت على اقامة دويلات موالية على طول ساحل المتوسط لتأمين استمرار المواصلات بين بغداد والقاهرة والحؤول دون وصول ابن سعود الى البحر المتوسط .

لقد كان هذا الهدف الشغل الشاغل لجميع رجال الدولة البريطانيين الذين تعاقبوا على الحكم منذ عام ١٩١٩ فيما كان ابن سعود يوجه الضربة تلو الضربة للمعاقل البريطانية تارة هنا وطوراً هناك .

فقد توغل السعوديون للمرة الاولى عام ١٩١٩ في الجوف وطريف واضطرتهم بريطانيا الى الانسحاب تحت وابل من القنابل . ثم احتل الاخوان للمرة الثانية ممر وادي السرحان فقطعوا الاتصـــال بين شرقي الاردن والعراق، وادركوا الحدود السورية ولكن الانكليز تمكنوا من اجلائهم عن طريق المفاوضة . وها هو ابن سعود يعود مرة ثالثة على متن فيض من البترول ، وساعياً للتحالف مع حسني الزعيم .

ان معنى ذلك القضاء على النفوذ البريطاني في المنطقة ، فالنفط الاميركي

Marfat.com

سيسيل حراً الى البحر الابيض المتوسط ولن يكون في وسع شركتي نفط العراق وايران الصمود في وجه منافسة (الارامكو) وستضطران الى التخلي عن مواقعهما لشركات اميركية وتصبح بريطانيا تابعة للولايات المتحدة على صعيد النفط الذي يغذي طيرانها وبحريتها .

اما النتائج السياسية فكانت لا تقل سوءاً، فلسوف ينفصل العراق عن شرقي الاردن وينعزل كل منهما عن الآخر مما يهدد بانهيارهما ، فتفقد بريطانيا بذلك آخر اثنتين من دعائم نفوذها في الشرق .

وعلاوة على ذلك فقد تأسست الجامعة العربيه ،بمساعي عبد الرحمن عزام احد المؤمنين المتحمسين للوحدة العربية، واعلن ميثاقها في القاهرة يوم الثاني والعشرين من اذار ١٩٤٥ لتنسيق التعاون بين مختلف الدول العربية في الشرق الادنى ، فاضحى ابن سعود « المغامر الذي لا مكان له على مائدة الامراء » كما كان يقول لورنس – عضواً نافذاً في هذه الجامعة منذ تأسيسها . وكانت تتألف من سبع اعضاء : « مصر والسعودية واليمن وشرقي الاردن والعراق وسورية ولبنان » . وكانت القرارات فيها تتخذ بالأكثرية ، فتصوت مصر والمملكة العربية السعودية واليمن في جانب ، بينما يصوت العراق وشرقي الاردن في الجانب المعاكس. وكان الحلف السوري – اللبناني هو الذي يرجح الكفة لمصلحة هذا الفريق او ذاك ، فاذا ما اصبحت سورية ويتبعها لبنان آلياً في صف ابن سعود ، فستكون للمملكة السعودية خمسة اصوات من اصل سبعة.وتصبح مع مصر سيدة الجامعة العربية .

وقرر الخبراء في وزارة الخارجية انه لا يجوز ان تقف لندن مكتوفة اليدين. وجاء الحل بعد عشرين يوماً سريعاً وعنيفاً .

ففي الرابع عشر من آب ١٩٤٩ . الساعة الثالثة صباحاً ، فيما كانت قوة من

Marfat.com

الجيش تطوق القصر الجمهوري بدمشق توقفت ثلاث سيارات مصفحة امـــام المدخل ونزل منها عدد من الضباط فتبادلوا والحرس بعض الطلقات النـارية ثم اقتحموا غرفة حسني الزعيم وقتلوه . وكان على رأس هؤلاء الضباط الزعيم سامي الحناوي .

ونقلت جثة حسني الزعيم الى سجن المزة فيما توجه فريق اخر من الضباط الى منزل رئيس الوزراء محسن البرازي الذي لقي المصـير نفسه ووضعت جثته الى جانب جثة المشير في المزة .

واستولى الزعيم سامي الحناوي على السلطة، واعلن للشعب من محطة الاذاعة « انتهاء عهد الظلم والطغيان » .

ومر حسني الزعيم مروراً عابراً في افق السياسة السورية .

وفاز « النفط الاسترليني » بالجولة الثانية .

لقد ساد الاعتقاد في دمشق بأن بريطانيا كانت وراء اغتيال حسني الزعيم ، وسيان ا كان ذلك صحيحـاً ام لم يكن ، فالثابت ان حكومة لندن قد تنفست الصعداء حيال الاحداث التي هزت عاصمة الامويين صبيحة الرابع عشر من آب عام ١٩٤٩ .

وعاد خبراء وزارة الخارجية البريطانيـــة الى الملفات القديمة فرأوا ان الضرورة تقضي بالعودة الى الخطط التي رسمهـا الكولونيل لورنس ، والى بعث مشروع الاتحاد العربي تحت سيطرة الهاشميين . سيكون مشروعاً اقل طموحاً

Marfat.com

من ذلك الذي وضعت خطوطه عام ١٩١٩ وسيضم اقطـــاراً ومساحة اقل ولكنه سيحمل اسماً شعرياً جميلاً : « الهلال الخصيب » .

وكان مفروضاً ان يتحقق المشروع البريطاني على مرحلتين : توحيد سورية ولبنان وشرقي الاردن اولاً ، ومن ثم اتحادهما مع العراق تحت تاج الملك عبد الله او الملك فيصل الثاني حفيد فيصل الاول الذي كان لايزال يتلقى علومـه في جامعة « هارو » البريطانية ، على ان يتألف، مجلس وصاية يضم بالاضافـــة الى الملك عبد الله والامير عبـــد الاله الوصي على عرش العراق ، كلاً من رئيسي الجمهوريتين السورية واللبنانية ورئيسي الطائفتين الشيعية والمارونية .

ولكن الاكثرية الساحقةمن السوريين واللبنانيين عارضت مشروع الاتحاد، هذا الذي لم يكن في الواقع « سورية الكبرى » بل كان عبـــارة عن « عراق كبير » . ووافق الجمهوريون السوريون على الاتحاد مع العراق وحده شرط ان يتخلى عن النظام الملكي ، مما كان يتنافى واهداف الانكليز في اخضـاع سورية للسيطرة الهاشمية ... او بتعبير اصح لملك صديق للندن . فالمطلوب اذن ان تتخلى سورية عن النظام الجمهوري [1] .

في التاسع عشر من كانون الاول عام ١٩٥٠ ، افاقت دمشق صبيحـة ذلك اليوم على انقلاب عسكري جديد بقيادة العقيد اديب الشيشكلي ، واعلن راديو دمشق « انه ثبت للجيش السوري ان اللواء الحناوي،ونسيبه اسعدطلس يتآمران لضم سورية الى احد الأقطار المجاورة، وان الجيش قام بحركته، هذه اخلاصاً منه للنظام الجمهوري والدستور » .

---

١ ـ وهنا يستعرض المؤلف بعض الاختلاطات التي كانت تتصف بها مشاريع الاتحادات لينتهي الى القول بان المساعي قد اتجهت اخيراً الى اقامة وحدة بين سوريا والعراق يعمل لها بعض حكام العراق مع فريق من السياسيين السوريين وهنا وقع انقلاب الشيشكلي .

Marfat.com

وفي الثلاثين من تشرين الاول عام ١٩٥٠ قتل سامي الحناوي برصاص محمد حرشو البرازي – نسيب محسن البرازي – فيما كان يغادر منزله في حي المزرعة في الضاحية الجنوبية من بيروت .

كانت الضربة قاسية على لندن . ولم يعد هناك اي شك بأن انابيب البترول ستصل قريباً الى البحر .

وحل الثالث عشر من تشرين الثاني عام ١٩٥٠ ، فادار ابن سعود بعد صلاة الظهر جهاز التحويل فتدفقت من « ابقيق » السيول الاولى من النفط الخام عبر الانابيب في طريقها الى الهدف البعيد : « صيدا » .

وكان المشروع الذي تحقق جباراً ، فإن خط انابيب البترول عبر البلاد العربية يقطع مسافة ١٧٨٣ كيلومتراً بين منابع النفط في الاحساء ومصبه على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وبلغت تكاليفه ٢٨٠ مليون دولار ، واشترك اسطول من البواخر في نقل المعدات اللازمة لانشائه ، والتي قدرت بثلاثة مليارات من الاطنان ، بينما استهلك الخط نفسه ٢٦٥ الف طن من الانابيب الفولاذية ، وساهمت خمسة آلاف شركة في تأمين احتياجاته .

وشقت على طول الخط طريق معبدة يبلغ طولها الفا وثمانماية كيلومتر تعبرها ليل نهار اكثر من ١٥٠٠ شاحنة ، وتحوم فوقها الطائرات ساعة بعدساعة لمراقبة ورشات العمل والحماية ، وحفرت اربعون بئراً على طول الطريق لحاجات العمل والعمال ويرتوي منها الآن مئة الف بدوي مع قطعانهم في حائل .

Marfat.com

واقيمت خمس مضخات على خط الانابيب في المملكة العربيـــة السعودية لم تلبث ان تحولت الى محطات لاقـــامة الخبراء الاميركيين والى مراكز زراعية جديدة للاخوان ثم الى مدن حديثة بكل ما تتطلبه من مساجد ومستشفيات ومحطات كهربائية وملاعب رياضية واحواض سباحة على احدث طراز .

ان ما حققته « شركة الانابيب عبر البـــلاد العربية » (التابلاين) اين منه طاقة ناقلات البترول الخمس والستين التي كان لا بد لها من ان تقطع خمسة الاف كيلومتر حول شبة الجزيرة العربية . فمدة اجتياز المسافـة تختصر عشرة ايام . والانابيب تنقل يومياً ٣٥٠ الف برميل اي ٤١ مليون ليتر الى خزانات جبـــارة انشئت في صيدا تتسع لسبعة ملايين برميل وهي كمية تتجـــاوز انتاج البترول اليومي في الولايات المتحدة .

وهكذا استطاعت « ارامكو » بواسطة « التـــابلاين » اغراق الأسواق الاوربية بفيض من النفط الارخص والأفضـل ، ومن زيادة انتاجهـا اربعة اضعاف ، مما ضاعف بالنسبة نفسها دخل المملكة العربية السعودية من النفط .

وهكذا ربح نفط الدولار الجولة الاخيرة .

٩٣

نظرة الى الأوضاع التي كانت تسود الدول الواقعة على البحر المتوسط او على الخليج العربي عام ١٩٥١ ، كانت تكفي للدلالة على فقدان الاستقرار ، فقد كان كل شيء في غليان من القاهرة حتى طهران .

وكانت المملكة العربية السعودية تبدو في وسط هذه العواصف وكأنها واحة الاستقرار والأمان ، بينما كانت الاغتيالات والثورات والانقلابات تتلاحق في الاردن وسورية ومصر والعراق وايران ، فاختلطت فيها الوطنية بالشيوعية ، والعنصرية بالعصبية الدينية ، ووجدت الجمعيات والمنظمات السرية والعلنية ، في ربوعها ، ارضاً خصيبة .

Marfat.com

لقد كانت هذه الاقطار احوج ما تكون الى حكمة ابن سعود وتجاربه وبعد نظره للتغلب على متاعبها ومشكلاتها .

لقد اغتيل رياض الصلح في السادس عشر من تموز عام ١٩٥١ خلال زيارة قام بها الى الاردن ، ثم اغتيل الملك عبد الله نفسه وهو على اهبة دخول المسجد الاقصى في القدس لتأدية الصلاة .

وكان عبد الله آخر عمود من اعمدة الهيكل الذي اراد لورنس بناءه سنة ١٩١٩ على انقاض الامبراطورية العثمانية . وكان غيـــابه عن المسرح ضربة للنفوذ البريطاني لا سيـــما وان ولي عهده ووريثه الامير طلال كان معروفاً بكرهه للانكليز .

وبدأ القلق يساور حكومة لندن على مصير الاردن فحاولت التقرب من ابن سعود . ودعا رئيس حكومة العمال الامير فيصل بن عبد العزيز الذي كان ينوب عن والده في تصريف الشؤون الخارجية ، للتفـــاوض معه ،ليس في القاهرة كما في السابق بل في لندن نفسها. واستقبل هربرت موريسون وكليمانت اتلي الامير فيصل في مقر رئاسة الحكومة البريطانية بكثير من الحفاوة والتكريم. ولكن الامير فيصل ابدى تحفظاً وحذراً ، ولم يشأ الارتباط بأي تعهد عندما رجاه الدبلومـــاسيان البريطانيان في ٨ – ١١ آب ١٩٥١ الا تتدخل حكومته اذا اقدم العراق على ابتلاع شرقي الاردن .

وارغم الانكليز على القبول بانتقال عرش عمان الى الامير طلال (٥ ايلول ١٩٥١، الذي لم يلبث بعد توليه الملك ان اشتبك في صراع سافر مع الجنرال كلوب باشا، مع ان هذا الاخير كان قد اعلن انه « سيخدم الملك الجديد بالاخلاص الذي كان يخدم به والده الراحل » . ولكن الملك طلال كان يريد عزله من قيادة الجيش . وبعد سلسة اصطدامات مضحكة مبكية بين الجانبين، وبعد ان ساءت حالة

Marfat.com

الملك الصحية ، اجتمع مجلس النواب الاردني وقرر تنحية الملك طلال «لأسباب صحية » وطلب اليه ان يسافر للمعالجة والاستراحة في مصحة قرب جنيف . وخلف الملك الفتى حسين بن طلال والده على العرش الهـــاشمي (٢ ايار ١٩٥٢) .

اما في سورية فقد كان الشيشكلي يبدو سيد الموقف حتى اواخر عام ١٩٥٣ عندما نشبت الثورة بقيادة سلطان باشا الاطرش وكان لوجود سلطان باشا على رأسها معنى كبير . فهو الذي حارب الاتراك عام ١٩١٧ الى جانب لورنس . وكان في الثاني من تشرين الاول ١٩١٨ اول من دخل دمشق . وكان هو ايضاً في خلال الأعوام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥ قائد الثورة ضد الفرنسيين .

اندلعت نيران الثورة ضد الشيشكلي من قرية المزرعة حيث كان سلطان باشا الاطرش قد اعد كميات من الاسلحة والذخيرة والبنادق الرشاشة والقنابـل اليدوية . ولكن الجيش تمكن من اخماد الثورة بعد قتال دام عدة اسابيع ولجـأ سلطان باشا الى الاردن . وما ان خيم الهدوء على جبل الدروز حتى قامت حركة تمرد داخل الجيش في حلب (شباط ١٩٥٤) لم تلبث ان اتسع نطاقها فغـــادر الشيشكلي البلاد لاجئاً الى المملكة العربية السعودية .

أما في وادي النيل فقد كان الموقف اشد اضطراباً اذ مزق النحاس باشا في التاسع من تشرين الاول عام ١٩٥١ معاهدة عام ١٩٣٦ مـع الانكليز . وقامت الجماهير تحرق المباني الانكليزية في القاهرة من متاجر ومصارف وشركات ملاحة يدفعها الحقد على البريطانيين ، بل على كل ما هو اجنبي . وتحول فندق « شيبرد» الشهير الى اطلال من الحجارة السوداء .

ومشى في اليوم التالي مليون من سكان القاهرة في تظاهرة صامتة احتجاجاً على وجود القوات البريطانية في السويس . وكان النحـاس باشا نفسه على رأس المتظاهرين (١٤ تشرين الأول ١٩٥١) .

Marfat.com

وكانت بريطانيا قد اتخذت تدابيرهـــا الاحتياطية فوصلت فرقة المظليين السادسة عشرة التي يدعى افرادها « الشياطين الحمر»، من قبرص الى الاسماعيلية بانتظار وصول نجدات اخرى . وكان الاسطول البريطاني في البحر المتوسط في حالة تأهب . وصرح سفير بريطانيا في القاهرة ان حكومته لن تتراجع امـــام التحدي فيما كان النحـــاس باشا يتقدم من مجلس الوزراء بمشروع اعلان التعبئة العامة في البلاد واصبحت الحرب متوقعة من وقت الى آخر .

وحاولت العناصر المعتدلة ان تتدخـــل لتلافي تدهور الموقف ، ونصح الاميركيون الفريقين بالتريث والحذر . وبدا الملك فاروق مستعداً للتفاهم مـع الانكليز عندما استولى على السلطة فجأة فريق من الضباط الشبان برئاسة اللواء محمد نجيب ، تماماً كما فعل حسني الزعيم واديب الشيشكلي في سورية ، فاقصـوا الملك فاروق عن العرش واستبدلوا الملكية بدكتاتورية عسكرية ، وانـــذروا الانكليز بالجلاء فوراً عن السويس والسودان .

ورأت شركة « ارامكو » ، وهي تشهد ارتفاع موجة الحمـاسة الوطنية في العالم العربي ، ان تستجيب لضغط الحكومة السعودية . فأعلن مجلس ادارتها في اول كانون الثاني عام ١٩٥١ موافقته على تعديل الاتفاق مع ابن سعود تعديـــلاً شاملاً ، بحيث تدفع الشركة خمسين بالمئة من ارباحها للخزانة السعودية . كمـا اعترفت بحق الملك ، بوصفه رئيس دولة ، في ان يفرض ضريبة على عائدات الشركة .

تلك اول مرة في التاريخ تتخلى فيها شركة مستثمرة كبرى عن جزء هـام من امتيازاتها وتضع نفسها تحت سلطة قوانين الدولة التي تعمل في اراضيهـــا وتستثمر ثرواتها . وكانت هذه الخطوة نقطة انطلاق مبدأ المناصفة .

وكان لا بد ان يكون لهذا القرار سلسلة ردات فعل في البلاد المنتجة للنفط التي منحت شركات اجنبية حق استثمار النفط في بلادها .

Marfat.com

فقامت الاوساط الوطنية في العراق بحملة عنيفة تهدف الى اعـادة النظر في الاتفاق مع شركة نفط العراق وكان امتيازها على وشك ان ينتهي . امـا في ايران فقـد لقي الجنرال رازمارا رئيس الحكومة الموالية للانكليز ، مصرعه اغتيالاً (٧ اذار ١٩٥١) فخلفه الدكتور مصدق الذي قاد على الاثر حملة قوية ترمي الى تأميم النفط واخراج الانكليز . وهكذا ، هبت الرياح التي لم تلبث ان تحولت الى عواصف من القاهرة الى طهران ، مروراً بعمان ودمشق وبغداد .

واستمرت بريطانيا في المقاومة رغم كسوف هيبتها وتضاؤل مواردهـا الاقتصادية ، وظلت توطد مواقعها الاستعمارية بذلك النوع من العنـاد الذي اتاح لها في الماضي ان تحول سلسلة هزائمها الى انتصار .

ذلك ما كان عليه الوضع في الشرق الأدنى ، في الوقت الذي كان فيه ملك العربية السعودية يوشك على تخطي عتبة عامه الرابع والسبعين . لكم تبدلت معالم الأشياء منذ طفولته حتى الآن ! ... لقد كانت حيـاته الحافلة تبدو وكأنها اجيال من البشر تعاقبت منذ فجر ذلك اليوم البعيد ، يوم طرق مسامع الطفل عبد العزيز للمرة الأولى نداء المؤذن يتعالى في الفضاء ، داعياً المؤمنين الى الصلاة .

ان عالماً بات يفصل بين قصر الرياض الأثري ،حيث رأى النور، وبين المنشآت الصناعية في الظهران من خزانات فولاذية ومدارج طيران ومصانع وطائرات تملأ الفضاء بهدير محركاتها . ما اقل الرجال الذين يستطيعون ان يفاخروا انهم قطعوا مثل هذا الشوط في حياتهم .

لقد بدأ عبد العزيز حياته وهو لا يملك سقفاً يأوي اليه ، فاصبح الآن يحكم مملكة يزيد عدد سكانها على ستة ملايين نسمة ، وتبلغ مساحتها مليوناً و ٩٠٨ الآف كيلومتر مربع .

Marfat.com

ترى هل كان ابن سعود يتصور ان تتحول احلامه الى هذا الواقع ، حتى في اشـد ساعات شبابه حماسة ، يوم كان يعيش في صحراء الربع الخالي الملتهبة منفياً ومشرداً ؟ ... ويوم اقسم على تحرير الجزيرة العربية وتوحيدها ! ...

ها هي اربعة اخماس شبه الجزيرة محررة موحدة خاضعة لسلطانه ، وهـذا سيفه يبسط ظله على مساحات شـاسعة تطل على بحرين ... وهذه قفزة الاحساء التطورية الجبارة توفر لبلاده مستوى اقتصادياً رفيعاً وتجعل منهـا بلداً من اغنى اقطار العالم .

وهذه مدينة الرسول ومكة المكرمة ... وفيهما ضريح النبي وبيت الله ، ومنهما ينبع الايمـان ، تجتذبان كل عام اكثر من ٣٠٠ الف حاج ويمتد اشعاعه من الاطلسي الى الصين ! ...

ألا يمكن القول بأن هذا النجاح الذى حققه قد تجاوز آماله وامانيه ؟ ...

لقد جاهد « فهد الرياض » طويلاً حتى بلغ هذه الاهداف ، فلم يهن له عزم ، وما انهارت ارادته مرة أمام العقبات . لقد عرف كيف يترقب الساعة الملائمة ، وكيف يصبر حين لا يستطيع القتـال ، وكيف يبقى مترصداً اشهراً وسنين بانتظار اللحظة المناسبة للانقضاض على خصمه .

لقد دلل طيلة اكثر من نصف قرن على انه كان شجاعاً وحذراً ، قوياً ومرناً ، متصلباً ومداوراً .

لقد رزقه الله حظاً نادراً اذ اكتشف الماء عندما بدأ يشعر بأن الجفـاف سيخذله ، وتدفق الذهب الاسود في بلاده حين رأى نفسه مشلولاً امـام الفـاقة .

وأي توافق عجيب في الظروف رافق مراحل صعوده مـع التطورات

Marfat.com

العالمية ! فقد اتاح له تضعضع الامبراطورريه العثمانية استرجـــاع نجـد وفتح الاحساء ، كما سهل له ضعف الامبراطورية البريطانية تخليص الحجاز واحتلال حائل . وأدى تصـــاعد القوة الأميركية الى الاسراع في تقدم شبه الجزيرة وتطورها . ولما بدأ الأميركيون يرفعون صوتهم ، ظهر ألالمان على المسرح من جديد وجاؤوا يحملون إلى الملك الحلول البديلة ، فاستطاع بذلك الا يشعر بانه تحت رحمة أي انسان . لقد حلت عليه « البركة »، فهو مؤسس أسرة ومجتمعات بشرية ومدن ، ثم هو موحد اقاليم ومؤسس مملكة ، وكانت فعاليته بارزة في جميع المجالات ، لقد بلغ قمة النجاح والتوفيق .

لو جاء ابن سعود قبل عشرين ، أو بعد عشرين عاما ، لكان تحقيق مثل هذا النجاح الذي حققه امراً مستحيلاً .

لقد تمكن بفضل انحسار المد العثماني من فرض الوحدة على قبائل الصحراء ، ومن جمع شتاتها المبعثرة والحيلولة دون وقوعها تحت سيطرة اجنبية . ولولا العمل الذي حققه خـلال الأعوام ١٩٠٠ حتى ١٩٢٥ لمـــا كان في وسع ابن سعود ان يتحرر من الأتراك وان يصمد امام لندن ، وان يفرض شروطه على واشنطن ، ولأصبحت الجزيرة العربية ، التي كانت تابعة للسلطـان ومطية لوزارة الخارجية البريطانية، مجرد (مجال) يستثمره البيت الأبيض .

يقول كلمنصو : « ان اعظم ما في هذه الحياة ان يشق المرء لنفسه طريقاً بين الرجال » . واما ابن سعود فقد شق لنفسه طريقاً بين الممالك والامبراطوريات !

غير ان الجزيرة العربية اذا كانت قد افادت حتى الآن من تطور العالم ، فهي معرضة بالمثل لأن تكون ضحية ذلك التطور في وقت قريب . إن فقرهـــا وعزلتها ابقياها في قديم الزمان، في منأى عن الاحداث التاريخية الكبرى. ولقد مضى ذلك الزمـــان الذي كان يمكن التحدث فيه عن « العربية السعيدة » لأن

Marfat.com

الثروات التي لا تصدق، والتي اكتشفت في ارضها، تهدد بأن تجعل منها واحدة من أشد المناطق تعرضاً للمطامع . لقد بات محالاً على الجزيرة العربية ان تنزوي في حياد مريح لتلعب مرة اخرى لعبة الدول المتصارعة ، وليس في ذلك من حرج ، فقد فقدت في هذا العصر كلمة الاستقلال الكثير من قيمتها ومعناها . فأي استقلال بقي للشعوب الصغيرة في ايامنا هذه ؟ ...

إن نشيد الحرية لم يعد يرن ابداً الا حيث يعلو دوي الأعاصير الذرية في « هانفورد » أو في « كيلينوسك » . إن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي هما وحدهما سيدا نفسيهما كلياً . إن كل الدول الأخرى قد تحولت في هذا المجال، إلى دور ثانوي ، ولكن بعضاً منها يرفض التسليم بالأمر الواقع ، معتزاً بعظمته السالفة ، فيخال نفسه ما برح حراً في تكييف مصيره على هواه . وما ذلك غير وهم وخيال .

ثمة صعيد آخر يفسح فيه تطور الجزيرة العربية مجالاً واسعاً للتفكير . إن الرغبة في الوثوب ، عبر الف عام من التاريخ ، بتخطي المراحل الفاصلة ، والتحول فجأة من العشائرية الى النظم الرأسمالية المعاصرة الاكثر تقدماً ... ليس بعملية سهلة يمكن تحقيقها بغير متاعب ، فلقد تنجم عن هذا « التبدل » الجماعي انعكاسات نفسانية غير متوقعة بقدر ما يكون التبدل سريعاً وعنيفاً . كيف سيتحمل المرء قطيعته لوسائل الحياة التي عرفتها الاجيال السابقة لجيله ؟.. اتراه يستطيع التكيف ، الى امد بعيد ، بالاوضاع الجديدة التي تكتنف وجوده اليوم ؟ الا يخشى عليه من ان يتحطم ، عبر الطريق ، اذا لم يراع مراحل التطور الطبيعية ؟ .. وهل تتوافر له اخيراً الطاقة العقلية لاكتساب واستيعاب مجموعة المعارف التي سوف يفرضها عليه قريباً وضعه الجديد ؟ ..

على هذا يجيب « نوربرت بيسوف » احد المراقبين لشؤون الشرق الادنى ،

Marfat.com

جازماً بالايجاب . فان الصورة التي يقدمها لنا التاريخ عن ركود البدو ليست – في اعتقاده – ميزة ملازمة لطبيعتهم ، بل انها انعكاس لركود المحيط الذي عاشوا فيه .

والملكية الخاصة – على حد قوله – هي ركيزة كل مجتمع ، والواقع ان البدوي لا يملك شيئاً على وجه التقريب . ان تاريخه يبدأ بمولده وينتهي بوفاته . ليس ثمة صلة تاريخية او أثرية تربطه بالماضي ، وليس ما يشد به الى الارض ، لا مسكن ولا مستقر ، انه يجوب القفر او الصحراء ، حاملاً تراثاً يستطيع على كل حال ، ان يجد بديلاً عنه في اي وقت وفي اي مكان .

ان ضغط الظروف الآتية هو الذي يكوّن وحدة القبيلة تحت سلطة زعيمها ، ولكن سرعان ما تتفكك بضغط ظروف اخرى مغايرة . مرونة ورشاقة فائقتان : تلك هما القاعدتان اللتان يتوجب على المرء اتباعهما اذ يحيا وجهاً لوجه مع طبيعة عاتية تملك تفوقاً جلياً ظاهراً على الانسان .

ويملك البدو في مقابل ذلك ، جعبة غنية بالتجارب ودقة الملاحظة المرتبطة بشتى نواحي الحياة اليومية . وانه لمن فادح الخطأ اعتبار ثمرة هذه الخبرة ، البعيدة الامد ، دليلاً على انها تقليد اصيل موروث ، بل لا بد ان نرى فيها الشاهد على عدم تبدل اوضاع الحياة الخارجية التي يخوض البدو في غمارها ، منذ الآف السنين ، معركتهم المريرة ، ضد طبيعة لاتني عدوة الانسان . لقد توصلوا في هذا الصراع الى درجة لا تصدق من التكيف مع الطبيعة المحيطة بهم ، ولكن هذا التكيف ، الذي هو ثمرة تجاربهم ، لا تمتد جذوره الى نفوسهم ، بل هو من وحي الحاجة الحاضرة ، ولهذا يتخلون عنه باكثر ما يمكن من السهولة عندما يوفر لهم اي تبديل في ظروف حياتهم ، اسلحة اقل كلفة ، او اشد مضاء في كفاحهم من اجل الحياة .

ولهذا بالذات فإن الشعوب الاكثر تخلفاً من الناحية الثقافية ... والشعوب

Marfat.com

الاقرب الى الحياة البدائية هي التي تبدي مقاومة اقـل في وجه التقنية الحديثة وتتقبل سحرها بحماسة الاطفـــال . انها لنقطة اساسية اذا اردنا فهم تركيب العقلية البدوية وتطور الشرق المعاصر .

ذلك ما احسه ابن سعود ، ولما كان على معرفة حميمة بشعبه ، فقـد ادرك ان انتشال هذا الشعب من خموله وعدم استقراره وهما صفتان غير متناقضتين الا في الظاهر يستلزم ان يبدأ بتعديل معطيات حياته ، والا فان المجهود الاصلاحي لا بد ان يتكرر كل يوم .

لقد رأى ان لا بد من تزويد الجماعات البدوية بتنظيم اجتماعي متسلسل راسخ الجذور في الأرض جدير بالبقاء . او لم يكن انشاء الاخوان في عرفه ، الا تحقيقاً لهذا الهدف ؟ اليس من اجل ذلك كان ابن عبد الرحمن يشرح بـلا ملل لرواد « الاورطاوية » الاوائل كيف ان مستقبل الجزيرة العربيـة كله كان منوطاً بنجاح مشروعهم ؟ وهل كانت هنـــاك ثمة وسيلة اخرى لوقف تشتت طاقات البدو المريع الذي كان يقودهم ، قرناً بعد قرن ، الى التفجر في الخـــارج او الى التناحر فوق ارضهم ؟ كان لا بد من اجل تمكين الجزيرة العربيـة السعودية من احتلال مكانها بين الشعوب الحديثة ، من تركيز الاجيال الصـاعدة واستبدال مضارب الشعر لديها ببيوت من الحجارة ، وان يغرس فيهـا حب للوطن اقوى من نداء الصحراء .

وكان بديهياً الا يتم انقلاب من هذا النوع دون اثارة اضطرابات في اعمـــاق تلك النفوس المتمسكة اشد التمسك بتقاليدها وعاداتها .

يقول الكاتب « جيرالد دوغوري » : « ان الجزيرة العربية لم تنس اسرار ماضيها ولا ما هي مدينة به لحضارتها العريقة . فهل يتوجب عليها الانسلاخ عن ذلك كله لتتلقى من الغرب منافع من نوع آخر ؟ » .

Marfat.com

ولكن مطامح الملك عبد العزيز كانت آفاقها الفكرية اوسع من ذلك وارفع، فالذي كان ينشده من « مماشاة العربية السعودية للعصر الحديث دون استسلامها لهذا العصر » لم يكن ظهور اضطرابات اجتماعية بل تكوين امة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، اي تكوين جسم اجتماعي مزود بكل الوسائل الضرورية لبقائه واستمراره وجديراً بأن يكون رائداً ومثلاً للدول العربية الاخرى » .

فهل يتمكن ابن سعود وخلفاؤه من الوصول بالتجربة الى هدفها السليم ؟ وهل يعيدون الى الاسلام قوته وبريقه اللذين كانا في زمن عظمته السالفة ؟

ثلاث موجات علت حتى الآن بالجزيرة العربية وجعلتها تتخطى ذاتها وتفجر عبقريتها التي تألقت حتى أدركت النجوم .

كانت الموجة الأولى موجة الفتوحات الاسلامية من القرن السابع حتى الثاني عشر ، وكانت الموجة الثانية ... موجة محمد بن عبد الوهاب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وها هي الموجة الثالثة ، موجة ابن سعود ، تنطلق وتتعاظم أمام أعيننا اليوم . فهل تبلغ الاوج وتحقق الظفر الموعود ؟ أم أنها ستتبدد وتنحسر لتفسح المجال امام اجيال من السكون والجمود تتكون خلالها ببطىء عناصر الموجة التالية ؟

هذه اسئلة لا يستطيع الجواب عنها سوى العرب انفسهم !

لقد أجاب ابن سعود على هذه الأسئلة جواباً أملته عليه ثقته بالمستقبل ، وهي إحدى خصائصه التي تتميز بها شخصيته .

Marfat.com

ففي مساء يوم من أيام تشرين الثانى عام ١٩٥٠ ، كان سيد الجزيرة العربية يستقبل في قصره بالرياض ، بعثة من الامم المتحدة جاءت تتشاور معه بشأن القضية الفلسطينية وقدم لضيوفه عشاءً خفيفاً على سطح القصر حيث يمتد النظر بعيداً ليجتلي رمال نجد وكثبانها المذهبة .

لقد كان الغسق رائعاً وكانت ذرى أشجار النخيل تتمايل مع النسيم العليل فيما كان النهار يحتضر صوب الغرب .

وعندما هبط الليل ، والليل يهبط سريعاً في هذه الارجاء، اضيئت المصابيح الكهربائية دفعة واحدة على طول الطريق الفسيح الذى يصل بين العاصمة والقصر فكانت أشبه بعقد من النور المتلألىء . ولم يتمكن احد أعضاء البعثة أمام هذا المنظر الاخاذ اخفاء دهشته ، فالتفت الملك نحوه وقال له : « هذا الذي تراه ، إن هو إلا عقود اللؤلؤ للجزيرة العربية في ثوبها الزاهي الجديد . »

وهنا أشار الملك عبد العزيز الى حلقة من الفتية يعتمرون الكوفية والعقال وقد التزموا جانباً من المجلس مع نفر من ضباط الاخوان ، وقال :

ـ ولكن هذه اللآلىء ليست هي اثمن ما أملكه من جواهر . إن أغلى ماأملك هم ابنائي ... لقد عشت حياة حافلة ، وها إنني اليوم في مرحلة الشيخوخة ، وسوف لن يتأخر طويلاً زمن الراحة ، وسأغمض عيني مطمئناً ..

إن أبنائي سيعكفون من بعدي على إكمال رسالتي وإذا منحهم الله العون الذي منحني فانهم سيرسمون يوماً الطريق لأكثر من مائة مليون من المؤمنين .

واعترض مندوب الامم المتحدة فقال :

ـ ألا تعتقدون جلالتكم انكم في هذا تغالون في التفاؤل ؟ ان العالم يعيش على

Marfat.com

فوهة البركان ، ولا يعلم أحد اي مصير يترقب الجزيرة العربية اذا نشبت حرب جديدة !

ففكر ابن سعود لحظة ثم اجاب ببساطة .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ادعي انني اعلم بالغيب ، ولكن الله جلّ جلاله ، قد غمر هذه الجزيرة بفيض من خيراته وسيمن عليهـــا بالمزيد إذا قدر انها تستحق فضله وإحسانه .

٩٥

انتقل ابن سعود الى رحمة الله في التاسع من تشرين الثـاني سنة ١٩٥٣ في الساعة التاسعة والدقيقة الاربعين صباحاً اثر نوبة صـدرية في قصره بالطائف .

واذيع النعي من محطة اذاعة المدينة المقدسة ، فالتقطته اذاعة دمشق، وما هي الا ساعات حتى كان النبأ يتردد في كل انحاء العالم .

واصيب اهل نجد والحجاز وحائل والاحساء بالذهول عندما سمعوا بأن القلب الاشد قوة في الجزيرة العربية قد كف عن الخفقان .. واذا كل شيء يتوقف دفعة واحدة : عمـال المصافي توقفوا عن العمل ، عمال الموانىء القوا بمـا يحملون على الرصيف ، البدو ترجـلوا عن ركائبهم ، الجنود في ثكناتهم القوا ببنادقهم على الارض ، الطائرات والقطارات والشاحنات تجمدت في مكانها .. واتجه ستة ملايين عربي في الجزيرة نحو مكة المكرمة وخروا ساجدين .

وشيعت صحف العالم العاهل الراحل بعبـارات تفيض اعجاباً بشخصية الراحل العظيم واحتراماً لمزاياه فكتبت جريدة « الديلي اكسبريس » اللندنيـة

Marfat.com

تقول : « لقد مات ابن سعود ... لـقد كان اشد صلابة واكثر مرونة واسعد حظاً من جميع زعماء العرب في هـذا العصر . لقد اسس مملكة على مضض من السياسة البريطانية واستثمر حقوله البترولية بالتعاون مع الاميركيين ، وكلاهما كان يحترم خصائصه الفذة . »

وكتب « جان بول بونيه » في مجلة « باري ماتش » فقال :

« لقد خلف ابن سعود ، الذي لقبه الانكليز بنابليون الجزيرة العربيـة ، مملكة شاسعة تعـدل مساحتها نصف مساحة اوروبا ، وبلداً يعتبر الثالث في العالم في انتاج البترول ، وكان في الوقت نفسه الزعيم المرموق في العـالم العربي . نصف قرن من الجولات الخيالية ... ملحمة مدوية لم تخطر اعاجيبهـا ابداً في بال كتاب قصص الفروسية ... لقد استطاع ابن سعود في خضم القرن العشرين ان يفجر من غمار الرمال امة جديدة . »

وكتب « رينيه برانيلك » في « اللوستراسيون » :

« ان تاريخ هذا البطل ـ الذي بدأ حياته اميراً بدون امارة ، والذي تنحني له اليوم الجزيرة العربية بأسرها ـ لهو احدى الملاحم المذهلة في تاريخنا المعاصر » .

وكتب « غيمار كه » في « ريغارول » :

« لقد انتهى ملك الصحراء ! لقد مات ابن سعود واختفى بموته وجـه من ابرز الوجوه في العالم العربي . لقد دخل في عالم الاساطير حين كان ما يزال في قيد الحياة ، اما الآن فسيبقى ظله يحوم ويحوم على دروب الصحراء .. والى امـد طويل . »

Marfat.com

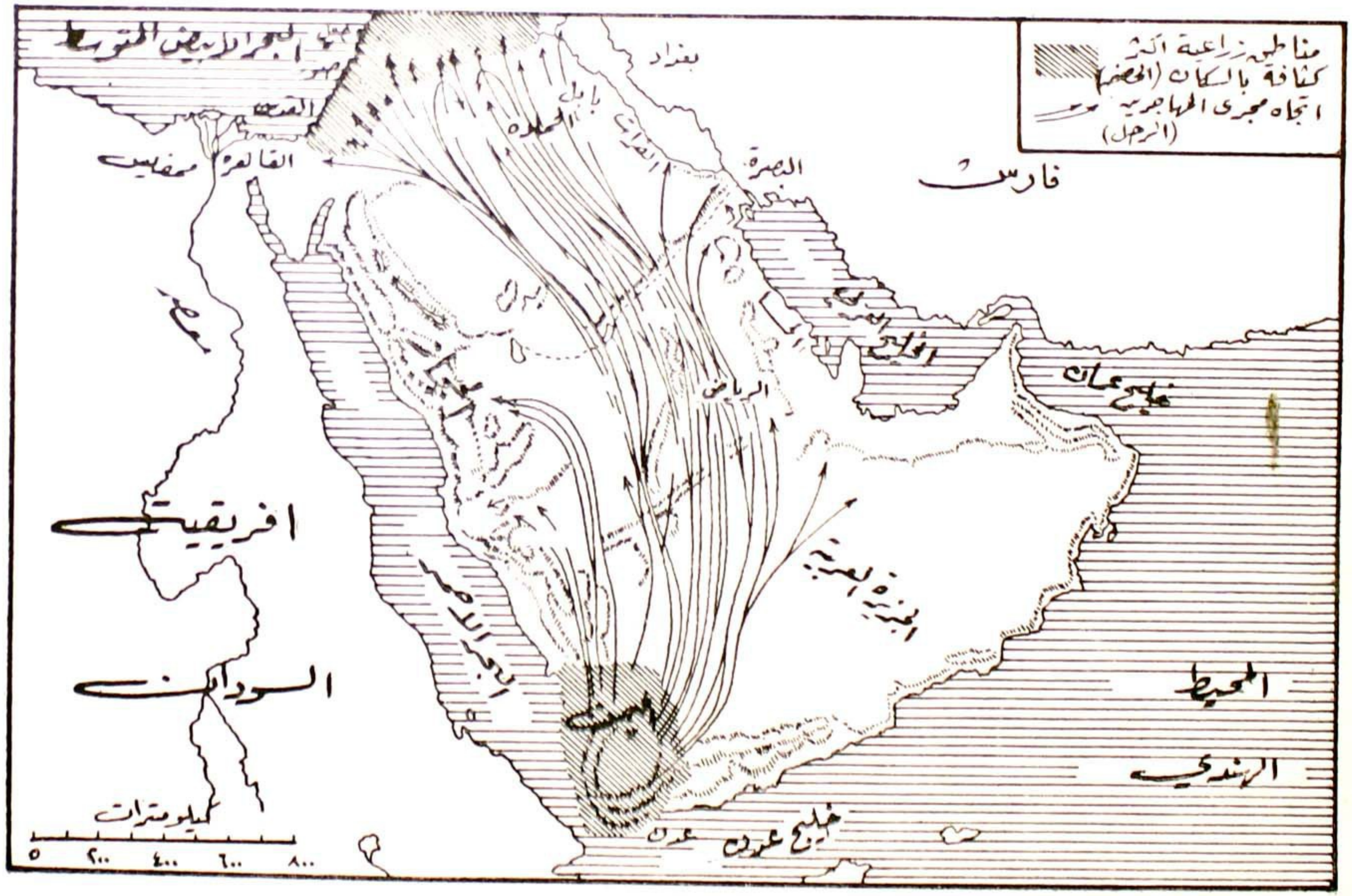

مجرى الهجرات البشرية عبر الجزيرة العربية

Marfat.com

Marfat.com

Marfat.com

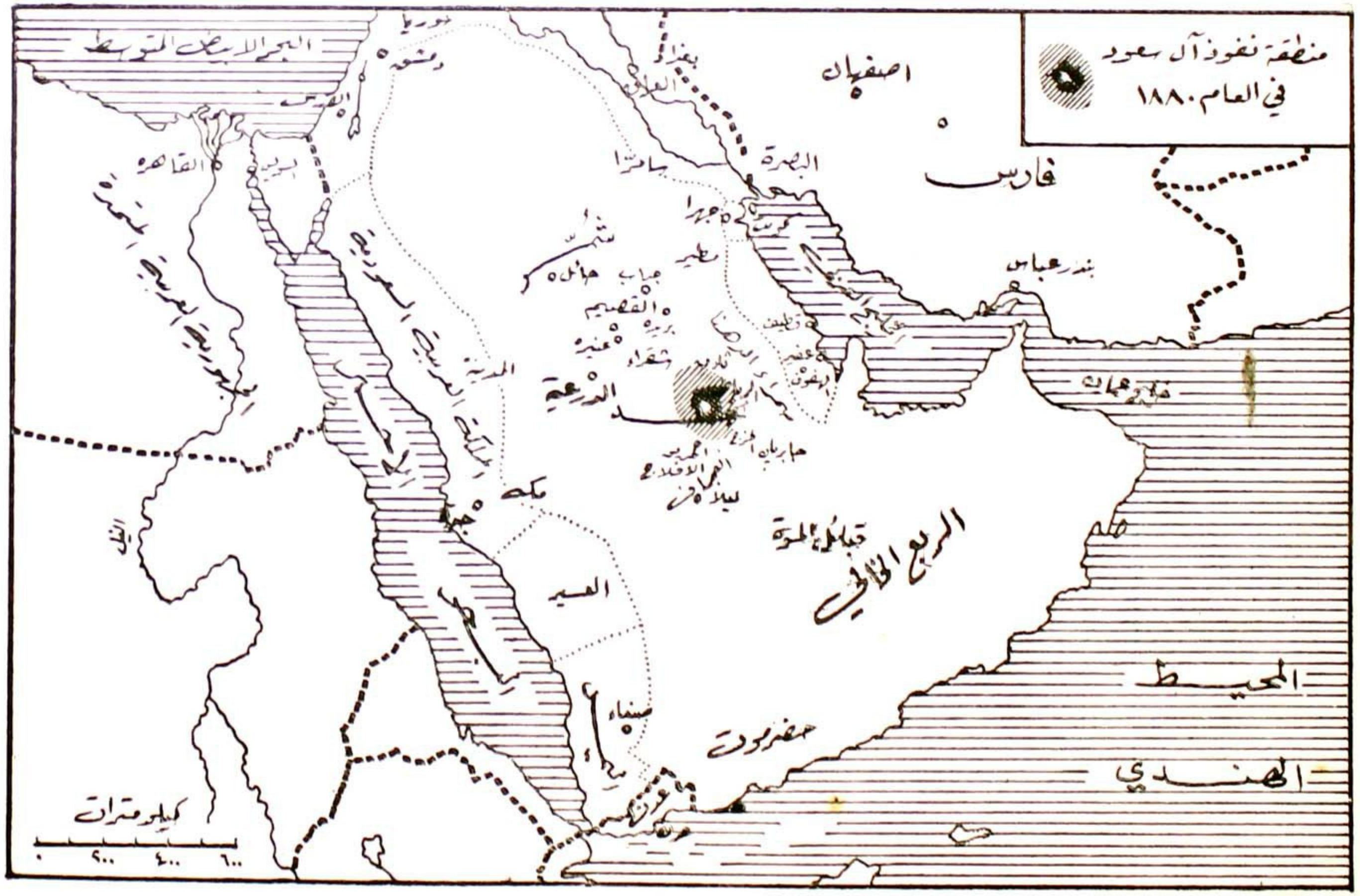

الجزيرة العربية قبل سنة ١٩١٤

Marfat.com

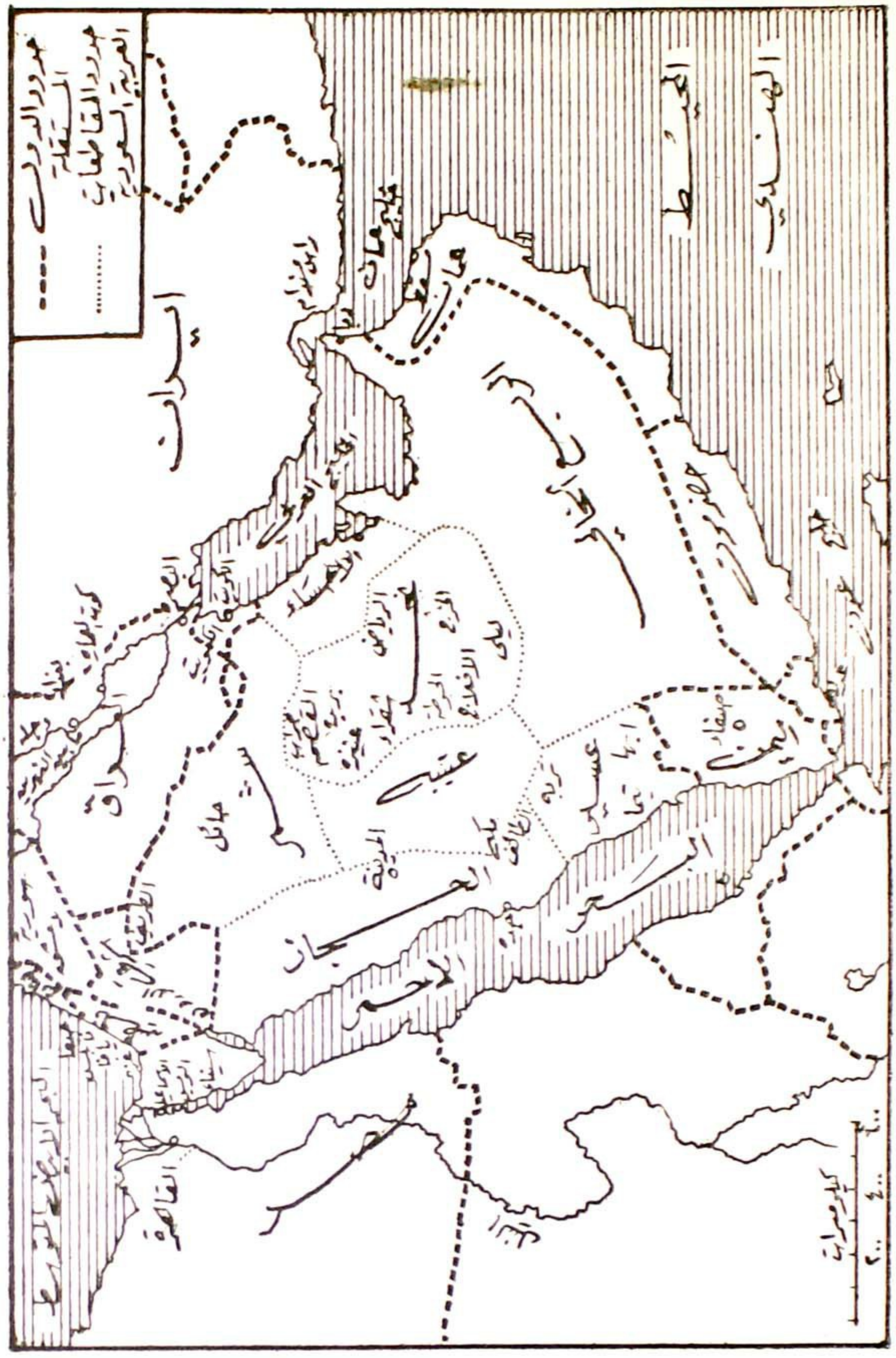

الجزيرة العربية بعد سنة ١٩١٨

Marfat.com

Marfat.com

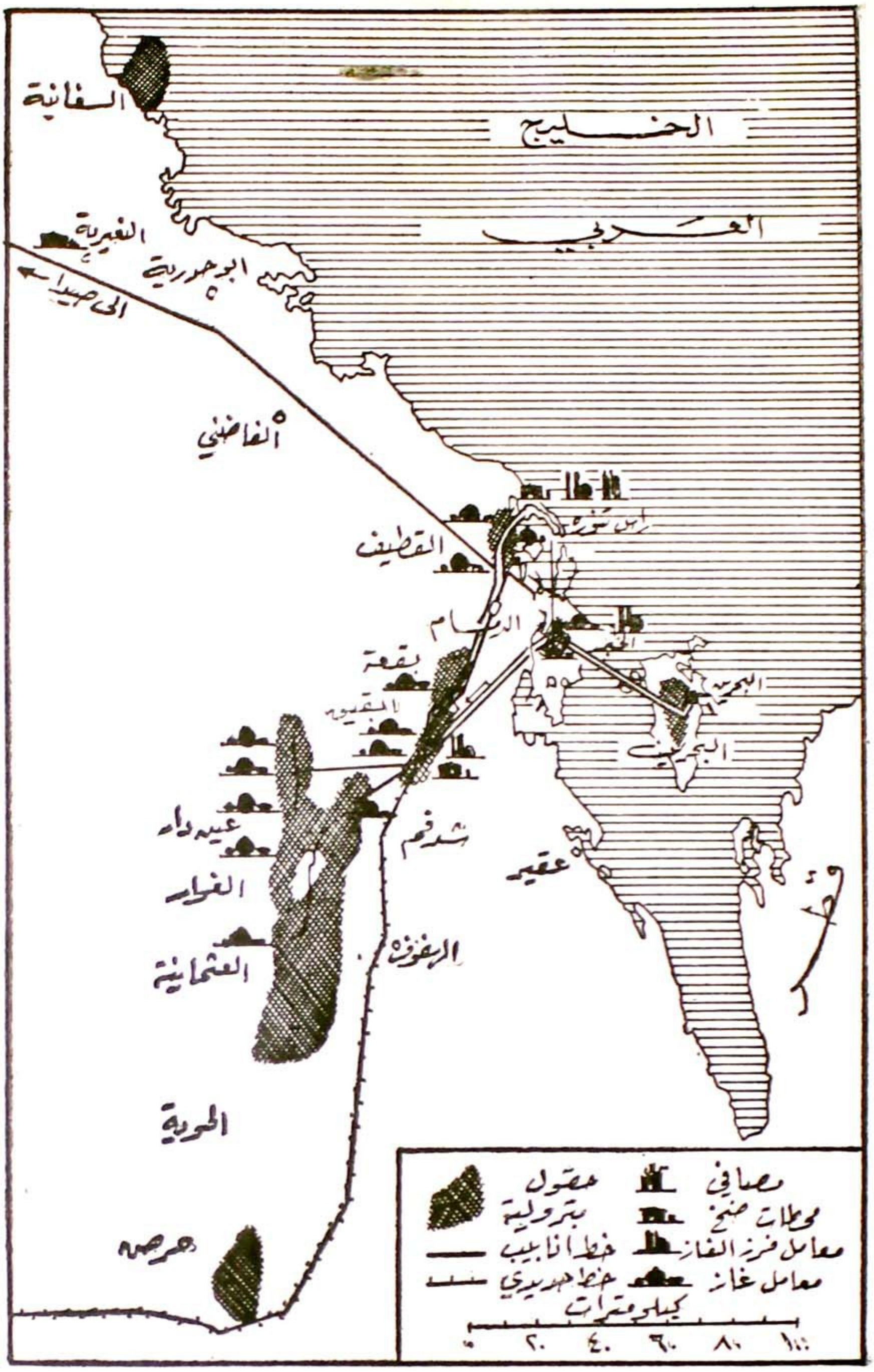

الابار وخطط الانابيب في الاحساء والبحرين

Marfat.com

Marfat.com

Marfat.com

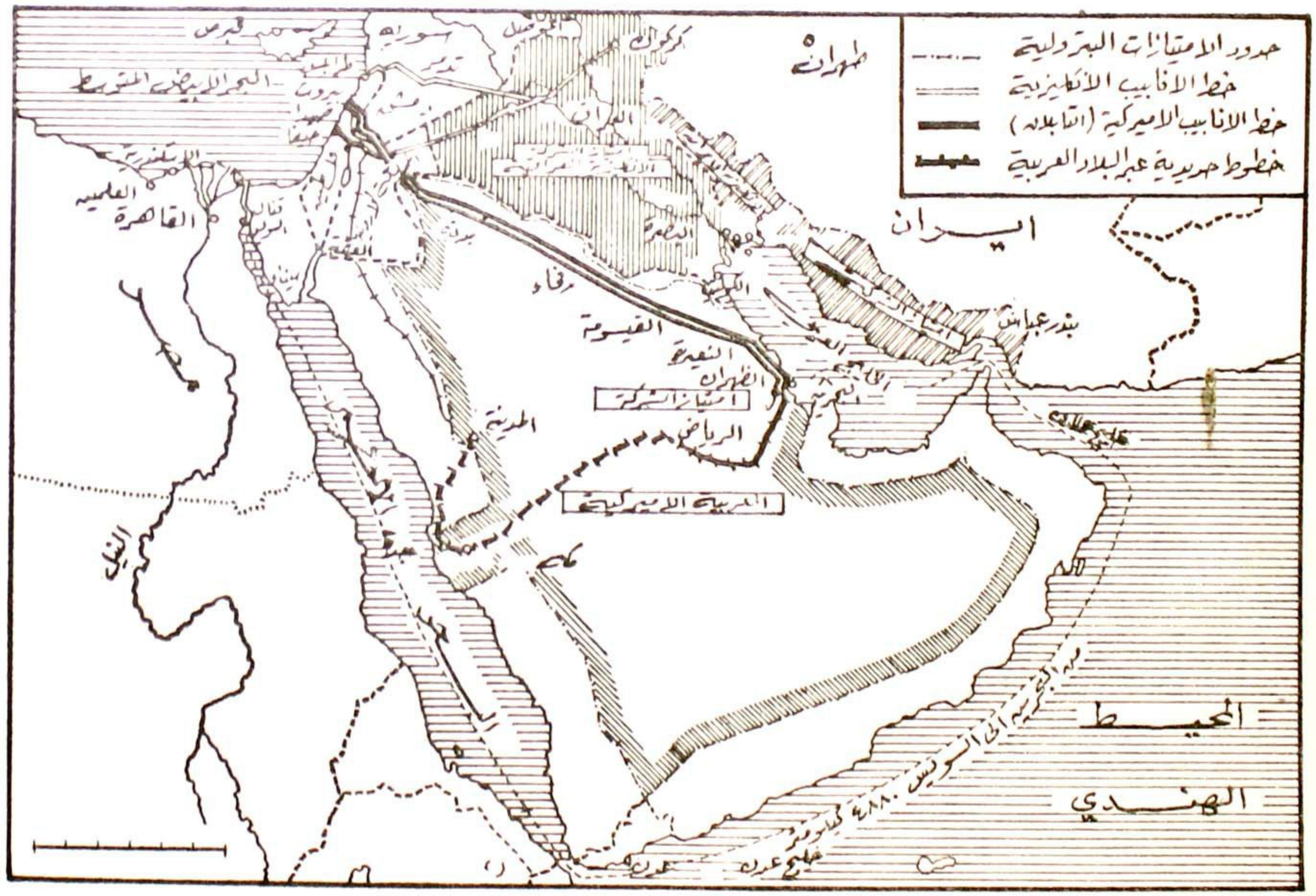

امتيازات مناطق البترول وخطوط الانابيب عبر البلاد العربية

Marfat.com

فهرست

	صفحة
مقدمة المترجم	٧
الجزء الأول	
العرب بين الحركة والجمود	
٥٠٠ قبل الميلاد – ١٨٨٠	
جمود الصحراء . حملة اليوس غالوس (٢٤ قبل الميلاد)	١٣
سبل الهجرة البشرية	١٧
تكون المحاربين	٢٠
خلق الشعراء	٢٢
النبي محمد والفتح الاسلامي	٢٣
الامبراطورية العربية	٢٤
عودة الجزيرة العربية الى الجمود	٢٥
وصول الصليبيين وحملة « رونودوشاتيون »	٢٦
وصول الاتراك وحملة الانكشارية	٢٧
ارستقراطية الصحراء	٢٩
محمد بن عبد الوهاب وسعود الكبير (١٦٩٦ – ١٨٧٤)	٣٠
نابليون والشرق . بعثة « لاسكاريس » (١٨٠٤ – ١٨١٢)	٣٤
انهيار الامبراطورية السعودية (١٨١٢ – ١٨١٨)	٣٦
عودة جديدة الى الجمود (١٨١٨ – ١٨٨٠)	٣٨

Marfat.com

الجزء الثاني
فتح نجد
(١٨٨٠ – ١٩٠٥)

مولد وشباب عبد العزيز	٤٣
استيلاء آل الرشيد على نجد	٤٧
مذبحة في قصر الرياض وهجرة الامام عبد الرحمن	٥٠
الانسحاب الأول الى الربع الخالي . والرؤيا في الصحراء	٥٣
عبد العزيز في الكويت	٥٨
انقلاب مبارك	٦٢
هجوم وهزيمة مبارك – تدخل الانكليز	٦٣
تنازع الدول حول الخليج العربي	٦٥
قسم « جبرين »	٧٢
الاقامة الثانية في الربع الخالي	٧٣
ضربة عبد العزيز في الرياض	٧٦
عبد العزيز يستولي على عاصمته	٨١
عبد العزيز امير الرياض	٨٣
هجوم الرشيد المعاكس	٨٥
فتح القصيم واعدام عبيد	٨٧
تدخل الاتراك وهزيمة عبد العزيز في البكيرية	٨٩
انتصار عبد العزيز في « شنانة » واندحار الاتراك	٩٢
مفاوضات مع مخلص باشا	٩٣
جلاء الاتراك عن اواسط الجزيرة العربية	٩٧
موت ابن الرشيد	٩٨
عبد العزيز ملك نجد	٩٩

Marfat.com

الجزء الثالث
فتح الجزيرة العربية
(١٩٠٥ – ١٩٢٨)

سحق ثورة الشمال ١٠٤
سحق ثورة الجنوب واعدام المحرضين ١٠٦
استيلاء جماعة « تركيا الفتاة » على السلطة وتطور الوضع الدولى ١٠٩
فتح الاحساء ١١٢
ابن سعود والثوار السوريون « انشاء الاخوان » ١١٥
تأسيس الاخوان . رواد الاورطاوية ١١٨
بدء الحرب العالمية الاولى. زيارة ابن سعود لمبارك ١٢٨
موت شكسبير . اتفاقية « عقير » ١٣٢
انقلاب الحسين ١٣٤
توسط سانت جون فيلبي ١٣٧
حوادث خرمة . « المكتب العربي » ضد « المكتب الهندي » ١٣٩
تحول محمد بن الرشيد ١٤٤
فتنة الاخوان . مؤتمر شقرا ١٤٦
فتح حائل . ابن سعود سلطان نجد وملحقاتها ١٤٩
مؤتمر القاهرة الاول ١٥١
انتصار « تربة » وحؤول الانكليز دون تقدم الاخوان ١٥٢
دخول « اللنبي » الى دمشق . نهاية الحرب العالمية الاولى ١٥٤
مؤتمر باريس . لورنس والاتحاد العربي ١٥٦
لورنس يخوض معركته الاخيرة . مقابلة لورنس ـ فيلبي ١٦٠
استبعاد ابن سعود من الاتحاد العربي ١٦٢
مؤتمر القاهرة الثاني . مجزرة الجوف وطريف ١٦٥

Marfat.com

سنوات ترقب . افول نجم الحسين ١٦٧
انتصار الطائف ، فرار الحسين، فتح مكة ١٧٠
دخول ابن سعود اول مرة الى مكة والطواف بالكعبة ١٧٤
ابن سعود ومندوبو العالم الاسلامي ١٧٧
مشاعر ابن سعود الدينية ١٧٩
مؤتمر « بحرة » ١٨١
الاستيلاء على جدة والمدينة . استسلام وفرار علي ١٨٤
دخول ابن سعود للمرة الثانية الى مكة . ابن سعود ملك الحجاز ١٨٦
يأس وموت لورنس ١٨٧
فتح عسير ١٨٩
مفاوضة انكليزية ـ عربية عامة ؛٩٠
المؤتمر العام للجزيرة العربية ١٩١

الجزء الرابع
المملكة العربية السعودية
(١٩٢٨ – ١٩٤٥)

اول مؤتمر اسلامي في مكة ١٩٩
حادث المحمل ٢٠٢
الاخوان يفرضون النظام على الحجاز ٢٠٥
ادارة الديار المقدسة ٢٠٨
الدولة السعودية وحكم الجزيرة العربية ٢١٠
الاسرة المالكة ٢١٢
اعادة تنظيم وتطوير « الاخوان » تطويراً حديثاً ٢١٤
اكتشاف الماء ٢١٨
مستقبل الزراعة ٢٢٠

Marfat.com

سيارات ، طائرات ، هاتف ، لاسلكي ٢٢٢
اكتشاف البترول ٢٢٥
تاسيس « ارامكو » ٢٣٠
خطة تطوير العربية السعودية ٢٣٢
الحرب العالمية الثانية — ثورة العراق ٢٣٥
« حرب الثلاثين يوماً » ٢٣٧
تدخل بريطانيا في سورية وايران ٢٤٢
الجديد في الخليج العربي ٢٤٥
قانون الاعارة والتأجير من الولايات المتحدة للاتحاد السوفياتي ٢٤٧
العلاقات السعودية — البريطانية ٢٥٢
تدخل روزفلت واجتماع « كوينسي » ٢٥٣

الجزء الخامس

المملكة العربية السعودية في مضمار التقدم

(١٩٤٥ — ١٩٥٣)

التجمع البترولي في العام ١٩٤٦ ٢٦٦
تطور « ارامكو » ٢٦٧
انشاء شبكات طرق حديدية وجوية ٢٦٩
حدائق وقصور . تقشف الملك ٢٧١
سياسة ارامكو الاجتماعية ٢٧٢
النفط السعودي في نجدة الولايات المتحدة ٢٧٤
مطامع الروس في الخليج العربي ٢٧٦
بترول الاسترليني في مواجهة بترول الدولار ٢٧٨
ظهور حسني الزعيم ٢٨٢
بترول الدولار يفوز بالجولة الاولى ٢٨٤

Marfat.com

حالة الطوارىء في مقر رئاسة الحكومة البريطانية	٢٨٤
الجامعة العربية	٢٨٥
مقتل حسني الزعيم	٢٨٦
بترول الاسترليني يفوز بالجولة الثانية	٢٨٦
مشروع الهلال الخصيب	٢٨٧
انقلاب اديب الشيشكلي	٢٨٧
انتصار بترول الدولار – الانابيب عبر البلاد العربية	٢٨٨
بترول الدولار يفوز بالجولة الاخيرة	٢٨٩
الاحداث في الشرق الاوسط بين (١٩٥١ – ١٩٥٣)	٢٩٣
الجزيرة العربية امام الحضارة الغربية	٢٩٥
الموجات الثلاث	٢٩٩
ابناء الملك عبد العزيز	٣٠٠
وفاة الملك عبد العزيز	٣٠١
خارطة مجرى الهجرات البشرية عبر الجزيرة العربية	٣٠٣
خارطة الجزيرة العربية قبل سنة ١٩١٤	٣٠٥
خارطة الجزيرة العربية قبل سنة ١٩١٨	٣٠٧
خارطة امتيازات مناطق البترول وخطوط الانابيب عبر البلاد العربية	٢٠٩
خارطة الابار وخط الانابيب في الاحساء والبحرين	٣١١

Marfat.com

Marfat.com

دار الكاتب العربي

للتأليف والترجمة والنشر

بيروت - بناية عمر الخيام - ص.ب ٣١٥٧

هاتف ٢٩١١١٨ - ٢٤٠٥٠٦ - ٢٤٠٥٠٧

ق.ل.

الفنون الأدبية واعلامها في النهضة العربية الحديثة ، لأنيس المقدسي	١٠٠٠
رائد الثقافة العامة ، ايسر الوسائل الفعـــالة في التثقيف الذاتي ،	٧٥٠
لهبرشبرغ ترجمة : نجم ، حجاب ، ياغي ، لبان ، عزام	
محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي،لارثر لفجوي ترجمة الدكتورفخري	٨٧٥
الابطال ، لكارليل	٤٥٠
شهيرات النساء في العالم الاسلامي ، لقدرية حسين	٥٠٠
ادباء السجون ، لعبد العزيز الحلفي	٤٧٥
جمهورية افلاطون ، ترجمة حنا خباز مع مقدمة لفؤاد صروف	٦٠٠
اسرار الثورة العربية الكبرى ، لامين سعيد	٦٠٠
في مواكب النور ، لانيس المقدسي	٦٠٠
اكتشاف جزيرة العرب ، لجاكلين بيرين ، ترجمة قدري قلعجي	٦٥٠
المعارك الفاصلة في التاريخ ، لحنا خباز	٣٥٠
سلطان في عمان ، لجيمس موريس	٢٥٠
طاغور عبقرية الهمت الشرق والغرب ، ترجمة حسني فريز	٢٥٠
الانسان الحديث ، دراسة في مزاجه وقضاياه	٣٠٠
تاريخ العرب العسكري ، لمحمود الدرة	٦٥٠
تاريخ الفكر العربي ، لاسماعيل مظهر	٣٢٥
آفاق الفن ، لاليوت ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا	٣٥٠
مشاهير رجال العلم ، لبولتون ترجمة الدكتور حجاب	٥٠٠
روائع التراجيديا في ادب الغرب لبروكس ترجمة الدكتورالسمرة	٣٠٠

Marfat.com

كانت تقوده نفس جامحة، و
حظ يعتبره عبدالعزيز دليلاً على
الله ، فمضى بهما لفتح مملكته على
اربعين رجلاً ذوي بأس وتصميم

بالصبر اناً وبالاندفاع احيان
بالقوة تارة وبالحيلةتارة اخرى، ب
الهجمات المفاجئة كالصاعقة، و
من التريث الطويل .. هـ
يجـاهد أبداً حتى ادرك البحر
وشواطيء الخليج العربي.

ها هو بعد نصف قرن يص
الحجاز وصاحب امبراطورية
كبرى على رأس مملكة رائعة
من رمال الصحراء وكأنها المعج

ان هذه الملحمة البدوية
الزاهية الالوان ، رغم انها م
القرن العشرين ، تجمع بين
القصة العربية وسحر أ
البطولة .

Marfat.com

هذا الكتاب

ما تزال سيرة عبد العزيز آل سعود معينا زاخرا يستمد منه الباحثون انبل المعاني والمثل وترسم الاقلام اروع صور النهضة في تاريخ امتنا العربية .

فمن مدينة الرياض الضائعة في رمال الصحراء ، كانت الاقدار السعيدة تهيء للبلاد العربية جيلا من المجد وتاريخا من العظمة ، في تجاليد فتى مقدام خلق لرسالة كريمة ما لبثت ان عم خيرها وسطع نورها في الآفاق ، ومن تلك المدينة المنسية التي سرعان ما تحولت الى عاصمة زاهرة للعروبة والاسلام ، هبط الى الجزيرة العربية محيي نهضتها وباعث مجدها .. فاي فتى كان ، واية عزيمة كانت عزيمته ، واية نفس جبارة كانت تلك النفس التي استطاعت ان تخلق لنفسها من العدم المجد الخالد ، وتبعث في الامة العربية تاريخها التالد .

لقد كتب الكثيرون في الشرق والغرب ، سيرة اسد الجزيرة ، ولكن احدا قبل بنوا ميشان لم يستطع ان ينفذ الى سر العظمة والبطولة في شخصيته ، واذا كان مقياس الرجولة كما يرى داهية فرنسا كليمنصو هو ان يشق المرء طريقه بين الرجال ، فان ابن سعود قد شق طريقه ـ على حد تعبير المؤلف ـ بين الممالك والامبراطوريات .

وقد وفق الكاتب الفرنسي الكبير بنواميشان ببراعته المعروفة في تصوير عبقرية العاهل الكبير في نواحيها المتعددة ، فتناوله مناضلا باسلا واثقا من نفسه مؤمنا برسالته ، وقائدا بارعا احكم فن القتال بالالهام والبصيرة وابلى بلاء الابطال المغاوير ، وسياسيا محنكا يعزم على الامر الفاصل بأناة ورويـة ومداورة ناجحة ، ومصلحا فذا يدفع الفوضى والاختلال بالتدبير الحازم والتوجيه الحكيم ، وحاكما رحيما متواضعا يحكم بالعدل ويتسامى عن الظلم والاستبداد .

على هذا النحو الرائع عرض بنواميشان مناقب عبد العزيز آل سعود وتاريخ الدولة السعودية بل تاريخ البلاد العربية في نهضتها الحديثة التي اتصلت [illegible] حياة العاهل السعودي باقوى الوشائج وامتن الاسباب ، فجاء [illegible] اوسع وامتع ما كتب في هذا الموضوع حتى الان .

الثمن ٥٠٠ ق. ل. او ما يعادلها
في المملكة العربية السعودية عشرة ريالات

Marfat.com

Gornji Vratari
Velika Vrbnica
Sindino Brdo
Babji Breg
Krupe
Požari
Šrmenica
Jablanički Potok
Bogdanovići
Makarance
Krstac
Vragolija
Bzenica
Vranja Stena
Orlovac
Taskići
Pogled
Nerade
Petlovac
14
13
12
11
10
09

Marfat.com

Marfat.com

Marfat.com